

خط الغيطاني

جمال الغيطاني

مكتبة مدبولي

جسبال الغیطانی

خط
الغیطانی

» مكتبه محبوا «

٦ میدان طلعت حرب

الطبعة الأولى ١٩٨٠

،، الثانية ١٩٩١م

الجزء الأول

الشوارع، والأسوار

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

السور الأول ويضم باب
الأبواب، وفي البدايات
مدخل به منمنات
ويبدو للناظر المتعجل
انه لا علاقة له بما
سيلي ذلك

.. أعوذ بالله من عمل يقرب من سخطه، وأسأله التوفيق
لما يدني رضاه ومحبه، أحده وهو الأول قبل كل أول،
والآخر بعد كل آخر، الدائم بلا زوال، والباقي بعد كل فان،
لا تدركه الابصار، وهو يدرك الأبصار، لا تغيره الأحوال
ولا يدخله الملل، ولا تنقص سلطانه الأيام والليالي، أما خافه

فتفتني أعمارهم كلما مرت الدقائق والثواني، هو الذي أوجد
هذه الخطط، وما فيها، واليه تعود، وفيه تتلاشى، بعد حين
ومقدار لا يدري أمداه إلا هو، سبحانه، الجأ إليه وزمان
الخطط الحلو يولي، وذبول يدرك الزمن العفي، اخضرار
الخطط تسري إليه صفرة، وأجنة أيام الجهامة تولد بلا راد
أو مانع، في أفق الخطط تلوح علامات النوازل، وتضاعف
الشروع، وفساد الأسباب، أقول والأنات تفيض من الأيام
والليالي، أعلم أن الله خير حافظ، جعل الخطط متوسطة
الدنيا، فسلمت من الحر الشديد والبرد القارس، طاب
هواؤها وضعف قيطها، ورق بردها، سلم أهلها من مشات
الجمال ومصائف عمان وصواعق برمودا، وجرب اليمن،
وطواعين الهند، وعقارب أفريقيا وكوليرا بنجلاديش وغيلان
الأمازون، قيل في الزمن الآفل أن أهل الدنيا مضطرون إلى
الخطط، يسافرون إليها ويطلبون الرزق بها، أما أهلها فلا
يطلبون الرزق في غيرها، أقول وشجني يفوق كل الشجون، أن
الأحوال ستمضي بعكس ذلك، لكنني لماذا أسبق المسافات،
لماذا أتجاوز الشوارع والحارات والضواحي والأحياء
والخلاوي والأطراف؟ سبحانه ربي. تخرج الميت من الحي،
والحي من الميت، كل شيء ماضٍ إلى غاية، عدا الأمانى
فماضية إلى فناء، تحققت وأن لم تتحقق، سبحانه يا من تمسك

بالسر، وتخفي الجوهر، وتضفي على العلى لون الحلم. كانت
الخطط مجلوة، زاهية، حتى أن أهالي الحي السابع أقاموا
سبعين سنة لا يمشون فيه نهارة إلا بخرق سوداء، خوفاً على
أبصارهم من شدة بياض مبانيه. وفي أقل من ميل في ميل
رأى البعض يوماً ميدان رهان، وجنات نخل، ومنازل
سكنى، وذروة جبل، وحادي ابل، وملاح سفينة، أصدق
ذلك قلبي، أو أن المؤرخين والرحالة يكذبون، تبدل الحال،
ومن الشوارع والحواري والأسوار يلوح كذب كأنه صدق،
وصدق كأنه كذب، الأبيض أسود، شباب كأنهم شيوخ، قلة
ميسورة، وكثرة مغمورة، ربي استعذ بك من الشيطان، ربي
ألهمني صبرا جميلاً، عندما خاض العثمانية في خير الخطط،
انشد مؤرخ رقيق الفؤاد..

نوحوا على الخطط لأمر قد جرى

عمت مصيبته كل الورى.

لننأى عن الظاهر، ولننتدلى على مهل في أغوار الباطن،
لندكر بما جرى من طيران الحديد، وسماع اللاسموع، ورؤية
اللامرئي، وانتشار الربا، وتحريم الحلال، وتحليل الحرام،
وتقشي العمولات الربوية، وكثرة الوجوه الأجنبية. وقلب
معاني الأخبار، ربي، ألق السكينة في روحي، قوي صبري
وثبت إيماني، في مواجهة الرزايا، الطف بنا يا مولانا فيما جرت
به المقادير...

باب صغير، قرب نهاية السور الأول لا بد من ولوجه..

..هنا تتعدد التساؤلات، متى يمكن تحديد البداية؟ أهي
ظهور العجم؟ لكن من يستطيع تحديد ذلك بدقة؟ ومتى بدأ
انتظارهم الطويل، وصبرهم على المشاق، وتحملهم للمكروه،
ومن أطلق عليهم اسم العجم وهم من أبناء الخطط، من
مواليدها، وأعمارهم من أيامها؟ ليس من السهل ان تنسب كل
شيء الى العجم كما جرى ذلك عند مرحلة معينة.

تتردد استفسارات هامة، أهو الاستاذ؟ لكن عمره
محدود، كل الدلائل تشير اليه، وكثير من المطبوعات المتداولة
سرا في الخطط تناوله علنا، البعض يقول انه لم يأت بجديد،
وانه جهر فقط بما تجاهله الآخرون، أو تغافلوا عنه.

أو انه المقدور، وعجائبه، وغرائبه..

لكن لا شيء يولد من عدم، لهذا سنأخذ بآراء الكثرة،
والقائلة أن الاستاذ وداره الصحفية وضعوا أساس الحروف.

ومن قبل عرف الخلق في الخطط صحفا عديدة، لكن انفردت جريدة الأنباء بوضع خاص، رغم تقلب الأحوال، وتعدد الظروف، أسسها في الأربعينيات رجل قيل انه كردي، وزعموا انه أرمني، ويؤكد الرواة الثقة انه تركماني، على أية حال لا يذكره الآن انسان، لأنه رحل فجأة وغابت اخباره عن الخطط، ولا تنسب الأنباء الآن إلا الى الاستاذ ورجاله الأوائل، زايد التنوخي، والدكتور لطفي الطنبولي، والدمياطي، ورونق، تشغل الأنباء مبنى من طراز قديم يمت الى القرن الماضي، يقع عند بداية الشوارع، يتميز بنوافذ متسعة، ومدخل فسيح، يفرش الرصيف العريض المؤدي اليه مساحة مستطيلة من الحشائش زاهية الخضرة، يقال ان الاستاذ أحب في بداية عمره اللون الأخضر، وان أشد ما أضناه خلال سنوات الشدة افتقاده للون الأخضر، ان المبنى لا يبهز الناظرين، لكنه أهم مكان في الخطط، ما من زائر أجنبي مهم، أو صحفي بارز، أو كاتب مرموق، أو رجل دين، زار الخطط الا ومر بمبنى الأنباء، اما للمقاء الأستاذ، أو الاستماع الى وجهات نظر، أو مناقشة أمر ما، المبنى من سبعة طوابق، في المدخل مكتب البلشي مسؤول الاستعلامات، في الطابق الأول المحررون الجدد، في الثاني يوجد الصحفيون القدامى، والكتاب غير الدائمين، لكن التنوخي خصص لنفسه

حجرة بالطابق الأول على مقربة من صالة التحرير الرئيسية في الثالث إدارات المطابع، والمستخدمين، والخزانة الخاصة بالمحررين والموظفين، أما العمال فيسلمون رواتبهم ومنحهم وقروضهم من خزانة أخرى داخل المطابع. في الرابع تقع ادارة الاعلانات الخارجية، والداخلية، وتتردد اشاعات عن وجود غرف سرية في هذا الطابق لا يعرفها إلا الاستاذ نفسه، لكن.. لم يثبت صحة ذلك، أما الخامس فيضم الادارة الطبية التي استحدثها الاستاذ في أوائل الستينيات، ويضم السادس عدة صالات للاجتماعات الخاصة، وأغراض أخرى، أما الطابق السابع فخصص بأكمله للأستاذ، وبرغم تقلب الأحوال، ظل مقرا لمن يسير دفة الأمور، توجد مباني عديدة بلا حصر في الخطط ربما فاق بعضها مبنى الدار من ناحية الوظيفة، على سبيل المثال، المقر المركزي للعقل الالكتروني، وادارة أمن الخطط، ومصلحة تسجيل المواليد، لكن جميع هذه المباني أقل مكانة من مبنى الدار. يوجد مكتب للأنباء في كل قسم من الخطط، ومندوب في كل شارع، ومراسل بكل عمارة ضخمة تزيد عن عشرة طوابق، كذلك في النوادي، والنقابات، والتجمعات، والأقسام الفرعية لادارة الأمن، ومراكز اطفاء الحريق، ومراسلون متنقلون في سيارات جواله تحسباً للحوادث المفاجأة، وعندما ذاعت

مأخبار الأطباق الطائرة أبدى الأستاذ همة عالية في الاهتمام بها، أمر بتوزيع فريق من المصورين بقيادة البيجرمي فوق الأماكن المرتفعة، ربما ظهر طبق في سماء الخطط، عندئذ قد يفوز أحدهم بلقطة تجود بها المصادفة، يقول البعض ان كل الذين التحقوا بالدار ذوي طباع متشابهة، حتى لو ثار أحدهم على الأستاذ وجهر بالخلاف، يقولون ان الأستاذ لم يصرح لمخلوق بما أخفاه، لم يضع خطوطا عريضة لما أضمره، انما مضى كل شيء كما أراد، وان الظروف ساعدته على ذلك، لكن تؤكد المطبوعات المتداولة خفية، ان الأستاذ سبب رئيسي وهام، ولولا ظهوره في الخطط لتغيرت أمور عديدة.

الشارع الأول

.. انه شارع قديم، كل ما فيه وقع بالفعل، لم تتبق به الا ذكريات تتأهب لمصاحبة الصدى، يمكن العودة اليه من وقت الى آخر لاستيضاح بعض ما غمض من أمور، أول من أقام فيه الدكتور الطنبولي، وعندما أعدت ملفات العاملين حمل ملفه رقم (١)، عندما جاء الى هذا الشارع لأول مرة كان يقارب الثلاثين، لم يرتد الطربوش في العهد الملكي الذي ساد الخطط أكثر من قرنين، وعد ذلك من محاسنه عندما جاء العهد الجمهوري، والحقيقة ان ملفاته في ادارة المستخدمين، وادارة أمن الخطط، ومصلحة الجوازات، ونقابة الصحفيين، ولجان الصحافة في سائر الأحزاب التي تعاقبت على حكم الخطط تخلو تماما من أي صورة له بالطربوش انه قصير، حاد الأنف، مستدير العينين، قليل الحديث، اذا تكلم في اجتماع بدأ كأنه يخفى، شخصا آخر داخله، لم يشاهد منفعلا أبدا، برغم ضآلة حجمه، ووهنه البادي إلا أنه يستطيع العمل لمدة أربع وعشرين ساعة، إنه أول من يظهر في هذا الشارع عند

بداية النهار لحظة اتخاذه الطريق الى الدار، اتخذ سكرتيرة في
أواسط الخمسينيات بعد الحاج من الاستاذ، وكان لا بد من
مرور شهر قبل اكتمال ثقته فيها، انها سيئة الحظ، لم تتزوج.
بعد عبورها الخامسة والعشرين نحفت، وظهرت تجاعيد على
وجهها، شف جلدها، ونشف صدرها، غطى ساقها شعر
كثيف لهذا ارتدت الجوارب القطنية الطويلة، وعندما ظهرت
موضة البنطلون تمسكت بها ولم تتخل عنها، شنع الجعدي
فقال انها تحلق ذقنها يوميا، وتشتري أمواساً من صيدلية
صغيرة وتدعي ان ذلك لشقيقتها، انها عصبية جداً، تحفظ
عيناها أثناء زعيقها فتشير الخشية في نفوس أعتى الرجال، أكد
الجعدي انها رغبة مكبوتة لأنها لم تسم رائحة رجل، أحبها
صبي جزار لكنها لم ترض به ولم تحن عليه، لأنها رغبت
الزواج من شاب يحمل مؤهلاً عالياً، خريج كلية التجارة.
شعبة المحاسبات، لكنها لم تنل غرضها في هذا الشارع أو الذي
يليه، لا يتقن الدكتور الطنبولي الآن إلا بها، أعجبه عبوسها،
ونظرات الكراهية التي تقابل بها كل من يجيء لمقابلته، كثيراً
ما أصفى من خلف الباب الى الفاظها الغلاظ عندما تحجب من
جاء يسعى وراء سلفة أو تخليص معاملة، تكثر من ترديد
كلمات، المصيبة، الداهية السوداء، الهباب، اذا سلمت
أحدهم موافقة تقول انه من المحتمل انفاق المال على الأطباء،

أو لاجهاض جنين، أو لازالة تشويه قد يحدث نتيجة انفجار
موقد او بوتاجاز، أو رشوة في المشرحة حتى لا تضع ملامح
عزيز غال، لا يصرح الدكتور الطنبولي بخروج مليم الا بعد
تطبيق ما تضمنته اللوائح المالية، يزعم الجعدي ان سبب
اصابته بنوبة قلبية هو حجز احدى الشركات على الخزينة،
ويؤكد انه يبكي قهراً عندما يقبض العاملون مرتباتهم
أول الشهر، لكن مما يذكر له انه أنقذ الدار من
أزمات عديدة، وكثيراً ما اقترض من أقاربه لمداد بعض
التزامات الدار، يزعم الجعدي انه اقترض أموالاً طائلة من
برنق العبيط، لا يذكر انسان انه شوهه يؤدي واجبا، في ماتم
أو فرح، لم يضافح أي انسان في الأعياد والمواسم، تحوط
حياته الخاصة حجب، حتى التنوخي لا يعرف عنه شيئاً مع
انه أقرب الناس اليه في هذا الشارع، كثيراً ما حاول
التجسس عليه، لكنه فشل، كيف تعرف الأستاذ اليه؟ ان
المسافة الأولى من الشارع تقارب على الانتهاء، هذا وجب
الايجاز..

يقال ان أحدهم حدث الاستاذ عن شاب لا يصادق إلا
الحانوتية وحفاري القبور، لا تقوته دفنة، طالب طب لكنه
فاشل، يكره النجاح لنفسه، مال الاستاذ الى ذلك، قال انتوني
به، عرض عليه العمل في الدار، من المؤكد ان الطنبولي لم يتم
نعليه، لكن أعوامه في الكلية منحه لقب دكتور..

زقاق التنوخي

.. كما لا يدري انسان أين كان قبل مولده، أو الى أين سيمضي بعد رحيله الى الأبد، لا يدري انسان على وجه الدقة كيف ظهر التنوخي في هذا الزقاق، كثير من الحكايات مجهولة الأصل، كالأمثال لا يدري أحد أول من نطق بها، لكن هناك قصة شائعة تظني على غيرها، يقال إنه جاء الى الزقاق في أواسط الأربعينيات، سعى الى الاستاذ مرتديا هلاهيل الثياب، بدأ ثابت الأعصاب عندما قال ان مستقبله ضاع بسبب الأنباء، اذ نشرت صورته كمتهم في قضية تزوير، كاد وكيل النيابة يحلّي سبيله لصفر سنه، لكن فضيحة النشر بددت كل أمل، حتى والده الذي يعمل عرضحالجا أمام احدى المحاكم - في رواية أخرى نجار براميل - طرده، بعد صمت قال إن ما دفعه الى الهجره طريقة عرض قضيته. هنا برقت عينا الأستاذ كأنها أضيتا فجأة، انه انبرق الذي عرف عنه، ولا يجروا على الناس على مواجهته لحظة انبعائه، يولد الخشية، يثير الارتباك، ثم الخوف، يستمر حادا، نفاذا، قال التنوخي إنه شعر بتعاطف معه بين السطور، لم يتردد الأستاذ، فتح درج مكتبه الأمين، تناول ثلاث ورقات من فئة العشرة جنيهات، طلب من التنوخي ان يشتري ملابس جديدة، خطر للتنوخي ان يمضي بلا رجعة، لكن عقله قال

نه، حرام ان تبيع الغد باليوم، عاد الى الدار مرة أخرى، تغير مظهره حتى ان البلشي وقف احتراما له مع انه منعه قبل أربع وعشرين ساعة، يبقى سؤال يتردد لدى البعض في الخطط، متى نشرت صورة التنوخي لأول مرة؟، من المؤكد انه بذل جهدا كبيرا للحصول على سائر النسخ من عدد الأنباء، لكن بشاع سرا ان الجميدي لديه نسخة وبين الحين والآخر يطلع عليها أحد الاحباب سرا، لكن... متى اطمان الاستاذ الى التنوخي؟ من الثابت انه لم يوله ثقته الا بعد اتصال ضابط من ادارة أمن الخطط، قال له ان كل صغيرة وكبيرة مرصودة عندهم، ولا يستطيعون متابعة التقارير الشفوية أو التحريرية، انهم على استعداد لقبول التنوخي فورا في حالة الاستغناء عنه أو طرده كما هو متوقع، لكن ما لا يعرفه الضابط الذي تصور انه يؤدي خدمة للاستاذ الواسع النفوذ، ان الاستاذ غمرته راحة بعد المكالمه، أصبح قادرا على الاطمئنان الى المستقبل، هذا هو أول الخونة، استدعى التنوخي وقدم اليه عشرين جنيها، ولفترة طويلة.. لم يعلم التنوخي، لماذا كوفيء يومئذ؟

عطفة الامباي

.. لا تستطيع اذنا انسان واحد أن تلتا بكل ما يقال في نفس الوقت، أو حتى في غرفة محدودة لو زاد عدد المتحدثين

عن شخصين، فصاحب بالين كذاب، وصاحب ثلاثة منافق، لكن الامباي حاول ذلك من موقعه هنا، سعى الى التقاط شوارد المكالمات بواسطة جهاز السويتش الذي تغير عدة مرات منذ تأسيس الدار، لكن الامباي، المجلل بالأسرار لم يتغير، انه مسؤول عن تلقي المكالمات ثم تحويلها الى التليفونات الداخلية، أبطل الأستاذ تركيب أي تليفون مباشر عدا مكتبه، كما انه يتلقى الأخبار الواردة من الأقاليم، لديه قدرة عجيبة على الرد في وقت واحد على أكثر من متحدث، وتحويل الأسلاك، والاصغاء عن طريق ساعة غريبة الشكل، مستديرة ملتصقة دائما بأذنه اليمنى الى كل ما يدور من أحاديث في وقت واحد، انه مصمم هذه الساعة الغريبة التي أبدى المهندسون الألمان دهشهم فيما بعد لغرابتها، لكن هناك أقوال حول قوة سمعه وغرابتها، اذ يستطيع الاصغاء الى عشرات المتحدثين في وقت واحد، وان يستوعب ما يقوله كل منهم، كما انه قادر على الاسغاء الى ديبب النمل، وتنفس الفراشات، والأصوات المصاحبة لفتح الزهور عند الفجر، وصدى تبخر الندى، يقال ان الأستاذ اكتشفه أثناء أحد الموالد التي تقام عادة لأولياء الخطط، ويشنع الجميدي فيقول انه قادر على الاصغاء لما يجري عند أقصى نقطة في الخطط، وانه كثيرا ما حاول الابلاغ عن جناة ارتكبوا جرائمهم ثم

تحدثوا بها، والتقط أصواتهم، لكن الأستاذ منعه من ذلك، وطلب اليه الا ينقل ما يسمعه الا اليه هو فقط، ومنذ ذلك الحين يبدو الامباي كالأخرس، يتناول افطاره وغداءه أثناء جلوسه خلف السويتش، ربما فسر ذلك غلظ ردفه، يحتفظ في ذاكرته بآلاف الأرقام، يمكنه العثور على أي مسؤول، حتى انه أوصل الأستاذ برئيس وزراء الخطط السابق في بيت عشيقته، ومن مكانه هنا يمكنه أن يرصد حركة العاملين في الدار بدون أن يراهم، فيرد قائلا ان فلان يشرب الشاي عند فلان، أو أن هذا الصحفي غادر المبنى، وان ذاك يكتب، لهذا لا يمكنه ازعاجه، ومن معتقداته الغريبة ان كل صوت يتردد لا يفنى، انما محفوظ في فراغ ما، فضاء لم يصل الى تصويره عقل بشري، وان لكل صوت بصمة لا تتغير منذ الميلاد وحتى الموت وانه يحفظ بصمة كل صوت تحدث اليه ولو مرة واحدة، ومن المؤكد انه الوحيد الذي يمكنه الحديث الى الأستاذ في أي وقت، والنفاذ الى الأقبية التي لم يدخلها أقرب الناس الى الأستاذ، والمؤكد أيضا ان الأستاذ كافأه بمائة جنيه من جيبه الخاص بعيدا عن تعقيدات الطنبولي وجهامة سكرتيرته، لماذا هذه المكافأة مع انها واقعة نادرة الحدوث، هذا ما لا يعلمه انسان..

درب رونق

.. الرجل خفيفة على هذا الدرب، ربما لأنه يفصح عما يحويه، ولأن معاله خفية، والساعي اليه لن يستطيع الوقوف أبداً على التفاصيل الدقيقة لكيفية تعرف الأستاذ برونق، حتى الهيئات السرية، بما فيها إدارة أمن الخطط، وعملاء وكالة المخابرات المركزية بالخطط، أو التنظيمات الخفية للأجوج، وفي مثل هذه الدروب لا يمكن إلا الأخذ بما هو شائع، أو برواية تجب ما عداها، المؤكد انه لم يرتبط بعلاقة تماثل علاقته برونق، يقال انه جاء اليه رجل أبيض الشعر، على جلده لون الثراء وملبس الشبع، وفي صوته نبرات الغنى وطابعها التسهل والنطق البطيء الثابت، الموزون، قال انه سفير سابق، تولى السفارة مرات، وفي عواصم مختلفة، عندما كان السفير له هيبة، وقبل ان يتولى الأولاد هذا المنصب، ابنته درست معه في إنجلترا، طافت بلدانا كثيرة، تتقن الأسبانية، والايطالية والفرنسية، كما انها تعرف لغة أعداء الخطط، ثم ببعض لغات بلدان أفريقيا الوسطى، وكثيرا ما استعان بها للتفاهم مع أهالي هذه النواحي وهي في السابعة، ومعروف طبعا ان الأطفال يتعلمون اللغات أسرع من الكبار، انها جريئة، ذكية، وترغب في العمل كصحفية، هز الأستاذ رأسه موافقا، لكن مقابل شرط واحد، أبدى

لرجل موافقة مسبقة، قال الأستاذ بهدوء ثاقب، أن يفض بكارتها بنفسه... ان الأستاذ يهوى مفاجأة الآخرين بما لم يعتادوه، ويلقى المتعة في تقصي ردود الأفعال وله في ذلك نوادر عجيبة، كأن يتحدث الى إحدى المصونات مجدية، ثم تفوهه بلفظ فاحش، أو انحنائه لأستاذة جامعية، وسؤالها برصانة عن الوضع المفضل مع زوجها، أو تقدمه من سيدة تدير جمعية خيرية، طلب الحديث على انفراد، قال انه يرغب في مضاجعتها جيدا... في مكتبه، غدا، في الخامسة، يؤكد انها جاءت في الموعد تماما، وانه ما من امرأة جاهرت بالاحتجاج، أما عن قوة الأستاذ وفحولته فهذا أمر شائع في كافة انحاء الخطط، بعد أيام قال جعفر ان آنسة ترغب في رؤيته، عندما ظهرت على مهل في مدخل الدرب، تلخص انطباعه في لفظ واحد «مهرة»، مهرة منسبة، أصيلة، فرس الرهان، جموح يضج به جسدها، صدرها متوتر كالقوس المشدود، له أزيز، قوام راقصة إسبانية تزهو في الحلبة، سارح الى أعلى بلا مانع، شلال متدفق من الأنوثة الغضة التي تلهب الخواص، ضم بعينيه الخصر الرقيق الذي يعجز الذهن عن تصور انه يضم كيدا ومعدة وأجهزة أخرى، لم يتخل الأستاذ عن عادته، ركز البصر أخمص البطن، لكنها لم تجفل، لم تحضن حقيبتها مشاغلة، انما اشتهرت نظراتها بلا خجل،

تدفقت الى شرايينه، لحسن حفظه انها لم تولد في بلد آخر، بدت عالمة بما يضره، مطلعة على نواياه، قبل الاضطجاع قال بصراحة ان اي امرأة بالنسبة له أداة راحة من توتر لا بد من افراغه، قال ان المرأة خلقت لذلك، مع انه يكتب ليل نهار عن حريتها وضرورة مآهنتها في الحياة العامة، بعد انتهائه قال انها خسرا والدها بسبب شيء لا وجود له، لم تبد اهتماما، ولم يبدو انه استشارها باستفزازه، بعد سبعة أيام قال انها ستعمل بمكتبه، ستطلع على كل شيء، لكن ليس لما أن تسأل على ما لن يحطها به علما، لا بالتصريح أو التلميح، جان الوقت الذي يجب ان يقوم بينه وبين الناس حاجز حلو شفاف، حازم، بملأ العيون، ان جعفر وحده لا يكفي. وهكذا.. اصبح الجميع مطالبين بالتحدث الى رونق قبل مقابلة الأستاذ، واستثنى التلويحي، والطمبولي، وجعفر الساعي، والامباري..

عطفة الساعي

في الدرب السابق، أطل جعفر الساعي مرة واحدة ليخبر بوصول رونق، ثم تركها بمفردها، لم يدر وقتئذ أنه سينسحب مرات فيما بعد، انه الساعي الخاص، نخيل، طويل كعود الزان، حاجباه مقوسان لهذا يبدو غاضبا دائما، حتى له

الدخول في أي وقت، يحمل القهوة، يخبر عن محرر يطلب مقابلة، أو يرتب الأوراق، ينفض غبارا غير مرئي، وقد يدخل ليحملك لحظات ثم يخرج، إنه ابن رئيس حاشية الخدم في بيت والد الأستاذ، مع محبي رونق قلل دخوله الى المكتب مع أن رونق لم تطلب منه ذلك، وعاملته بود، ان برنق العبيط لا يجري الا لحظة ظهور جعفر، يخشاه، وإذا رآه فجأة فإن الذعر يركبه، ويصرخ حتى يختفي، أو يركع ماداً يديه كأنه يحوش ضربات متوقعة... رونق نفسها يدركها شعور بالقلق عند ظهوره، ولأن حاجبيه مقوسان، يعبران عن غضب دائم، فلم تدر أبدا حقيقة مشاعره....

زاوية برنق

في زمن تأسيس الدار ظهر برنق، انه ضخم، غليظ الشفتين، يبدو لامها دائما، يرتدي جلبابا فوق جلباب فوق جلباب، ومغطفا أصفر اللون من مخلفات رجال أمن الخطط، ولا يبدل ذلك صيفا أو شتاء، جاء من أحشاء الحوارى والأزقة، حمل الأثقال، والمقاطف، ومواد البناء، وصب الخرسانة، وحمل صواني القهوة والشاي، يحتفي فترات طويلة فلا يسأل عنه أحد، وعندما يظهر لا يهتم انسان بسؤاله عن الجهة التي قدم منها. يبدو أحيانا كأنه لم يم منذ ليل، ويبدو أحيانا

مستشياً، ربما جاد بصراخ مفاجيء، اذا ضربه أحدهم على قفاه.
صاح هائجاً «ملعون أبو الخطط» يتحرك دائماً بالقرب من المدخل،
اذ يلمح الأستاذ قادمًا يهرول زاعقاً، ولحظة توقف العربية
أمام المدخل يختفي، لكن الأمر يختلف مع المحررين اذ يتبع
الواحد منهم مسائلًا «هل قرب الأوان؟» ويجيبونه قائلين
ان الوقت لم يعد بعيداً، ذلك ان حلمه الالتحاق كساعي
بالدار، وان تصرف له حلة شتوية، وأخرى صيفية، في أيام
الأعياد يجيىء حاملاً زهوراً صفراء ويرجو البلشي توصيلها الى
الأستاذ لتذكيره بخادمه برنق الذي لم يعين بعد، بعد مجيىء
رونق اعتاد الجري أمام التاكسي، يمك مقبض الباب حتى
نزولها، لم تبد منه جزعاً، وأحياناً تمد يدها في حقيبتها وتعطيه
ورقة نقدية، يزعم «تعيش جلالة الملكة»، ويؤكد عدد من
عمال المطبعة أن لديه ثروة مخبأة في أواني فخارية، وأنه
أقرض الأستاذ مبلغاً ساهم به في تأسيس الدار، وأن الدكتور
الطنبولي يعتبر وجوده ضماناً للاستقرار المالي، ويستشهد
القائلون بزعم برنق وقوله ان كل من في الدار هم رجاله،
يرقبه البلشي دائماً، يمنعه من تجاوز المدخل، ويقسم ان له صلة
وثيقة بالمعجم، وأنه يعرف رموزهم، ويقرأ كتبهم، يرد آخرون
بأن في ذلك مبالغة، وان برنق واحد من الضائعين الذين
يملأون الخطط، وكل منهم ظهر في منطقة فارتبط بها، ولم

يفارقها، وعاش فيها يستجدي سكانها، أو يؤدي خدمات لهم
مقابل قرش أو لقمة، ومثله كثيرين.. مع أنه لا يوجد ما يمت
اليهم، او ما يمتون اليه في المكان الذي ظهروا فيه فجأة
وارتبطوا به...

وقفة البلشي..

لم ير البلشي في الخطط الا واقفاً، ما من انسان تردد هذا
أو هناك الا ورصده بعينيه، وحفظ ملامحه، واذا دخل
الدار فانه يطلع على بطاقته، لا يكتب أي بيانات في مواجهة
الزائر، انما يستوعب عقله كل التفاصيل ثم يدونها، في البداية
قام بعدة أعمال لسنوات طويلة ناءت بحملها بعد ذلك أجهزة
بأكملها، كان يسأل كل زائر عن سبب مجيئه، أي شخص
سيقابل؟ كم من الزمن سيقضي داخل الدار، كان يتابع خروج
ودخول المحررين والموظفين والعمال، من خرج بمفرده؟ من
خرج بصحبة من؟ يتلقى شكاوى الناس وأحياناً يردد، ويبلغ
قرارات الفصل للذين طردوا ومنع دخولهم الى الدار، وقد
ظل طوال عمره متمسكاً بالمهمة الأخيرة، مُصِراً على القيام بها
بنفسه، عرف عنه حبه الشديد للاحتفاظ بكل ما يمت اليه أو
الى عمله، ما من ورقة خط فيها كلمة الا ويحتفظ بها، كذلك
كافة الخطابات التي تلقاها، وكراريس طفولته، وتعليقات

الأستاذ المكتوبة التي يأمر الطنبولي بوضعها في لوحة الاعلانات التي تصدر المدخل، يحتفظ أيضاً بعلب من الصفيح جمع فيها كل الشعر الذي تساقط من رأسه، أو لحيته، أو شاربه، بفعل الصلع أو الحلاقة، يحتفظ بجواربه القديمة وملابسه الداخلية. وأحذيته وقمصانه، والحقائب التي تهرأت، وأطر النظارات الطبية التي ارتداها، كان ينوي عندما يشعر بدنو أجله القيام بأحصائية نهائية يعلم منها، كم حذاء ارتدى أو كم سروالا، وما مقدار وزن الشعر الذي انبته جسمه طوال حياته؟، في متابعتها للعاملين كان يلم بعد نظرة واحدة بالحالة النفسية، يقارن بحالتهم عند دخولهم، ويفضي بهذا كله الى الأستاذ، ولكن برغم حدة ملاحظته فان سنوات عديدة مرت قبل ان يرصد زيارة تتكرر كل سبعة وسبعين يوما، يقوم بها شخص له ملامح غريبة، ملامح تشبه الصور التي تنشر أحيانا في الصحف لزعماء الأعداء ورجال حربهم، أو أسرارهم، انها الذقن المدببة، والعيون الضيقة، كان الأستاذ يطلب منه أن يسمح له بالصعود، ولا يؤخره..

لمحة سريعة في أخبار الأعداء

أعلم انه للخطط أربعة حدود: ثلاثة في البر، والرابعة في البحر. ثلاثة مع الأصدقاء، والرابعة مع الأعداء. الغربية

تتصل ببلاد الغرب وفي الماضي البعيد والوسيط كانت تعتبر امتدادا طبيعيا للخطط، ولم يكن المسافر يحتاج الى جواز سفر، أو اجتياز مخافر حدودية، أو بوابات جركية، كذلك كان الأمر مع البلاد الجنوبية والاراضي الشمالية. أما البحر الكبير الذي يقع الى الشرق فكان عبوره يتم في الزمن القديم خلال شهر، وفي الزمن الحديث حوالي أسبوع، على امتداد تاريخ الخطط نشبت حروب عديدة، تسجل ذلك اللوحات الأثرية النادرة في المعابد الضخمة والمعابد المتطرفة في الصحراء الممتدة على جانبي الوادي، وهناك أقوال لبعض مهندسي المناجم عن لوحات منقوشة في الصخور الوعرة بمنطقة الخلاوي الصخرية، لكن هذه اللوحات لم تسجل حتى الآن، اذ أن منطقة الخلاوي وعرة جدا، وتزدحم بالشعابين والهُوام، حتى قوات الجيش لم تكلف نفسها عناء استكشافها لوعورتها واستحالة اختراقها، وهكذا عدت ضمن الحزام الدفاعي للخطط جهة الشرق. جاء الأعداء منذ بداية القرن على دفعات الى امتداد الاراضي الشمالية ثم غمت قوتهم، واستفحل أمرهم، وهددوا الخطط نفسها منذ أربعين عاما، وأرسلوا طائراتهم للاغارة على الشوارع والأسوار، وتسبب ذلك في نشوب عدة حروب، جرت على فترات شبه متساوية، معدل الفترة سبع سنوات، وأصبح يوجد شهيد من أهالي الخطط بين كل سبعة أشخاص، وجريح بين كل أربعة، وتعلم الأطفال

منذ صغرهم كراهية الأعداء الذين وصفوا بأنهم أغراب، أو
أجانب، أو مرتزقة، وأنهم جاءوا من كل حدب وصوب،
وجرت عادة الأمهات في كافة مستوياتهن الثقافية، على
قص حواديت لأطفالهن تدور حول الأعداء الأغراب
الذين جاءوا لخطف الحلوى من الصغار، ولحرمانهم من
اللعب، ولتخويفهم ولإبعادهم عن الوالدين، وفي المدارس
والجامعات لم يخل درس أو بحث أو رسالة علمية من إشارة
إلى الأعداء، ومحاولة فهم أحوالهم، وفي الإذاعة انشدت
آلاف الأغنيات، وفي المحافل تليت القصائد، تندد بالأعداء،
وتستثير المشاعر للانتقام لأرواح الشهداء، ومن حين إلى آخر
يعلن عن امساك جاسوس، أو عميل، أو أحد أفرادهم، يمكن
القول أنهم خلال القرن الأخير شكلوا الخطر الحقيقي على
الخطط، بل الخطر الوحيد الباهم، ولا زال حتى الآن..

نهاية الشارع الأول

وهنا تساؤل، متى بدأ العاملون في الدار يستخدمون لقب
الأستاذ عند مخاطبته، أو عند الحديث عنه؟ لا يمكن تحديد
يوم أو شهر بعينه، يروي التنوخي حادثة ذات مغزى، إذ
عمل في الدار صحفي اسمه غريب، وعرف عنه حبه التقرب
من كبار الموظفين، إذا قابله انسان قال له بمناسبة أو دون

مناسبة انه ماض لمقابلة وكيل الوزارة الفلاني، أو الوزير
الفلاني. وحدث مرة بعد شربه القهوة مع مدير بوزارة ري
الخطط ان سأل المدير عن عادات كبار الكتاب في الجريدة،
حاول غريب ان يبدو عالماً، فلما، فنسب اليهم ما هو غير
حقيقي وزاد فيما هو حقيقي، تحدث عن الأستاذ باستخفاف،
كيف يستشير عند كل خطوة، كيف يقول له : انقذي
يا غريب، انقذي يا غريب، عند عودته إلى الدار فوجيء
بالبلشي يقترب منه وينحني ويطلب بصوته النحيل الترجه إلى
مكتب الدكتور الطنبولي، أطال البلشي نطق الكلمات وفسر
مخارج الحروف. وبدأ مستمعا بكل لفظ، اضطرب غريب،
طلبت منه كريمة الانتظار، تركته أربع ساعات كاملة، لم
تسمع له بلامسة كرسي، وعلى فترات متقاربة تنظر إليه،
وتمصص شفيتها، كاد يبول على نفسه خوفا واضطرابا، لم
يستغرق لقاءه بالدكتور الا نصف دقيقة.. سأل، هل تحدث
عن الأستاذ مع مدير عام بوزارة الأشغال، هم بالكلام، صاح
الدكتور : نعم أو لا؟ أو ما غريب، طلب منه المرور على
الخزينة، والا يدخل الدار، من المعروف ان الأستاذ لم يصدر
قرارا بتعيين انسان طوال الأربعينيات، لهذا خشي كل انسان
على لقمة عيشه، كما خاف الجميع من غضبه الهادئ،
ونظراته، وقدرته على جذب الآخرين إلى فلكه بحلو حديثه

وقدرته الفائقة على ضرب المثل تلو المثل، ورواية الحكايات، والاستشهاد بالشعر القديم، والحديث، وأقوال بالانجليزية، وحكم باللاتينية، وفقرات فرنسية، ومع اتساع ثقافته عرف عنه كراهيته لأي صحفي أو موظف أو عامل بالدار لديه اهتمامات عامة، أو يقتني الكتب، انه شديد التأثير فيمن يحيطون به، وعند خروج الأستاذ بمقابلة فانه يوجه الأسئلة وكأن الأستاذ صاغها قبل نطقه بها، حتى كتاباتهم تأثرت بطريقة الأستاذ، لكن لم يرق أحدهم الى أسلوبه، انشغل الجميع به، وطاردهم حتى في أحلامهم، ولم يفكر أحدهم متى أطلق عليه لقب الأستاذ أو ما اسه الكامل؟

نقطة تفتيش تابعة لادارة أمن الخطط

أعلم ان ادارة أمن الخطط من أقوى الجهات نفوذاً، وأن تنظيماتها، وأقسامها تعد سرا من أسرار الخطط العليا، وأن تغييراً جوهرياً لم يطرأ على رجالها المعروفين أو العلنيين مع أن العصر تبدل، والوضع تغير، خاصة بعد زوال العهد الملكي، وبدأ العهد الجمهوري، بل ان القوانين القديمة المنظمة للترقي، ولتعامل الادارة مع الأهالي، لم تبدل، لم يتغير شيء فيما عدا الرواتب، التي زادت باستمرار، ان الجهد الرئيسي لادارة أمن الخطط يتلخص في مقاومة العجم

واشباههم، وفصائل المعارضة، أما مطاردة جواسيس الأعداء ومحاولة كشف أخبارهم فمن اختصاص قسم مستقل أطلق عليه قسم النشاط الخارجي، ويوجد قسم آخر مستقل أيضاً يختص بالشئون الجنائية، وقضايا الأمن الاجرائية، ان إدارة أمن الخطط مسئولة تماماً عن مراقبة جميع شخصيات الخطط، ومطاردة تنظيمات العجم، والكشف عليهم، وتشويه أفكارهم، يوجد مقرها المركزي في مكان ما من الخطط، غير معروف ولكن توجد نقاط تفتيش في الشوارع والأسوار، والأزقة والحواري، وتقوم النقاط بتفتيش هذه المناطق باستمرار، ومراقبة المشتبه فيهم، والبحث عن ماضي أي شخصية جديدة تدخل الى الخطط أو يرد ذكرها، وعند نهاية الشارع الأول خضعت جميع الشخصيات التي ظهرت أو مرت الآن لعمليات تفتيش دقيقة، بعضها سري، والآخر علني، تم ذلك بالنسبة للجميع، حتى برنق وأمثاله من الضائعين، بل أن برنق لقي اهتماماً خاصاً، فيما عدا الأستاذ الذي لم يقترب منه انسان.. وعادة يوجه ضابط ادارة الأمن الذي يرتدي ملابس مدنية سؤالاً واحداً لكل شخصية قبل عبورها الى الجزء التالي من الخطط.. عند نهاية الشارع كان السؤال :

لماذا تبدو قامة الانسان منتصبه دون غيره من سائر الحيوانات؟

قال الطنبولي لأن للانسان عمود فقري مستقيم، وقال
جعفر وقالت كريمة انها لا يعرفان، وقال البلشي: حتى يمكنه
النظر الى الأمام، وقال التنوخي لأنه يمشي على قدمين
والحيوان يمشي على أربع، وقالت رونق حتى يمكن اتخاذ وضع
الجماع الذي يتقابل فيه الوجه بالوجه بعكس الحيوان، وقال
الجميعدي انها حكمة من الحكم العليا، وقال الامباري ان الكمال
في الوقوف، ولم يجب برنق أبداً، لكن بعد ان صرفه الضابط
زقق.. ملعون أبو الخطط...

السور الثاني

في أوله أغمى على امرأة عجوز ترتدي فستانا قديما
أسود...

وسرت اشاعة بين أصحاب الدكاكين الواقعة قرب الشارع
الأول ان البلدية ستزيل هذا الجانب كله، استشرى سخط
وضيق، لكن ردد البعض أقوالا مطمئنة، ان أقدم مقاهي
الخطط يقع في زمام تلك المباني ورواده من مشاهير الخلق
وكبارهم وأصحاب الحل والعقد في الخطط كلها. ولصاحب
المنهى أحباب بينهم...

وتهدم جزء من خان قديم بني في القرن السادس عشر
أول زمن الغزو العثماني ومع انهيار الجدار الشمالي ظهر جزع
نخلة عتيقة يذكرها المعمرون من الحي القديم كأحد معالم
طفولتهم، وكتب مدرس اللغة العربية بالمدرسة المجاورة خطابا
الى جريدة الأنباء ينبه الى أهمية الأثر.

ونمت أشجار تم غرسها فوق إلتلال المطلة على أطراف

السور منذ ثلاثة أعوام، وقال الناس.. لينشأن في هذا المكان
منظر جميل..

واستمر اللبن الوحيد يبيع اللبن لزبائنه طوال الليل،
ويقدم الافطار للمسافرين قبل بداية النهار، ولم يغير طريقته
الموروثة عن والده، تقديم سلطانية خزفية بها حليب مصفى،
وطبق به خمس كعكات صفار، وكان بعض الزبائن يحاول
اخفاء تهشم الكعكة تحت اضراسه، وآخرون لا يباليون،
وعدد لا بأس به يطلب اضافة القشدة..

وفيه صدر بيان من القيادة العليا للخطط يعلن عن وجود
حشود للأعداء واختراق ثلاث طائرات معادية المجال الجوي..
وفي اليوم التالي بدأت الأنباء ثلاث حملات، الأولى تحذر
الخلق من النمل الأبيض، الشره الى أخشاب البناء، أبدى
المختصون في وزارة الزراعة دهشتهم لأن النمل الأبيض لم
يظهر في الخطط منذ عدة سنوات، لكنهم لم يترددوا في
الاجابة على أسئلة العناني، والجعيدى، وكاميليا السويفى،
سأل مديرهم عن نشر صورته فوعده العناني خيرا، والحملة
الثانية حول الأخطار المترتبة على تعري الأسلاك الكهربائية
في الأماكن العامة، والثالثة قام بها الهلالي في صفحة الفن ضد
كتاب القصص السينائية، واتهمهم بالتقصير في ابراز الفرق بين
العهد الملكي والعهد الجمهوري..

وفيه كتب التنوخي سلسلة مقالات عن مشاهداته في بلاد
العجم، عنوانها الرئيسي... «الجحيم هناك»، ذكر انتشار
الفقر، وضراوة البؤس، وخلو البيوت من دورات المياه،
وامتداد الطواير عدة كيلومترات في انتظار الخبز، ونسيان
الناس لمذاق اللحم... طالب التنوخي بضرورة التصدي
للعجم الذين يرغبون في تحويل البلاد الى نظم تشبه نظم العجم...

وفيه طلب الأستاذ من الدكتور الطنبولي تسوية حساب
فرح حافظ، وجاء قراره بعد تردد قصير، فرح حافظ لا
تنقصه سمة واحدة مما يبحث عنه في طلبة الجامعة سواء بقسم
الصحافة أو غيره، أو في كل من يراه، انه غام مثالي، محب
لايذاء الآخرين الى درجة تثير الاعجاب وتجعله متفوقا على
العناني في كرهه للناس، لا يحب لصاحبه أو أخيه ما يحبه
لنفسه. بخيل، بالاضافة الى ذلك فإن كتابته لا تحتاج الى
اعادة صياغة، له أسلوبه، لكن الشيء الحلو لا يكتمل، ما
ضايق الأستاذ تلك الهواية الغريبة، وهي جمع التوقعات،
ورفع العرائض اليه هو، الى الاستاذ، خلال شهور قليلة
قضاها: حرر عشرات العرائض، وجمع توقعات عدد كبير من
العاملين، ان مضمون العرائض لا يزعج، عريضة يطالب فيها
العاملون باستمرار عمل البوفيه ساعتين اضافيتين، عريضة
هدفها إصلاح عدد من صنايع المياه التالفة بالدورات،

عريضة ضد زملاء الذين يلتقون أعقاب سجاثرهم فوق الأرض، وقد نبه ضابط ادارة أمن الخطط الى فرح حافظ، واستحسن عدم استمراره في الخطط لأن جمع التوقيعات من علامات العجم، ولكن التنبيه جاء متأخراً، إذ أن الأستاذ كان قد أقصاه بالفعل..

وفيه رأى الأستاذ شاباً طويلاً الى حد غير عادي، عريض، متين الرقبة، كبير الرأس، سأل، فقالوا له انه مدرب المصارعة الحرة في النادي، يتمتع بقوة خارقة، يمكنه جر عربة باسنانه، لكنه لم يؤذ انساناً، ان قلبه طيب كالحمامة واسمه الوتيدي..

وفيه حام رجل يتحدث العربية، لكن ملامحه غريبة بالنسبة لمن رأوه يستفسر ويستقصي، كان يسأل عن رجل صيني الأصل، يسكن البيت المواجه، بالتحديد الشقة الأرضية، قيل له إن الشقة لم تعرف صينياً أو مغربياً، وأنه يسكنها شاب مستقيم الخلق، ومعه أمه، اسمه الوتيدي..

وفي الصباح ظهر جعفر الساعي، طرق الباب في السادسة، حتى أن أم الوتيدي فزعت ورددت: يا فتاح يا عليم، يا رزاق يا كريم، استر يا رب. قال جعفر للوتيدي، انه مطلوب لمقابلة صاحب ورئيس تحرير الأنباء..

أبدى الأستاذ ارتياحاً، وقال ان البقايا الموجودة في نفس

الوتيدي يمكن ازالتهما، مثل مقدرته على الاحساس بمضايقات الآخرين، وشهامته، وعدم ارتكابه المعاصي، تلك أمور لن تعوق اندماجه في اسرة الأنبياء الصسيمة، ونواة الخطط الجديدة، وأكد رأيه تقرير ادارة أمن الخطط، لم تبد اعتراضاً على دخول الوتيدي الى الخطط، وأشارت الى رغبته العميقة في ضمان رزق مستقر، وهذا يجعل من الصعب انضمامه الى العجم يوماً، أو الى فئة معارضة..

وفيه أتم خالد الرابعة عشر، أطلال النظر الى ابنة الجيران سعاد، تبدو مختلفة عن الأخريات، انها نحيفة، خمرية اللون، واسعة العينين، ترتدي جورباً أبيض، حدث صاحبه حسن عنها، مشى معه عبر الحواري والعطوف، جلسا في مسجد قديم، استذكرا دروسهما في هدوء المسجد المعقم، تتاب خالد أفكار مفاجئة فيعبر عنها بغتة، سيصبح يوماً قادراً على مد المون الى المكروبين، يتمنى تحقيق الراحة لأبيه، بعد أن يتوظف، بعد أن يقبض اول مرتب، سيضعه كاملاً بين يديه بل انه سيطلب منه أن يحيل نفسه الى المعاش، سيدخر نقوداً ليفك رهن نصف الفدان الوحيد، أبوه يريد أن يتم تعليمه حتى الجامعة، لكنه سيلتحق بمدرسة متوسطة، ليحصل على وظيفة سريعة، انه يحب سعاد، سيروح بحبه في لحظة ما، يتمنى لو انه امتلك آلة تصوير، يتمنى لو انه التقط

لها صورة خفية ثم يتطلع اليها كلما خلا الى نفسه : يفكر في كتابة خطاب اليها، لكنه لم يصنع بعد، ويقول لها انه يحبها، وانه يعرف، مقدما انها لن تلتفت اليه، ولن تهتم به، لأن ملاحظه قبيحة، ولأنه منطوي، لكنه يريد منها ان تسمح له بحبه لها فقط، واذا شعرت بضيق يمكنها ان تجد فيه صديقا حقيقيا، سيصفي اليها، ويهدي اليها التصح، وقلبه يتقطع آلا، لأنه يعلم تماما انها تحب انسانا غيره. ان حالها يفكر أيضا في خطة لقهو الاعداء، وازاحة خطرهم عن الخطط، وايقاع الهزيمة النهائية بهم، واجلائهم عن الاراضي الشمالية. واعادتها الى أصحابها : في لحظة مناسبة سيعلنها، كان حتى يصغر. ثم يقول : يا عم.. انت احلامك كثيرة.. لنته أولا من دروسنا..

وفيه أسلم خالد كفه لعجوز يجلس أمام المدرسة، قال العجوز ان عمرا طويلا يتد أمامه، وانه سيصاب بمرض يلزمه، وانه سيتوحد يوما بالصخر، وانه سيقاسى شداثدا ومنا، وانه سيعشق انثى قصيرة، نحيلة، أول اسمها كأول حروف الكلام، أدرك خالد غضب، كيف يتخيل هذا الرجل انه سيحب انثى أخرى، سعاد في القلب وما عداها لا أثر له.

وفيه قال توفيق بك لضيغه الدكتور فوزي طبيب القلب

المشهور : دعني أطلب يد ابنك لابنتي اينار، ضحك الدكتور فوزي « أمكندا » تنقلب الآية ؟ نحن الذين نتشرف باينار.. وفيه وقعت كائنة الجعدي، وتفصيل ذلك، انه عاد في الخامسة الى بيته، مشى على اطراف أصابعه، متخيلا رد فعل المناحاة على زوجته وابنته ثريا، دفع باب حجرة النوم. ان ينس قلن ينسى ساقي امرأته تحيطان، برجل، مؤخرته عارية، يعطي للبرد شعر كثيف رأسه مدفوس في صدرها، نزل ثقل على رأسه. انفصلا. مرور كل جزء من ثانية يمنحها القدرة على التصرف في مواجهة حموده. سحبت ملءة السرير، لغت جسدها. عركه جانبيه التقطت سرواها، بسرعة ارتدته، زعقت. انها لا ترعب في العيش معه، تابعها وهي تحرض الا تدبر ظهرها له، لم يدرك متى ارتدى الرجل الغريب ملابسه، ما شغلته في هذه اللحظة، كيف سيحكي ذلك فيما بعد، تخيل عطف مستميه بعد ان يقول : امرأتي هجرتني. خرج الرجل، خرجت هي، نزل صمت جارج، تمهلت دقات قلبه، احتوى بعينيه لون المقاعد، والأواني الفضية في ركن الصالة، تذكر اصرارها على شراء دولاب فضيات، بعد أن جاءت ثريا، حاش دموعه غصبا، احتضنها، قال ان أمها سافرت في رحلة مناجئة..

وفيه وصل المهندس ضرغام الى أعماق نائية من الصحراء

الغريبة، بدا المكان مجعاً لصمت الدنيا، في الواحة تكاثف النخيل، لكن الخضرة ليست خالصة، ليست مرتوية، جذوع النخيل في اسوار البساتين، وأسقف البيوت، والمعابر الصغيرة فوق مسارب المياه الشحيحة، في العصر هاله الجلال السكوني وقف عند بداية رمال لا عرض لها ولا طول، ستتوالى أيامه هنا، يسمى وراء المياه في مساراتها الجوفية، أن قلبه جسور على الصحراء..

قيل للاستاذ ان شابا عاشقا للصحراء سافر الى الأعماق، لديه مشروع متكامل لزراعة آلاف الأفدنة في الواحات النائية، سيعود ذلك على الناس بخير وفير، أخفى الاستاذ ضيقه، مثل هذه الروح تهدد الخطط الجديدة التي يسمى لاقامتها.

وخلا الاستاذ الى أحد زائريه من ذوي الملامح الغريبة، قال الزائر إن العشرات يرابطون في كل مكان، أمام المدارس، وخول مكاتب تسجيل المواليد، يتظاهرون بقراءة الكف، ومنهم من يجيد ذلك فعلا، ويقرأ طوابع النجوم، انهم يتفرون، ويستقصون..

واستمر صاحب أقدم مقهى على جلوسه المعتاد، يدخن النرجيلة، يرعى الزبائن بعينيه، ويرقب بقلبه اسراب الحمام داخل الأقفاص، تصله أصوات خافتة، تفلت ضحكة، يرن

طبق، بحمد الله انه لا زال يعيش، يصني الى السهاري. والمعتصمين بالتمهي من وحشة الليل، وبُعْد الأصحاب، وهجر الأحبة، وطول الطريق، واستعصاء الاجابات، ثم يرنو بقلب محسور على اللذات، والأيام التي خانتها، ولن ترجع أبدا، عند الفجر يصني الى صوت المؤذن يرفع الى السماء ابتهالات القلوب المكلومة، التي لم تياس بعد من الرجاء، الرانية الى جيل الوصال..

قد جئت بابك يا مجيبا من دعاكا
انت المعين، ومن لنا سواكا
اسمى وتسبقي اليك جوارحي
فالقلب يلقي الأمن دائما في لقاءكا
ربي، عدت الى رحابك تائباً
ربي، يا رحيماً في علاك..

وفيه جرت زفة المرابطين الصابرين، تجمع عدد منهم، تجار تحف عتيقة، وصور واطارات مفضضة، وطلبة يدرسون، وسكان أروقة، وتجار كتب قديمة، ومخطوطات نادرة، وصانعو عطور، وخبراء نبات، ومتخصصون في اصلاح الساعات الاثرية، ارتدوا أحسن ما لديهم، خرجوا الى بداية الطريق المؤدي عند نهايته الى الجبال التي تضم الخلاوي، أوغلوا حتى اختفت أضواء المدينة، تكاثرت النجوم، وبدا

تكافئهم الدنيا على ما بذلوه من مشاق، وجاءت موجات حر فتخفف الناس من ملابسهم، لكن البعض حذر من تقلبات الجو، قيلت عبارات ترحيب، وجل وداع، وتضافحت أيدي، ووقع ما لا يحصى من المعاصي والفسوق، وكثر التربص، ونسيت في الخضم أحزان، وتزايد الأغراب في الخطط، ولم ينتبه انسان الى ذلك، وتقبل البعض أنورا ظنوا يوما أن اقتناعهم بها مستحيل، وجرى ماء كثير، وجفت عيون... »

★ ★ ★

ضباب ممتد الى مركز الكون، صمتوا سبع دقائق، تقدم كبيرهم، رفع يده اليسرى الى فمه، اليمنى ظلت ممسكة بمقود الجواد الذي اسرجوه، وزينوه، ولم يمتطه أحد، زعق: بسم الله يا صاحب الزمان، بسم الله أخرج، وقع الفساد وكثر الظلم، وهذا أوان خروجك، أظهر ليفرق الله بك بين الحق والباطل، كرر ذلك سبع مرات، ثم انتظر سبع دقائق، أرفف السمع ثم صاح. يا نفس طيبي.. يا نفس أبشري.. غير بعيد كل ما هو آت، بعد اليوم غد، وبعد السبت أحد، استداروا، والفرس مسرج، ركابه خال، في انتظار الغائب، سيقودهم رافعا بيارقه، عندئذ يأمن الخلق، يسبح كل كائن حي بحمد الله وشكره، حتى الحيتان في أعماق البحر، وينطق الحجر، تحتي ظالم فاقتلوه..

وفيه تساءل الأستاذ عن آخر أخبار المعجم، قال العناني ان ما تم القبض عليه حتى الآن حوالي ألف، ولا زالت الحملة مستمرة. أما الزنازين فتضج من صراخهم لهول ما يلاقونه..

وتساءل الأستاذ عن أحوال المرابطين، قال العناني أنهم عادوا من طلعتهم أمس، كما سيعودون بعد ألف سنة، إدارة أمن الخطط لا توليهم اهتماماً.. تعرفهم جيداً..

وفيه تنهد خلق، وقاضت حشرات، ومات نفر قبل أن

الشارع الثاني، ويعرف بشارع الاجتماعات، وأوله أزقة متصلة..

.. يفضي العناني بما عنده لرونق: الجميدي يشرب الشاي يوميا بمقهى يتردد عليه العجم، التنوخي يختفي لمدة ساعتين يومي الاثنين والخميس، الخضر عامل الليونتيب أقرض زميله جاد خمسة جنيهات، تبدي رونق اهتماما، هل من عاداته إقراض أصحابه؟ يقول العناني انه يبدو شهيا، تسأل رونق، هل اصطحب الجميدي ابنته؟، يجيب العناني، انها لا تفارقه، يدعها بمفردها في الحديقة القريبة لكنه لا يغيب، تقول رونق.. وماذا بعد؟، يقول ان كاميليا السوفي جاءت اليوم ترتدي نجاكت شمواء، إنها تظهر فيه لأول مرة، قنديل وصلته دعوة لحضور حفل استقبال بسفارة ايطاليا، لكنه لن يذهب لأنه يعتبر كافة المسيحيين كفارا، الوتيدي لا يفارق المقهى، البلشي ارتدى حذاء جديدا، يقول العناني انه سيقدم تحقيقا مفصلا عن مجموعة العجم التي ضبطت أخيراً، ينصرف العناني، انه يقدم ثلاثة تقارير على امتداد اليوم، انه لا يخفي

إعجابه بروتنق، أدق التفاصيل لا تغيب عنها، تدري بدبيب
النمل في اندار، تمضي الى كل ركن، حتى المطبعة، تجيد
الإصغاء والصبر على الاستماع الى الآخرين، ولأن كثيرين في
حاجة الى من يصني اليهم باهتمام، مجرد الاصغاء فقط، فقد
قصدتها المحررون، والموظفون، وسححت للعمال بالجلوس اليها،
والنصفضة، ما لا يعلمه العناني، ماذا تفعل روتنق بكل ما
تسمعه؟ انها لا تصني فقط، ولكن تشارك محدثها بانفعالاتها،
ومع ذلك فان العناني لا يخشى إنساناً في الدار مثلاً يخشى
روتنق، ليس لأنها رفيقة الأستاذ، ومديرة أموره، لكن هناك
تعبير مفاجيء من القسوة يغطي ملامحها لللمحة خاطفة، العناني
يعرفه جيداً، انه التعبير الذي يتمدد على ملامح الجلادين
لحظات الشنق، أو عند الاندماج التام في التعذيب، ومع ذلك
تبدو أحياناً رقيقة، أنسانية، خجولة، انها تحيره وتخيفه
وتعجبه، يمضي الى الطبولي لتوقيع تصريح التصوير، سأل عن
امكانية اختصار الوقت، قال العناني ان الأمر ليس بيده،
طلب الطبولي الاقتصاد في عدد اللقطات لتوفير الأفلام
والخام. قال العناني انها مسؤولية المجرمي، أوشك على توقيع
التصريح لكنه عاد يتأمل، استغرق إمضاؤه حوالي دقيقة
ونصف، خطوط متشابكة، متداخلة، تتخللها أشكال
غامضة، انه التوقيع المعتمد لصرف أي ملزم من البنك.
وبشهادة الخبراء فان تزويره من المستحيلات..

مؤتمر يعلن القبض على مجموعة من العجم..

تحف بهجة العناني التي بدأت مع بلوغه خبر اعتقال
العجم، مع أن الخبر جاء بعد فترة عملة، لم يقبض خلالها على
بريء، ولم يخرب بيت انسان، ولم تحدث جريمة قتل، حتى
المشرحة لم تصلها جثث مجهولة، لم يشب حريق هائل، ولم تقع
فضيحة، عكس ذلك ما جرى، اذ تزايد الحديث عن
مشروعات جديدة في الخطط، وانشد المطربون مبشرين
بمستقبل أفضل، ونشرت أخبار عن ظهور أول طائرة من
مصانع الخطط، انه يصحب المجرمي أقدم مصوري الدار،
مصرح له بالعمل في دائرة أمن الخطط، طلب منه التقاط
صور مقربة للعجم، ومن زوايا مختلفة، صور ليست للنشر، من
يدري، ربما هرب أحدهم، ربما ساعدت أوضاع الوجه المختلفة
في إيجاد مدخل أفضل للتعذيب، في الطريق إليهم فكر
العناني، هل التقى بأحد منهم صدفة؟ اين يسكن كل منهم؟
هل انتزعوا من بين ذويهم؟ أم اعتقلوا أثناء مشيهم؟ سيحاول
ان يعرف عناوينهم، ليرى اللهفة والقلق في عيون الزوجات أو
الشقيقات أما قمة متعته فتلك التي تبدو في عيون
الامهات، سيزيف خطابات من العجم الى ذويهم، ويدعي انه
رسول خير جاء سرا، من يدري، ربما أسعده الحظ بتسببه في
خراب بيت أحدهم. عقد المؤتمر في مبنى عادي بزقاق متفرع

من الشارع، غير مسموح للصحفيين أو غيرهم بالذهاب الى
المبنى الرئيسي للإدارة المجهول موقعه، انها شقة عارية
الجدران تماما، تمتلك الادارة شقتا عديدة في أنحاء الخطط
تستخدم لاغراض مختلفة، الأرض هنا غير متساوية، البلاط
قديم، الجدران منتفخة بالرطوبة فوقها بقع حبر، وشخبطات،
الضوء صفراوي شأن الأماكن التي تحاصر فيها حركة الخلق،
وتطل اشواقهم الجائعة من العيون، وتتردد فيها أناتهم، يعرف
العناني ان الادارة تجري بعض عمليات التعذيب الدقيقة في
قلب المدن، في مباني ضخمة، ويخفي الصراخ بعزف
الموسيقى، دخل أحد الجنود وقام بتوزيع ورق أبيض أمام كل
محرر، قال أحد المندوبين مداعبا: هل توجد أجهزة تصوير
خفية؟ قال البيجرمي: خل كلامنا خفيفا عليهم، دخل ضابط
يرتدي ثيابا مدنية، جلد وجهه الحليق مشع بالكولونيا،
ليست المرة الأولى التي يرونها فيها، بعضهم حضر حفل زفافه،
وكافح لنشر صورته في باب المجتمع، قال انه يرجو عدم نشر
اسمه، وعدم تصويره، دخل خلفه رجلان وقفا صامتين، ايقن
العناني انها من ذوي المراكز الهامة في الادارة، وان الضابط
الذي يتحدث اليهم في كل مؤتمر يعمل على هامش الادارة،
وربما لا يعرف مقرها الرئيسي، بدأ الحديث، قال ان هذه
المجموعة أشد بأسا، وشرح الخطوات التي تمت لتعقبهم، وهنا

سأل العناني وهو يعرف الاجابة مسبقا، انه نفس السؤال الذي
يوجهه في كل مؤتمر: هل توفرت المعلومات لادارة أمن الخطط
عنهم أولا بأول؟ قال الضابط: إن هذا تحقق منذ اللحظة
الأولى، سأل مندوب الاداعة محاولا إيجاد توازن لصالحه بعد
استفسار العناني: وماذا عن التمويل؟ قال الضابط بسرعة:
من الخارج طبعا! ثم قال انهم سيصورون المضبوطات، أما
المعتقلين أنفسهم فستوزع عليهم صور التقطت بمعرفة الادارة،
سأل العناني: هل هناك أسلحة؟ وهنا أشار أحد الرجلين
الصامتين: لا داعي لهذا السؤال، ينظر العناني الى
المضبوطات، صندوق مليء بالكتب: الأسس التاريخية،
حضارة الخطط، الجريمة والعقاب، الزمن في العهد القديم،
غبر رقم ستة، بدأ توزيع الصور عليهم، بصق مندوب
الاداعة زاعقا: يا ملاعين، يا عملاء! أشار اليه أحد
الصامتين مهدئا، يعرف العناني أحدهم، استاذ الفلسفة بجامعة
الخطط الكبرى، قال البيجرمي: انه يتمنى لو ناقشهم، قال انه
عليم بمبادئ العجم، درسها ليتقي شرها، لكن لم يرد أحد
على البيجرمي، بعد انتهاء المؤتمر، تمنى العناني لو سمحوا له
بحضور عمليات التعذيب كما يحضر عمليات الاعدام، الموت لا
يستغرق إلا دقائق، لكن الاحتضار البطيء ممتع، يود رؤية
غريهم وما يتعرضون له من اذلال، كيف تفوته هذه العكة؟

عناوين

العجم في المصيدة

استاذ من العجم يسب الدين

سقوط شبكة جديدة من عتاة العجم، أفرادها يدلون
باعترافات مشيرة، أدلة تثبت اتصاها بمواصم أجنبية،
المضبوطات تضم وثائق هامة، وضع اليد على مخطط يستهدف
إثارة القلاقل في المخطط

صورة في الصفحة الأولى للدكتور فهمي استاذ الفلسفة.

تعليق: زعيم المجموعة .. حاول نشر الأفكار المستوردة من
خارج المخطط ..

صورة لأربعة شبان ..

تعليق: عجم .. ويرى الشرر في عيونهم ..

فائدة

أعلم ان أول من صاغ عبارة « الأفكار المستوردة »
هو الاستاذ نفسه، وعلى أثر ظهورها أبدت قيادات المخطط
ارتياحا، ورددوها كثيراً، وأثنى رؤساء تحرير الصحف
الأخرى عليه، وأكدوا صلاحيته وسهولة ترديده، واتصل
بعضهم مهنتا الاستاذ على حسن عبارته، ودقة اختياره ...

استاذ جعيدي .. لحظة من فضلك ..

ماذا يريد منه البلشي؟ يقف في المدخل كالشؤم، يمد اليه
مظروفا يحمل شعار الدار، دائرة زرقاء يتوسطها مصباح علاء
الدين، ولكن بدون شعله، بعد تجاوز المدخل، فوق السلم فتح
المظروف، لم يستطع صبراً ..

« برجاء مقابلة الاستاذ التنوخي نائب رئيس التحرير
للأهمية .. »

ماذا جرى؟ هل نم عليه أحد؟ هل وشى به انسان؟
تضطرب امعاؤه، انه لا يذكر الاستاذ علنا الا بالخير، يتعمد
الاشادة به أمام من ينقلون ويبلغون، يتلفت حوله، أخشى ما
يخشاه ان تلمحه كاميليا السويني، انه بحاجة الآن للحديث،
الوتيدي بجوار النافذة العريضة، ربما استشف شيئاً يخصه من
خلال الحوار معه، يصيح الوتيدي

أهلاً فارس الفرسان ..

يا رجل حرام عليك .. لا فارس ولا غيره ..

يلتفت الوتيدي فجأة الى الطريق .. لماذا سكوت فجأة؟
لماذا اولى بوجهه عنه، من المعروف ان كل انسان عليه رقيب
عنيده هنا ..

الجمعيدي، يقف المحررون والسعاة، ينبسط ظل غير مرئي في الأروقة وعند المنحنيات، تخفت الأصوات، كذلك ايقاع الخطى في الممرات، حتى القابع في أنأى الحجرات يشعر بوجوده الخفي، إنه هنا، يتنفس، يتصل، يدير الشؤون، الآن لا يشعر الجمعيدي بأية رغبة في الحديث إلى الوتيدي، لكن.. لماذا يطلبه التنوخي؟ هل وصله ما يقوله لابنته في البيت؟ تسأله ثريا عن شغله، فيقول ان التنوخي ضايقه، عندئذ ترفع يديها الصغيرتين، تدعو عليه، هل تحدثت ثريا أمام زميلاتها؟ هل تحدث صاحبه مفتش الصحة؟ تجاوزت الساعة التاسعة، يتجه إلى مكتب التنوخي.. يقول الساعي:

الاستاذ التنوخي مشغول.. لكن لحظة واحدة..

يعود ليقول أنه يطلب حضوره في العاشرة صباحاً.

لكنه طلبني؟

يوشك الساعي ان يصيح:

عنده شغل مع المدام كاميليا.. هل أدخل لاقاطعها مرة

ثانية؟

فائدة، حول الاجتماعات وأنواعها..

لافتة..

« جميع المحررين مدعوون للاجتماع بالاستاذ، التاسعة من

صباح الغد... »

اعلم ان ظهور مثل هذه اللافتة البيضاء الصغيرة يشير الانتباه، ماذا سيناقش؟ تبدأ التخمينات، تجري التأويلات، لكن لا يصل أحد إلى قرار القرار، ويحاول العمال وموظفو الإدارة استقصاء المعلومات من المحررين، من غير المسموح لهم حضور الاجتماعات، من النادر أن يتخلف أحد عن الحضور، حتى أولئك الذين لا يوقعون في دفاتر الحضور، ومعظمهم من كبار الكتاب الذين يرسلون المقالات من بيوتهم، يعد هذا أكبر الاجتماعات، يقتصر في معظم الأحوال على حديث الاستاذ الذي يحتلط فيه التاريخ بالحكاية بالرأي السياسي بالخبرة الصحفية بالنادرة الفكاهية. طوال حديثه لا تفارق وجهه ابتسامة، حار الكثيرون في تفسيرها، خصها التنوخي بالعديد من تقاريره إلى إدارة أمن الخطط، أكد أن ثمة معنى يختفي وراءها، يكثر الاستاذ من ذكر الأمثال الشعبية، يجيء كل قول في موضعه، لا يجيد أو يميل، أثناء حديثه يبدو وكأنه يخاطب كل انسان بشكل خاص مع انه يتحدث إلى الجميع، لنظراته زوايا عديدة، واتجاهات مختلفة، حتى ان شخصين مختلفين، أحدهما في الركن الأيمن، والثاني في الأيسر، يخيّل لكل منهما أن نظراته موجهة إليه بذاته، تتلون عيناه، وتتخذ زوايا عديدة، أحياناً تبدو شرسة، وقد تفيض رقة، لكن في جميع الأحوال

لا قبل لانتان بالقدرة على تحملها، أو مبادلة التحديق بتحديق، يروى عن الطنبولي أن الاستاذ سدّد البصر يوماً الى محرر لم يعمر طويلاً في الدار، كان شاباً خجولاً، بعد لحظات انتبه الى عيني الاستاذ، عندئذ لم يحتمل فبال على نفسه وسمع خرير البول فوق البلاط، للأستاذ نظرات لا يحتملها مخلوق، طلعت تبدو مهيبه في هذا الاجتماع، محيبة، كما انه يبدو كفاءة للإدارة، قادراً على التأثير، مشعاً، في هذا الاجتماع يمكن لأي محرر أن يراه، وأن يتحدث إليه مباشرة، يحاول البعض اختلاس ثواني أثناء خروجه للحديث اليه بقصد الإيجاء ان ثمة أموراً خاصة تربطهم بالاستاذ، لكن عند دخوله لا يمكن لأحد الحديث اليه، بجيئه داهم، بلا مقدمات، خطواته تضرب الأرض حتى ليبدو انشط من ابن العشرين، السجارة لا تفارق فمه، انه يدخن سجائر خاصة كتب عليها بحروف دقيقة «الأنباء»، تحتل السجارة الجانب الأيمن من فمه، وعلى الرغم من التعبير الساخر الدائم على وجهه الا أن بعضهم لمح عليه ظلال همّ، تعقد اجتماعات أخرى: يوميّ يبدأ في التاسعة صباحاً يضم محرري قسم الأخبار ويرأسه الديماطي، وآخر يتم في التاسعة والنصف لمحرري القسم الرياضي، الوتيدي يتبع هذا القسم، يضم مندوبين في كافة الأندية، والتجمعات الشبابية، وله مراسلون

هواة منتشرون في النوادي الإقليمية، والتجمعات النائية، يوافونه أول بأول بما يجري، من المعروف أن الاستاذ تربطه صلات وثيقة باليمينين على النشاط الرياضي في الدنيا، كما انه عضو اللجنة الدولية لتنظيم الألعاب الأولمبية، وإليه يرجع الفضل في انشاء النشاط الكشفى في الخطط، وهو صاحب فكرة التركيز على كرة القدم دعائياً، القسم الرياضي يتبع الاستاذ نفسه، تعقد إجتماعاته برئاسة التنوخي، واذا تغيّب يحل مكانه الطنبولي، وينتظر ذلك بلهفة لأنه يرغب من حين الى حين المشاركة في أعمال التحرير، الاجتماع الثالث يضم محرري الأقسام الفنية، ويحتص بالفنانين، والسينا، والمسرح، واذاعة الخطط، وتليفزيون الخطط، يرأسه الهلالي، وهو عضو في لجان عديدة، مثل لجنة اقرار السيناريوهات، ولجنة اختيار ما يعرض من أفلام للسوق، ويقول الجميدي عنه سرا انه لا يجيد كتابة اسمه، وانه لم يفتح في حياته كتاباً، وانه عمل مردداً في خلفية الاسطوانات المسجلة في الأربعينات، أي ان المطرب يغني، والفرقة تعزف، ويصيح هو من حين الى آخر: الله يا استاذ، يا سلام يا ست، وأثناء استماع الأستاذ لمطربي الخطط انتبه الى صوت المطيباتي، وابتسم، ثم بحث عنه، وألقه بالأنباء، هناك اجتماعات أخرى ضيقة، تحاط بسرية، مثل اجتماعات القسم الخارجي، وقسم الاستماع

المجهز بأحدث الأجهزة التي ترصد الاذاعات كافة،
والاشارات اللاسلكية، والموجات مبهوثة المصدر والمنبعثة من
أعماق الكون، ومنذ عامين سمح الاستاذ للعشري المحرر
العلمي بالتردد على القسم والاصغاء الى هذه الأجهزة، هناك
اجتماعات تتم عند وقوع حدث طارئ، واجتماعات الادارة،
والمطابع، والاعلانات، لكن يظل هذا الاجتماع الكبير أهم
حدث بالنسبة لسائر المحررين.

أول من توقف ليقراً اللافتة كان الوتيدي، وعلى مقربة
راح البلشي يرقب المحررين، والموظفين، وكل شخص توقف
ليقرأ اللافتة، إنه يصفي جيداً الى كل تعليق...

عطفة المشهلاتي

هنا كافة المصاييح مضاعة، الوتيدي يتابع وصول
المحررين، عندما لاحظ نقص المقاعد زعق مطالباً السعاة بمزيد
من الحركة، يلتفت من حين الى آخر ويأمر برنق بالكف،
زئير برنق يصل الى هنا، يتصل دقائق بدون سبب، الوتيدي
قادر على هت برنق، لا يصفي إلا إليه، ولو حاول انسان
آخر اسكاته ربما ناله أذى، الوتيدي يشرف على إعداد
الاجتماعات، ويمنع عمال البوفيه من التردد، ويتابع تغيير كوب
الماء الذي يوضع أمام الاستاذ، اذا نقص يبادر الى تكملته

فورا، المحررون يسمونه «المشهلاتي»، عند قيامهم برحلة
للترفيه ينظم ركوب المشتركين، يجلس بجوار السائق،
يتابع بعينه الجميع، ويسأل من وقت لآخر: هل يحتاج أحد
الى شيء ما؟ ينبه الى الأماكن الخطرة التي يجب ألا يرتادها
الأطفال، يرشد الأمهات الى أماكن صنادير المياه، الى موضع
قضاء الحاجة، اذا تزوج أحد العاملين يقوم بترتيب كل
شيء، يطبع بطاقات الدعوة، يحدد حجم الوجبات التي
ستقدم الى المدعوين، يعدل الاصناف في اطار الامكانيات
المتاحة، فيقترح الشاي بدلا من الكوكاكولا، أو اختصار عدد
قطع الجاتوه، والاكثر من الكفتة، بدلا من قطع اللحم لأن
الكفتة تغطي أكبر عدد من السندويشات، في المآثم يتجه الى
نفس متعهدي الفراشة، يتفق على عدد المقاعد واللمبات التي
ستضيء السرادق، كما انه يتولى التفاهم مع الحانوتية،
وحفاري القبور، ويتصدى لمحاولاتهم الحصول على أكبر قدر
من النقود مستغلين اضطراب أهل الميت وكرهم، وعادة يبدأ
المساومة قائلا: «من الأحسن أن نقطع العرق ونسيح دمه»
تضم مفكرته عناوين مقررئين، وراقصات، ومطربين،
وندابات، وعدد من الترزية، والنجارين، ومتاجر الزجاج،
وأعمال البياض، والنقش، وورش لاصلاح السيارات، وهو
الذي تعاقد مع أحد تجار الزهور لتوريد باقة يومية من أندر

الأنواع الى الاستاذ، وتتولى روتق تنسيقها، ويشنع الجمعيدي قائلاً، ان هذا ميراث النادي الذي تعود فيه خدمة الأعضاء، ويؤكد ان الوتيدي أعد كل شيء للآخرين ولنفسه، حتى الطريق الذي سيسلكه الى العالم الآخر، وانه كتب كل ما يجب اتباعه بعد وفاته كنوعية الكفن وعدد طبقاته، والمسجد الذي سيصلى على جثمانه فيه، واسم الحانوتي الذي سيتولى تجهيزه، ويبدو ان الطنبولي سمع بذلك، فاستدعى الوتيدي، وسأله عن الخطوات المتبعة لتوصيل الميت الى الرقدة الأخيرة وبعد أن أصغى طلب من الوتيدي أن يستقصي له عن تكاليف بناء مقبرة متوسطة، ثم استدعاه مرة ثانية وأكد رغبته، فقال الوتيدي انه يعرف مقاولاً تخصص في بناء المقابر وينتظر عودته من سفر..

ساحة صغيرة..

يزعق الوتيدي

«الاستاذ..»

تحتك أقدام بالأرض، ويسري خفيف، ثم ينزل صمت مع ظهوره، يميل كتفه الأيمن، يحمل مظروفاً وكراصة خضراء، عند جلوسه تظل قامته أطول من أي انسان في القاعة، يبتلع الجمعيدي لعابه، هل خضه الاستاذ بنظرة، تتنازعه الرهبة من

مواجهته، والتأثر لوجوده في مكان واحد مع كاميليا، أومات للتوخي عند دخولها، التوخي ابن فراش المدرسة، الذي جاء الى الدار حافي القدمين، لو علم انه حاول مغازلتها سينسخ مئات النسخ من عدد الأنباء الذي نشر فضيخته يوم ان زور الشهادة، التوخي الحقير، السافل، الجاهل، الكلب، يحرص الجمعيدي الا تتغير ملامحه أثناء ترديده السبب، ان كاميليا تعترف بينها وبين نفسها ان اثيل أجمل المحررات قواماً، ترى هل خلت الى الاستاذ؟ روتق تدخل اليه البنات بنفسها، وتختارهن له، لم يتصل بها الأستاذ حتى الآن، يحرص التوخي ان يبدو عالماً بما سيقوله الأستاذ، يشب البعض على اطراف أصابعهم حرصاً على مجال رؤية أفضل، يعقد الاستاذ يديه أمام صدره.

«هدى الحلاوي اختفت..»

غير المهلاي وقفته متخذاً وضع من يعلم بمدى ما سيلقى عليه من أعباء، العناني يدون الاسم، يهز البيجرمي رأسه، تسيطر على التوخي حالة تأثر بعد سماعه اختفاء هدى، تمصص كاميليا شفيتها لتلفت نظر الاستاذ:

«قد يبدو هذا خبراً عادياً بالنسبة للمصحف الأخرى، لكن عندنا يختلف الأمر، تلك قاعدة اتبعوها من بعدي، ما يراه الآخرون تافهاً، نراه نحن مهماً، ما يسخر منه الكل:

نأخذه بجدية، وما يروونه الصحيح، نعتبره نحن عين الخطأ..
اختفاء هدى سيصبح حديث الخطط كلها، سننطلق بحثاً
عنها، الخطة سيرسمها التنوخي، اطيعوه فمن أطاعه
أطاعني.. ومن تبعه تبعني...

ردد الجعيدي بيده وبين نفسه «ستخرب الخطط باذن
الله»، أضفى جدية على وجهه..

«القاري» مقلد علينا، يجب ألا ندبر عنه، وعندنا
أيضاً ما يمكن أن تباهاوا به غيركم، تعرفون انه لم يقبض على
أعجمي واحد من الدار، كافة الصحف الأخرى قدمت
سجناء.. «يرتفع صوت العناني..

«العجم يأكلون. ضرباً مبرحاً في المعتقل المركزي
للخطط...»

ينظر اليه الأستاذ بقسوة..

«من أين لك الخبر؟»

يشمت الجعيدي، يدهش الوتيدي، يسخر التنوخي، يجيل
الأستاذ البصر..

«هنا يجب ان تنظروا الى الأمور كما نراها، وليس كما
يراهنا غيرنا، وليس كما تبدو عليه في الواقع، صونوا ألسنتكم
من زلة كهذه، لن نردد ما يشاع عن تعذيب العجم، انما سنقدم

الدليل على حسن معاملتهم، سيقول العالم كله انهم معتقلون،
سنؤكد انهم مساجين، انهم مساجين، حتى يصدقنا أهالي
الخطط، وحتى يصدقنا العالم، يقول المثل «الون على الودان
يفلق الحجر»، وأقول انه ما من شيء يبدو كما هو في هذه
الدنيا، وعلينا أن نخرجه الى الوجود كما يبدو لنا، أبعد
الأمور عن العقل يمكن بالجهد ان يصدقها أعقل العقلاء،
كرروا العبارات المختصرة، المركزة، سيجيء وقت يردد فيه
خصومكم ما صغتموه انتم. انتبهوا الى قيمة أدواتنا، الكلمة،
يعرف العناني، ان إدارة أمن الخطط تشترط اصدار
تصريحات خاصة في مجالين فقط، السلاح الناري، والمطبعة،
رجال الأمن ادركوا ذلك منذ زمن، الكلمة تساوي الطلقة،
وانتم أجدر باستيعاب ذلك، المهم أن نعي ذواتنا، فلنا نظرتنا
الخاصة وأسلوبنا الخاص، لو استيقظتم غدا ووجدتم الخطط
يسودها العجم، أقول: كونوا أعاجم، بالظاهر، وليس
بالباطن، باللسان وليس بالقلب، اذ ساد جانب مقابل،
امضوا معه، المهم ان نظل نحن، انني أدخركم لأمر كبير،
كونوا أكفاء لها، حتى وإن لم تطلعوا عليها الآن.

تبدو ابتسامة على وجه العناني، يعرف ردود أفعال بعض
من في القاعة تجاهه عندما كثر الأستاذ في وجهه، لكنهم
أغبياء، بمن فيهم التنوخي، لن يعرفوا أبداً انه حوار متفق

عليه، انه واحد من صفوة تدرك ما يريدہ الاستاذ، يقف
الوتيدي وراء الاستاذ، انه أضخم الحاضرين، يفرد صدره،
تفوق قوته كل تصور، حتى الآن لم يقع حادث يستلزم
اظهارها، لم تهاجم الأنباء بمتظاهرين، ولم تحتج مجموعة من
العمال، ولم يوجهه الاستاذ ضد شخص معين، ان الوتيدي
يخلق بعينه فوق الجميع، من السهل عليه الآن اكساب وجهه
تعبيراً لا يتفق مع حقيقة ما يفكر فيه، يعرف ان كل انسان
هنا يرصد رفة رمش الآخر، الاستاذ ينظر الى كل الحاضرين
ما عداه، انه يقف خلفه، يجيء الى هذه الاجتماعات هادئ
البال، لا يقلقه ما سيقال، ما يعنيه ألا تصدر قرارات بفصل
بعض العاملين، يكره ان يضار انسان في أكل عيشه، لم يحدث
منذ التحاقه بالأنباء ان وجهه اليه سؤال أو حاول أحدهم
استطلاع رأيه، انه مطمئن الى عدم توبيخه بسبب نقص
انتاجه، هو أكثر العاملين تواجداً في الدار، الدمياطي يشعل
سيجاراً، لم يدفع ملياً من ثمنه، أحضرته له نجلاء، أبوها مدير
مصنع من المصانع الجديدة، يسافر الى الخارج، ربطة عنقه
هدية من أثيل، ماذا يقول الاستاذ؟؟

«نعم، ستبنى المشروعات الجديدة، والخزان الكبير،
لكن لا تنسوا ان ما نقيم له الصرح اليوم ربما تحسنا به الأرض
غداً...»

يردد التنوخي: «قل رأيك الحقيقي، ترى ماذا تبطن يا
استاذ، في كلامك رائحة ضد انجازات العهد الجمهوري...»

يقول الاستاذ:
«كل شيء يتبدل، دوام الحال من الحال...»
انه يقف فجأة، يعلو صوت البيجرمي:
«عندي ملاحظة...»
يقول العناني مداعباً:
«سيتول رأيه في احوال...»

ان مرحاً خفياً يسود، ثمة احساس بدنو الاجتماع من
نهايته، يسأل الاستاذ..

«هل صحيح انك اصلحت القطار الذي سافرت فيه الى
أسوان؟؟»

«فعلاً.. أنا خدمت زمناً في القطارات...»
تضح القاعة بالضحك، ما من مهنة الا ويتقنها البيجرمي،
تلتقي عينا الاستاذ بعيني الجعيدي:
«اسمع.. مر على مكتي.. لكن ليس الآن...»

لافتات معلقة في الشارع

اختفاء هدى الحلاوي. قصة هدى الحلاوي. ولدت
باحدى الحوارى القديمة كانت أمها تباع الجاز، في الثالثة عشر

فارت انوثتها، تقدم كثيرون للزواج منها، لم يدفعها الفقر الى الاستسلام. أصرت على صعود السفح. وعت ان الفقير يمكن أن يصير غنياً. والمجهول باستطاعته أن يصير مشهوراً.. بدأت مع احدى العوالم، لمعت في الأفراح. عرفت طريقها الى الاذاعة، الى السينما، انه الحظ، انها الصدفة. آخر زيجاتها من الدكتور القاوونجي. هل كانت تعاني في صمت برغم صورها الضاحكة؟ المصورون يشيدون بزوايا وجهها. المنتجون يقولون انها لم تهتم يوماً بالمال. كانت حريصة على مواعيد البروفات. كانت محسنة. تقدم المساعدات خفية الى الاسر الفقيرة. ضباط أمن الخطط يؤكدون اهتمامهم، هل سافرت؟ الجوازات تقول لا. حيوا بقطرة رجال الجوازات هل وقع لها حادث؟ المستشفيات تقول لا. كلبها بدأ يفسر، هل يموت الكلب اذا مات صاحبه بعيداً عنه؟ ما رأي العلم؟، أول انتحار بسبب هدى. طالب بجامعة الخطط يلقي بنفسه من الطابق العاشر. جائزة مالية ضخمة الى كل من يعثر على هدى المحلاوي.

متسع عند نهاية الشارع

هنا يتسع شارع الاجتماعات اتساعاً طفيفاً، قرب نهايته تقع نقطة تفتيش شخصيات الخطط، ان شكوكاً عديدة تساور

رجال الادارة حول بعض الشخصيات المتواجدة، تفكر ادارة أمن الخطط في إقصائها حتى ولو أدى ذلك الى زلزلة الأحداث الرئيسية بالخطط، المهم الا يترك أعجمي واحد طليقاً، لقد وصل اليهم خطاب من مجهول يشير الى الوتيدي ويصفه بأنه يحوي بذوراً أعجمية، فجهامته تخفي رقة، وقوته المائلة تخفي قلباً ضعيفاً غير جسور على المكاره، وبعد جهود في التقصي والبحث، أثبتت التقارير ان الوتيدي أبعد شخصيات الخطط عن العجم، وانه يقع تحت سيطرة الاستاذ التامة، والاستاذ معروف بعذائه التاريخي للعجم، ان الريب تحيط بالجمعيدي، وذلك لشدة حركته، وكثرة تنقله بين انحاء الخطط، وقدرته الساخرة التي لا مثيل لها، والأخطر من ذلك كثرة اطلاعه ومعرفته العميقة بالأدب القديم، وقد نقلت هذه الريب الى الأستاذ ولم يعلق، ثمه صلات قوية تربطه بادارة أمن الخطط، انه عدو للعجم، وهم الجهاز الأمني المسئول عن تطهير الخطط، ان العجم يمكن أن يشكلوا عتبة خطيرة بالنسبة لما يضره. ويبطنه، من هنا فان الادارة تخدم نواياه بدون أن يدري انسان فيها، عند نهاية الشارع استعد ضابطان لإلقاء بعض الأسئلة على عدد من شخصيات الخطط، لكن حدثاً مفاجئاً وقع شغلهم وأثار دهشتهم، كان محوره ونق، ونظروا للمكانة التي تحتلها بالنسبة للشخصيات الهامة

والرئيسية في الخطط، فقد تقرر اجراء تحريات عاجلة، ولم يكن هناك بد من استجواب الشخصيات عند نقطة التفتيش، أوقف الضابط المسئول، الامباري، بدأ وجهه مثقلاً بالصمت.

«ماذا تعرف عن رونق؟»

«وما لي أنا وما لرونق، أنا عامل تليفونات لا حول له ولا قوة، اسألوا البلشي انه يرى الداخل والخارج...»

استدعي البلشي، ظن ان ثمة فرصة ستلوح، انه يقلد أصوات أشهر المطربين في الخطط، يردد الاغنيات في بيته، سجل تصفيقا متواصلاً من حفلة ساهرة، ثم بدأ الغناء بصوته أثر التصفيق، لم يبح بسرّه إلا للهلالي، ربما ساعده في الوسط الفني... باغته الضابط...

«ماذا تعرف عن رونق؟»

قال بهدوء، وأدب، وانحناء..

«ما لي أنا وما لرونق؟ أنا أشبه بواب عمارة، مكاني في الطريق، اسألوا التنوخي، فهو صاحب الدالة الكبرى على الاستاذ...»

أحسن التنوخي ان ثمة شيئاً جرى، ان سؤال الضابط ليس مقصوداً به الاختبار التقليدي الذي يجري للكشف عن الشخصيات التي تأثرت بالعجم، مط شفتيه بدون اهتمام.

«ما لي أنا وما لرونق؟ انها من أهالي الطابق السابع، لا تخالط المحررين، اسألوا الطنبولي فهو صاحب الملفات...»

وجف قلب الطنبولي، ظن ان ثمة خطأ، او شاية خبيثة، أو نية لاقيصائه عن الخطط، هل يبعد قبل أن يلحق الضرر بعدد كافٍ من الناس.

«ماذا تعرف عن رونق؟»

«ما لي أنا وما لرونق، ان مرتبها تقبضه من الاستاذ، لا أوراق لها عندي، وتنافسني في الصرف من خزانة لا علاقة لها بحسابات الدار، اسألوا الاستاذ نفسه فهو صاحب الكلمة الكبرى، وهو الذي أسلم لرونق زمام ما لا يجب ان يسلم اذا كنتم لا تعلمون...»

ارتبك الضابط، ان التعليقات الخاصة تقضي بعدم استجواب الاستاذ، او التعرض له عند نهايات الشوارع، في مثل هذه الأحوال عليه الرجوع هاتقياً الى المقر المركزي، طلب منه أن ينفذ يديه، وان يعتبر ان مهمته قد انتهت، اتصل أحدهم بالاستاذ، وأفضى اليه بما جرى، لقد ضبطت رونق في منزل يدار للدعارة، وافرج عنها لصلتها به، الموضوع انتهى بالنسبة لها، ولكنهم يخبرونه فقط، انهي الاستاذ المكالة، وداخله فرح عظيم، لكن شغله أمر..

فائدة، فيها ما تيسر عن حكاية رونتق..

أعلم انه لم يتح بعد معرفة كل شيء عن رونتق، وإذا لاح لاحدى شخصيات الخطط ثانوية أو رئيسية أنها تعرفها معرفة الكل أو الجزء، ثق ان ذلك وهم، حتى الاستاذ، أدرك بعد علمه بالواقعة انه ما من انسان يمكن ان يحيط علما بانسان آخر، وبين أقرب الناس تظنل مناطق مجهولة، مستعصية على الاستكشاف، أعلم انه ضاق بقدر ما فرح، ضاق لأن ثمة بديهيات تروح منه، وفرح لأنه لم يتصورها أبدا على هذا القدر من الصلاحية لما أضمره، ولما يقوم به أما ما شغله فهو خوفه من انتقال مرض منها، خاصة وانها الوحيدة التي يأتيها بانتظام، أعلم ان رونتق لم يهدأ حالها، ما لم يتضح حتى الآن، ان من خصائصها الغريبة، وأمورها العجيبة، انه ما من شيء يطق في دماغها، الا وتقدم على تنفيذه فورا، وظهورها في الخطط ما هو الا نتيجة لنزوة، ما طرأ لها وما حققته يطول شرحه، من ذلك ما تراءى لها في لحظة خاصة انها ترغب في ان تصير بغيرها، ان تمارس ذلك سرا، وأن تتعامل مع من يرهبونها، ومن يرغبونها، ومن لا يجراؤن على التصريح، عرفت طريقها الى امرأة عجوز جاءت الى الخطط في زمن قديم. من احدى دول أمريكا الجنوبية، اتقنت اللغة، ويبدو

انها عاشت حياة طويلة، مستقرة، عائلية، فيها زيارات، واحتفالات باعياد الميلاد، والزواج، والانجاب هذا ما تنسب به صالة بيتها المزدهجة بصور لرجال وشبان وفتيات، أحدهم تتكرر صورته مرات، غزير الشعر، ويرتدي زيا عسكريا أجنبيا، ويضع عدة أوسمة ونياشين أثار وجهه إيتباه رونتق، وايقنت انه الجنرال الذي تتحدث عنه العجوز، والذي أحبها عندما كان برتبة ملازم، لكنها رفضته، ثم صار بطلا هناك، يدرس تاريخه في المدارس، فوق الجدار أيضا اعلام لدول عديدة، تقول العجوز انها زارتها، ولوحات مستوحاة من مصارعة الثيران، تجلس المرأة فوق مقعد عريض يمت الى طراز العصر الوسيط من الخطط، تنام أيضا فوقه، وتأكل فوق منضدة صغيرة ذات عجلات تدفعها خادمة صغيرة بكاء، قدمت رونتق نفسها على انها زوجة لرجل على جانب كبير من الثراء، الا يبدو ذلك عليها؟ لكنه حرم من أعز ما يملكه رجل، ماذا تفعل؟ انها تريد ان تهديء حالها في السر، ثم.. ثم انها تبحث عن يناسبها وهذا لم تجده حتى الآن، فرحت العجوز بها فرحا عظيما، وطلبت منها أن تناديها.. ماما، وان تخاطبها.. يا ابنتي، عظم فرحها بعد أن قالت رونتق انها لا تطمع في أي مبلغ مما سيدفع من أجلها، خصصت لها العجوز غرفة نومها التي لم تدخلها منذ أن قتل الربان زوجها، تدخل

رونق ثم تنتظر، تتطلع الى السرير الخشي الضخم ذو القوائم المرتفعة، كل منها تنتهي برأس أشد خشية اتقن صنعها، كان يحلو لها تأمل الانطباع الأول على وجوه الزبائن الذين عملت المعجوز على اختيارهم، جمالها وعطرها وهدوءها مفاجيء، اصغت الى عبارات اعجاب، وحب، ونهفات، وعرض عليها الزواج مرات، وبدت لكل منهم في صورة مختلفة، مرة على انها أحبت ابن عمها، ثم ضحك عليها وفارقها بعد أن حملت منه، وخافت أهلها، ومرة على أنها زوجة تاجر كبير يسافر كثيراً، ومرة على أنها زوجة عربي ثري له أحفاد، رأت ما لم تره داخل الحجرة القديمة، وبين عبق الأثاث القديم، رياضي يحلو له التجرد من ثيابه كاملة، ثم الوقوف أمامها، وثني ذراعه لابرأز عضلاته، واستعراض صدره، وخصره، رجل طلب منها أن تمنى أي شيء لأنها رقيقة، وحلوة، ومكنته من وضع لا توافق عليه امرأته، شاب يقبل يدها، وعجوز لا يفعل شيئاً الا الجلوس بملابسه الكاملة ومس وجنتها بين الحين والآخر، يختلفون في البداية، لكنهم يتشابهون جميعاً عند النهاية، الهمود، والسكون لفترة قد تقصر أو تطول، بعد ستة شهور من التردد على المعجوز اعتقدت انها أكثر نساء الخطط مضاجعة للرجال، غير ان ذلك لم يستمر، اذ هوجم البيت، وضبطت عارضة مع شاب لا يتجاوز العشرين كان

جوها أن تقعه فوق ركبتيها وتهذهه، وعندما طلب منها لضابط ابراز بطاقتها كانت مسرورة لأنها خدعت عدداً كبيراً من شخصيات الخطط، ولم تفكر في العواقب... أعلم ان هذا ما أمكن جمعه من حكاية رونق، وهنا ينتهي شارع الاجتماعات، ليبدأ ما يليه..

النور الثالث

.. في أوله استيقظت امرأة بدية، زوجها، عسكري،
بدت مرجوفة، مفزوعة.. تلفت حولها قالت، اللهم اجعله
خييرا..

واشتد الحر في غير أوانه..

وقدم التنوخي الى الادارة تقريراً يؤكد فيه تعمد الاستاذ
اشغال الأهالي عن المشروعات الجديدة للعهد الجمهوري، وما
أثير حول اختفاء هدى المحلاوي ليس الا بداية..

وكتب قنديل الأزهر مقالا حول رأي الفنانة المختفية في
العجم، وكرايتها لمختلف فرقهم، ولأفلامهم، وقصص كتابهم،
لكن الاستاذ رفض نشره، وطلب الجدية في التصدي للعجم،
الخصم وعمر، ولم يمانع في نشر المقال بأية مجلة فنية أخرى..

وعلق الدخان بأماكن متفرقة من السماء..

واستمر الحال على ما هو عليه بخصوص الهجوم الذي تشنه
الأنباء على العجم، ذكرت هروب ثيئة ألف انسان من الجبال

تحت ضغط المعجم، أما قاضي مدينة رانجون فأصدر قراراً
بطرده ثلاثة صحفيين، وفي الكويت سجن أربعة لمجرد الشبهة،
وفي جنوب أفريقيا طلبت امرأة الطلاق لأن زوجها يعتنق
أفكارهم، نشرت مقالات توضح للقراء الطيبين أساليب
المعجم، وادعاءاتهم، أنهم يريدون سيادة القيم الجميلة، وخلق
عالم جديد، وانصاف الفقير من الغني، وكيف أن مبادئهم
غريبة عن التربة الطيبة للخطط، والحصال الحميدة للناس
فيها..

وأعلن عن استيراد عشرة آلاف خروف من اليونان،
وسقطت أمطار غزيرة في تركيا، وعرض فيلم المليونير،
وحدثت أعجوبة إذ ولد كتكوت بأربعة أرجل فتشاءم بعض
الناس، ونزل رجل من تاكسي، التقط أنفاسه، تطلع الى
أرجاء السور الثالث، قال.. أيام زمان أحسن!!

وقرأ العناني صفحة الوفيات، خط دوائر بقلمه الأحمر،
نقل عناوين الغزاء، كتب صيغة برقية لإرسالها إلى ثلاث
عائلات، «نهنكم بوفاة المرحوم».. ضحك، ضحك، تخيل
ردود أفعال أسر المتوفين، انتشى، لو نما ذلك الى الأستاذ
لكافأه..

وفوجيء الأستاذ بمخاضة غريبة في الكولي رئيس قسم
إعادة الصياغة، انه يهوى تكبد المشاق في سبيل أشياء مبسورة

تماماً، تحت بيته يقال كبير لكنه يقود سيارته ليشتري الجبن
الأبيض من يقال صغير في منطقة نائية، بالقرب منه خضري
يبد المنطقة كلها، لكنه يذهب الى خضري يبعد عنه حوالي
عشرين كيلو متراً، لا يتعامل مع تجار بعينهم، بل يختار
الأبعد، حار الأستاذ، هل تحفي الخاصة أمراً غامضاً، بعد
زمن تبين ان الكولي من المخلصين المتمكنين، يمكنه صياغة
أي خبر بالشكل المرغوب، أو قلبه، أو تعديله، الى جانب
قدرته على تأليف الأخبار ونسبتها الى مصادر تبدو كأنها
حقيقة، انه من أشد اعداء المعجم، يعاديه لأن رزقه مرتبط
بالأستاذ، والأنباء، ضحك عندما تذكر الحاج الكولي للسفر
الى اليونان.. ربما يشتري زيتوناً أسود..

وفيه قام رجل يرتدي حذاء بيا، ترك فوق المنضدة
كوباً به بقايا براندي، وطبق به قطعة جبن رومي صغيرة،
وثلاث ورقات صغيرة، مكورة، متجمدة..
وقبل طفل صغير ضريح ولي..

واستيقظ الهلالي، أدار مؤشر الراديو، انتفض مفزوعاً،
علا صوت المذيع يقرأ تعليق الاذاعة البريطانية، انه حريص
على عدم سماع اي اذاعة أجنبية، لا يقرأ في الصفحة الأولى
الا افتتاحية الأستاذ، ليهتدي بها، ويردد معانيه، لا تعنيه
الا أخبار الفنانين، واذا سمع عن اعتقال شخص، أو غضب

الاستاذ على شخص مخالف في الرأي، يقول لنفسه.. أحده..
من ينبش رأسي لن يجد أي شيء...

وفيه اقترب أبو سنة الساعي الخاص لمدير الأوبرا من
المدخل، عندما لمح مرزوق البلشي تشاءم من طلعه، انه
قصير القامة، مستطيل الرأس، لا ينقطع الإفراز من عينيه،
قال البلشي بجفاء.. ماذا تريد؟ قال زكريا في صوت سريع
يأكل مخارج الألفاظ، هذه رسالة للأستاذ الهلالي.. قال
البلشي.. هاتها..

وفيه توقف نحيل طويل، يرتدي طربوشا، يمسك عصا
قصيرة، حلق في أرض خلاء، فوق جانب منها أعمدة خشبية
وإطارات نوافذ قديمة ومقابض أبواب وألواح رخام، فوق
جانب آخر درجات سلم منتزعة، لم يتبق شيء، دمت
عيناه، لم يبك عيشاً ولّى، أو نوافذ أطل منها يوماً، أو
درجات حبا فوقها، إنما بكى زمنا لن يعود..

وصفر قطار الضواحي، فعمك الأسى امرأة لم يطرق النوم
جفونها بعد، وتذكرت الغائب، الثاني...

وتعاهدت في وفاة على الوفاء في حقيقة عامة..

وتزايد دخول رجال لهم ملامح الأعداء الى الخطط، ولم
يلحظ ذلك انسان..

وأعلن ان الدرس الأول في المدارس الابتدائية سينتقل
عن الأراضي الشمالية المفتصة، وأن الأطفال سيرددون قسما
مضمونه انهم سيحررونها يوما من الأعداء..

وتذكرت بجيئة أم خالد واسماعيل قريتها في جنوب
الخطط أثناء غسيلها الثياب، في جلستها وحيدة أمام الطشت،
وبجوارها موقد الغاز فوقه صفيحة المياه المغلي وصابون الغسيل
تغمض عينها، تتذكر الطرق المؤدية الى البيت، والجسر،
ورائحة شجر التين، وسريان السحالي، وحديث النساء
الليلي، ورائحة جلود القرب فوق ظهور السقائين، وقواديس
الساقية، وكثافة الذرة، وماكينه الطحين، وغربت يدي
الناس بثمار الدوم، وأما التي سعت بين الأسواق تباع الفلال،
وجلسها خلف الباب لتسند في ليلة اشتدت فيها الرياح،
يترقق أسى في عينها على ثروة الصبا المبددة.

.. وفيه طوى خالد الكتاب المدرسي، بداخله رواية اللغز
الغامض، بطلها لوبين، لن يضايقه والده الا اذا لمح الغلاف
الملون، خالد يفكر في والده، لو عنده القدرة ليأتي اليه بنقود
تدفع عنه التعب والتعب النظرة عندما يطلع النهار وجيبه
خاو، أثناء مشيه ينظر الى الأرض، من يدري، ربما عثر
فجأة على مائة جنيه، مائة جنيه ملفوفة، مضمومة، مصانة،
سيضعها في جيبه، لن يصرف منها مليا، سيضعها أمام والده،

ثم ينصرف صامتا، يفك أبوه ديونته، يعود بالخضار واللحم،
وتغلو في البيت طششة الثقيلة، يضحك، تضحك أمه،
تتكرر هذه الأوقات الشحيحة، عندما يسهر أبوه الى أمه،
يتحدثان، وينزل على البيت أمان، فتقود الغد مضمونة،
يفكر خالد في عجوز ضريبة تباع البسكويت والنبق أمام
المدرسة، يفكر في وجوه غير من ملاحظها العوز، وخطوات
مرتبكة لأن الرزق ضنين، وحيرة امرأة تنظر الى الطماطم
والكوسى ثم تحصى ما في منديلها من قروش، وتجري المقارنة،
بعد سنوات سيرضي الفقراء، سيبدأ بالغلابة في الحارة،
سيسرق من كل الأغنياء، يهب كل ما يحصل عليه للمعوزين،
قد يجرح يوما أثناء مطاردة، لن يندم في لحظاته الأخيرة،
سيدكره كثيرون، يقولون انه جاءنا باللحمة و«الخدمة»
وأدخل الأولاد المدارس، يتوقف خالد، انه يبكي حزنا على
نفسه، لأنه سيموت جريحا، ولا أحد بجواره، سيخاف رجال
الأمن الاقتراب منه مع أن الروح فارقت جسده، أما سعاد
فستقرأ خبر مصرعه، ستشمئز في البداية، لكنها عندما تعرف
ما قام به من أجل الآخرين ستندم، ستسأل كيف ضيعته، لن
تذكر انها أينعت في قلبه يوما، وعندما كان يراها تأخذه
السعادة حتى ليرحل قلبه الى أعماق الكون، ويملؤه حماس
لأمور مجهولة عليه انجازها، وبهجة غامضة، ويلوح طريق لا
آخر له..

.. وفيه مضى والد خالد الى ولي صالح، طلب منه أن يعد
لابنه الأكبر حجابا يقيه الشرور والغواية، لقد رأى معه كتابا
ملون الغلاف، رواية تعلم الاجرام والفساد، ما يتمناه أن يتم
الولد تعليمه حتى يلتحق بوظيفة يساعد نفسه بها، حتى لا يرى
المر والهوان، الذي رآه هو في حياته، ان اسماعيل الصغير لا
يرفع عينيه عن كتب المدرسة، لكن غرام ابنه بالروايات
يقلقه.

وفيه توقفت عربة المدرسة، نزلت ايثار في هدوء،
رزينة، مقتصدة الحركات، لا تثب كبقية التلميذات، يحلو
للسائق متابعتها في المراة العاكسة، يتمنى أن يرزق بابنة
تشبهها، انها تفكر في مجدي، لا يبادلها الحديث الا نادرا انه
أذكى الطلبة، المدرسون يؤثرونه على غيره، يترفع عن
الفتيات، يتشاغل بقراءاته، يرقبهن من وراء نظارته ذات
الاطار المعدني، عندما تصفي الى حديث عنه، ترداد صمتا،
والده صديق والدها، وفي الكنيسة يتقابلان فيتصافحان
بحمارة، انها ترى مجدي مشهورا، يقف وسط أضواء باهرة،
انها تقف الى جانبه، وثمة مذيع يقول.. هذه هي المرأة التي
شاركت العالم العبقرى حياته..

.. وفيه صاح مكبر صوت معلنا أن الحاج القماش يجي أهالي
الخطط الكرام، ويزف إليهم البشرى..

.. وتطلع رجل يرتدي جلباباً الى مطعم، انه في حاجة الى
ثلاثة قروش ليدخل، ثم يجلس الى منضدة، ويمدل من وضع
الملاحه، ويطلب..

ورسا مركب يحمل بقل، قفز رحاب الى البر، البيوت
عالية، والكوبري ضخمة، والنساء حاسرات، عابرات، شهر
قضاء مبحراً منذ أن أقلع من جنوب الخطط لن يتوغل الى
الشوارع، سيرقب أطراف الضجيج، وفي الليل ينام في القاع،
حتى تنقضي الأيام، وتستدير المقدمة وتنتفخ القلوع..

وأطلقت أعيرة نارية في السماء، قال بعضهم انها فرق
مطاردة الكلاب الضالة في الخطط، وقال آخرون انه ابتهاج
بعرض، وحنن بعضهم، ربما أصيب انسان..

وعلا صراخ في الليل، ثم انقطع، فكأنه لم يكن..

وفيه أخفت أم خيريه تفتق جرح كاو في نفسها، وأظهرت
السرور، سيصبح مكان ابنتها خاويًا، سيختفي صوتها من
البيت وتروح رائحتها، عندما طلبها التركي الأزهرى الذي
جاءت به منيرة الخاطبة كتمت ضيقا ولكنها لم تقنع، الجدة
من رجال الدين، سيأخذها بما عليها من ثياب فقط، لن يكلفها
مليا، أخيرا ستطمئن على ابنتها التي تجاوزت الرابعة
والعشرين ولم تتزوج مع انها أفضل من مثيلاتها اللواتي تزوجن

وأنجبين، لكن الدنيا حظوظ، والانسان لا يأخذ أكثر من
نصيبه، ونصيب خيرية ان تعيش في تركيا، بلاد بعيدة، لسان
أهلها غريب، وخيرية ستكون غريبة، والغريب أعمى لو كان
بصيراً، الغريب لا بد أن يكون أديبا، يلاغي هذا وينجو من
ذاك، ستلد بعيدا عنها، ولن تقف الى جوارها ساعة الخاض،
يجيء أحفادها غرباء، الوجع مر، لكن العريس لقطعة،
البت تكبر والحظ يفوتها يوما بعد يوم، استريا سائر،
تترضت من فلانة وعلانة، اشترت قمصانا داخلية وروباً
بيت وحذائين، لا بد أن تبدو مستورة في عيني أهله، لم
نبق الا يومين وترحل خيرية. يومان، ما أكثر الأحزان
بها، ما أثقلها، لكنها لن تبدي دمة، هل من المعقول ان
مذكر أمها دامة.. يا عالم، متى يلتقي الحبي بالحبي؟

وفيه مرت عطيات الممرضة أمام المقهى، انها مرتوية،
انة، وقرر محمد أفندي الموظف بشركة الدخان حسم
أمور، وأن يمضي الليلة الى أمها، البنت عينها منه..

وفيه قام المعلم الياس من المقهى مصحوباً بالمعلم كرشو،
هدي أفندي، لن يتأخروا كثيراً عن المهندس الملاوي،
تترى المعلم الياس فخذ ضأن اشترى كرشو صينية حلويات،
شترى زهدي عشر علب معسل ماركة المدفع، استقبلهم
للاوي، انه جلد على عظم، يرتدي روباً قديماً تحته قميص

وينطلقون، بيته فسيح، من بيوت الخطط القديمة التي لم يشيد
متلها منذ قرن، بلاط ملون، منقوش وسقف مزخرف بالخشب
المشغول، وسط الصالة فسقية رخام، كل خميس تقام السهرة،
انه يحب الصحبة حتى وان لم يعرف أفرادها، أحيانا يجيء
غرباء لكنه لا يسأل، ما يبعث الحيوية في عينيه، وينتزع من
خوله، أي حديث عن الدخان، يتابع أخبار التباك
 وأنواعه، يعد خلطة في البيت، تركيبتها مشهورة، مبهولة
 السر، عطرة الرائحة، معروفة بتعميرة الملاوي، يوصي
 المسافرين الى الحجاز، والى الهند، واليمن باحضار دخان
 الجراك، فواكه معطنة معجونة بزيوت طيبة الرائحة،
 جدران بيته مغطاة باعلانات قديمة عن أنواع اندثرت من
 السجائر، لديه عدد كبير من العلب الفارغة، لديه عدد من
 النرجيلات، بعضها من الكريستال العثماني المنم، المضلع،
 بعضها ايراني عليه رسوم من منطق الطير، والرباعيات، نقش
 السباع والتمين، لديه ملاقط فحم من النحاس المنقوش
 بالفضة، ومراقده نحاسية مطعمة بالفضة، ومباخر أثرية، انه
 يجلس صامتا، يرعى ضيوفه بعينيه، فوق صينية كبيرة نوضع
 لفائف الفطير، والجبن، والخس، والبرتقال، واللحم،
 والطعمية، الأكل متاح لكل راغب، وعندما يتوهج النعم،
 وتعلو الأصوات بمناقشات سياسية، أو آراء دينية، أو وجهات

نظر اجتماعية، أو تولد نكات، يحتلظ هذا كله بقرقرة المياه،
 عندئذ يبدأ الملاوي في النعاس، وعندما يبدأ انصراف
 الصحبة واحدا أثر الآخر، يقلق، ثم يستيقظ تماما عند خلو
 القاعة منهم، عندئذ يصيح مناديا صغرى بناته، له أربع:
 ثلاث طالبات أما كاميليا فصحفية، تزوجت وطلقت، يطلب
 اعداد فنجان قهوة، ثم يقارقه النعاس والنوم تماما..

وفيه سعل رجل سعالا متصلا، وتجددت خلايا غير التي
 ماتت، وذبلت أوراق كانت بالأمس خضراء..

وتبأ عجوز بقرب القيامة، ونبه الى علامات الساعة، ومن
 ذلك سفور النساء، ونطق الجماد، وقسوة القلوب على القلوب..

واتصل التنوخي بإدارة أمن الخطط، وقال ان الاستاذ
 يبدي انزعاجا من المشروعات الجديدة، خاصة بناء الخزان
 العظيم، ويقول ان المعجم وراءه. وحد من نشر أخبار العمل
 فيه، وأبرز الأعطال..

وهتف برنق عندما رأى رونق: تعيش جلالة الملكة..

وفي الشارع صاحت امرأة تنادي شخصا غير مرئي، يقع
 لف نافذة سدودة بقضبان..

أنا رحت إليه وقال انه سيجيء

يعني الورق وصل؟؟

هو قال انه وصل.

واستدعى الدمياطي المحررة كاميليا الملاوي، أغلق الباب والرغبة في عينيه، مدت يدها لتخفي الركبتين، غير انها تعمدت أن تترك فتحة الصدر تشي وتوحي، قال ان ضغط العمل ثقيل، فكرت في قربه من الاستاذ، نفوذه في الدار، انه يسهر ليصدر الطبعة الثانية، يمكنه ابراز اسم محرر، واغفال آخر، ماذا سيطلب؟ سمعت ان رغباته متواضعة لكنها لا تنتهي، عندما يسافر محرر في مهمة يطلب منه أن يشتري له ثلاث سجائر، طلب من مندوب الأنباء في وزارة الصناعة أن يتحدث الى الوزير ليحصل على قاعدة خشبية لثلاجة، ومندوب الزراعة ليحصل على كيلو عسل نحل، قام.. انه يريد شيئا مختلفا، حام حولها، متظاهرا انه يفكر، عندما أصبح خلفها شعرت ان نظراته تعربها.. تأكلها.. وفيه مثل صباح العيد، وقاضت الشمس فأبهجت وأحزنت وأنعشت، وخرج الجعيدي مع ابنته، غنى لها ولعب معها، وعندما نظر اليها خفق قلبه، البنت تفور بسرعة، جسمها أكبر من سنها..

وتناول حفظي افطاره مع امرأته وأولاده، كعك وبسكويت بالشيكولاته في صحن من الكريستال لا

يظهر إلا في المناسبات، قرأ الصحف، وتطرق الى قمة شجرة تحاذي النافذة، ارتاح الى اللون الأخضر، ليس من المناسب خروجه في تلك الساعة المبكرة، أرجأ ذلك الى الضحى، اصغى الى امرأته أثناء حديثها بالفرنسية الى الأولاد، امتصها البيب ولم يتبق منها الا مصاصة جافة..

ونشرت الأنباء خبر اختفاء مهندس في الصحراء، وقالت انه كانت لديه بحوث ودراسات لو رأت النور لاختضرت الرمال..

وخلا الاستاذ الى نفسه، ضحك، قال بصوت شبه مسموع، أي شيء يمكن أن يحدث في هذه الدنيا، أي شيء..

وأصدر الاستاذ قرارا بتعيين الدكتور السواري طبيبا متفرغا، أرسل في طلبه، قال انه سمع عنه، أطلق في أثره العيون والارصاد، وما نقل عنه جعله راضيا، ان اقدمه على استخراج شهادات طبية لمن يطلبها، وتسهيله اجراء عمليات الاجهاض، وتركيب أغشية البكارة، وبيع المخدرات المستخدمة في الأدوية للمدمنين، ورفضه النزول ليلا لعلاج طفلة مصابة بالسعال، هذه مؤهلات رشحته بمجادة، إن المرأة التي حاول الاعتداء عليها هو الذي أرسلها اليه للكشف عنده، قال انه سينشئ مركزا طبيا لعلاج العاملين، انه يريد تقريراً دورياً، دقيقاً للكشف عن صحة كل رجل وامرأة بدءاً

من الأمراض المتخلفة عن الطفولة وحتى الناتجة عن المهنة،
وليكن المسواري مستعدا لتنفيذ كل ما يطلب منه..

وكثر الكلام عن الخزان الكبير، وصفه التنوخي بأنه
أعجوبة العصر، وقال الدمياطي انه أول الطريق لتحرير
الأراضي الشامية..

وأنتهى العناني أخبار العجم المعتقلين، زادت جرعة
التغذيب، الطعام ينمي الاحساس بالجوع، ويبقى الانسان
متأرجحا عند الحد الفاصل بين الحياة والموت، وينادي على
الرجال باسماء النساء، فهقه الأستاذ... لك مائة جنيه اذا
عرفت الاسم الذي ينادي به الدكتور فهمي..، قال العناني
انه يلح في حضور عمليات التغذيب كما يسمح له بحضور
عمليات الاعدام، لكن الادارة تتكتم حول ما يجري وراء
الأسوار، اسماء العجم لا تدون عند دخول السجن، لكز
المشهد الجدير بالرؤية، مظاردة العجم عراة كما ولدوا في
الغلاء..

وفيه أظهر المرابطون حزنا وغما لأن الأمد طويل وعلم
عند الله، والأمانى قد تتحقق، بعد لحظات، أو بعد مئات
السنين، في كل يوم يتجمع الندى فوق صخور مرتفعة، وزجاج
نوافذ، وقضبان حديدية، وأسوار حدائق، وعلى أطراف
الزهور المنسية، وما الندى إلا دموع الغيبة التي يذرفها الزمن

على ما يجري في الدنيا، يفيض شيخ المرابطين بأسى رقراق،
لا يظهره حتى لا تضعف الجماعة، لكن الضيق يحتم فوقه أحيانا،
في الخطط غرباء وأعداء، يحومون حول مركز خفي لم يدرك
كنهه حتى الآن، ظهورهم هكذا يعني بدء الزمان المعوج، وان
العقبة تلي العقبة في وجه من ستلوذ الطيور به، وتأمين الأسماك
في الأعماق عند ظهوره، ويأنس الحمل الى احضان الذئب في
عصره..

وفيه تساقطت ورود، لم يقطفها أحد..
وتبددت رؤى بمجرد اليقظة تاركة أصحابها في دهشة،
وأنفاس واجفة..

وبدا كل آت قريب، وكل ماض بعيد..

الشارع الثالث، ويعرف بشارع الوشاية

.. في أوله برنق، يزعق محيا الوتيدي،
« والله انت حنين قوي يا بك وقلبك أبيض... »
« أنا بك يا ابن أم برنق؟... »

لكن الوتيدي لا يمضي مرحا كما بدا عند مداعبة برنق،
ان حيرته تتزايد، والضيق يأخذ بخناق، بالأس فوجيء
بالتنوخي يناديه، يصحبه الى مكتبه، يمد اليه علبة سجائره،
لكن الوتيدي يعتذر، إنه لا يدخن، تقلقه إمارات
الكرم، يود أن يعرف المطلوب منه، ولا ينتظر، يسأل
التنوخي، هل ذهبت الى النادي؟ هل رأيت الاستاذ؟ هل
صحبتة أم تركته بمفرده؟ من هؤلاء الأغراب الذين صحبوه؟
ياه... وهل بقيت رونق طوال المدة؟، ضاق الوتيدي، يعرف
ان التنوخي أقرب الناس الى الاستاذ، هو صاحب الرأي
النهائي عند التعيينات، وتقرير العلاوات، أو المكافآت التي
تصرف على الموضوعات ذات النوعية الخاصة، ويختار المحررين
للسفر، لكن نبرة الأسئلة مقلقة، انه مضطر الى الاجابة

بدقة، لا يمكنه عصيان التنوخي، ربما يضمنونه في اختبار معين، رونق والاستاذ لم ينبهاه الى ضرورة عدم الاجابة، من المستحيل عليه أن يتصور ان التنوخي ينبغي ضررا بالأستاذ، تماما كما يصعب عليه تصور أن صديقا يسرق صديقه، أو أن امرأة تخون زوجها، أو زوجا يخون امرأته، يسمع عن حوادث، لكنه يعتبر ذلك تشييعا، ومبالغة، في بداية هذا الشارع سيطرت على التنوخي مشاعر عدوانية تجاه الوتيدي، ورآه أثناء انصرافه، لفت نظره قامته الضخمة، واطراقة رأسه، وخضوعه فانقلبت الكراهية الى عطف، ثم الى حب شديد، ورغبة في استبقائه، وطلب الصفح منه لأنه فكر في الحاق الضرر به، لكنه لم يفعل، وقال ان ما جرى بينهما يجب ان يظل سرا لا يدري به انسان..

زقاق ضيق جدا، وأوله فائدة..

أعلم ان ما جرى في الشوارع السابقة، والأسوار، وسائر انحاء الخطط، لا يمكن اعادة النظر فيه، أو تبديله، أو تغييره، لأنه جرى فعلا، وما جرى لا يمكن مداواته، أو التعديل فيه، فقط.. يمكن التمني، لكن هل يعيد التمني ما فات، هذا محال، فالزمن يمضي الى الأمام، وفي كل لحظة يفلت باباً هيئات لقوة ان تفتحه، أو تحاول النفاذ منه، ما حدث

حدث، لذلك يبدو الوتيدي مهموما، تبدو له أمور الخطط غريبة، هل أخطأ؟ هل أجاب بما لا ينبغي؟ لو ان راوغ، لو انه أجاب بغير ما أجاب، في كل يوم يرى ما لا يفهمه، ويسمع ما يرفض تصديقه، ويمنع ما بداخله أن ينعكس على وجهه، يؤجل الانفراد بهومه الى الليل، أمه لا تعرف رونق، ولم تبر العناني، ولم تشعر بوطأة التنوخي، الا انها تصفي، توميء تبدي دهشتها، حنقها، توافقه على ضرورة تدعيم نفسه بتواجده طوال الوقت، وأداء ما يكلف به، يمضي الليل والوتيدي يفضض عن نفسه، لا يريد العودة الى النادي، لا يريد الخروج من الخطط، لا يريد التواري في الأماكن النائية، والبقاع المجهولة، لن يسمح لأحد أن يقصيه عن هذا الزقاق، أو الشارع، لو عاد الى النادي سيجري وراء الأطفال، سيطارد الفضوليين الذين يتجمعون خارج الأسوار لاختلاس النظر الى سيقان النساء أثناء لعب التنس، سيعود خلف الكرة عندما تجتاز حدود الملعب، يضطر الى الصمت عندما يرى شابا يهمس لفتاة في خلوة، ربما كان ابنا لعضو يحتل مركزا هاما، ينتظر الأعياد ليبتسم في وجوه السادة مطالباً في صمت بالعندية، ويحفر ارهاق العصاري في الصيف خطوطا ويضفي عبوسا على جبينه، وتهن قوته التي حدوده عليها، كان منسيا في النادي، قبل ظهوره في الخطط طلب منه عضو أن

يعمل باحدى صالات الرقص ليحفظ النظام بقواه الخارقة، لكنه راوغ حق اعتذر، ليس من حق أمثاله الرفض الصريح القاطع، لو حدث أن وافق لانتقلت ايامه، لارتدى فائلة برقبة، وحمل قبضة حديدية وشرب الخمر وأحب هذه الراقصة وتستتر على تلك حق تستنزف صحته، فيصير بواباً أو جامعا لأعقاب السجائر أو شاما أو مستحلباً للأفيون، في هذه الحالة لم يكن سيظهر في المخطط باسمه أو ملامحه، كان سيصبح واحداً من آلاف العابرين، عندما تحدث اليه الأستاذ ظن في البداية انه يسخر منه وانه سينهي الحوار بطلب عرض قواه البدنية، ودفع خمسة جنيهات مقابل جره لعربة باسانه، لكنه فوجيء أن الأستاذ يعرف عنه ما لا تعرفه ادارة النادي، بدا كأن الحظ الخارق والنصيب النادر عرف طريقهما اليه، تسلمه العناني طلب منه متابعة جريمة قتل امرأة كودية زار، عندما وقف أمام الضابط نزلت عليه هيبة، ا يصدق نفسه، وعندما همس اليه الأمور برجاء الا ينمو الصورة أدركه خجل، الضابط يرجوه، ومنذ أيام كان يحشم حرس النادي، بعد عودته نقل ما سمعه الى الكولي رئيس قسم اعادة الصياغة، بعد نشر موضوعه الأول استدعاه الطنبولي هناك، وقال انه يتابع نشاطه وعدم تعاليه على أي عمل يستند اليه، يريد منه ان يتداخل مع العمال، قضاء أكبر وقت معهم

لن يطلب منه أن ينقل ما يسمعه، كل ذبة غل تصل الى الأستاذ، لن يطلب منه تقريراً عن إنسان بعينه، كل ما يريده، أن يجالسهم، وأن يقوم بالواجب تجاههم، عرف الوتيدي طريقه الى مقهى العمال القريب، لم يعد غريباً عن الجلسة بقامته وصوته الغليظ، مع مرور الأيام شعر براحة في المقهى، اثتنس بالعمال، لكن ثمة ضيقاً لم يفارقه، يشعر أن شيئاً خفياً لا يراه في هذا الزقاق، لماذا اختاروه هو بالذات؟ هل سبب في قطع رزق أحدهم؟ أمنوا له وأخشي ما يخشاه أن يلحق بهم الضرر، لماذا اختاروه هو بالذات؟ لكن مضت أيام ولم يستدعه الطنبولي، ولم تطلب منه معلومات، حتى خيل له أن الأمر أصبح منسياً، وتوقع أن يعاقبه الطنبولي لجلوسه الدائم بين العمال، لكن الضيق يعاوده، ثمة أمر خفي، كثيراً ما خطر له ذلك أثناء ضحكه فيتوقف فجأة ويشرد ويتمنى مجيء الليل، حيث يتعدد فوق الكنية، وتقعده أمه فوق الأرض، كأنها تدرك كل شيء، أفضل مضغ إليه في هذه اللحظات يشعر أنه خلع أثواباً غير مرئية أجهد نفسه في ارتدائها، لا تصل إليه ضوضاء، ولا آلات، ولا يرى الابتسامات الغامضة، وإشارات الأيدي، والطنبولي الذي يذكره بحذر باعة الذهب، إنه يشعر أن ثمة أمراً مطلوباً منه تنفيذه، وأن دوراً معيناً لم يقم به بعد، لكن.. لم ينصح له إنسان..

زقاق الوشاية الصغير ..

من هنا يتطلع الجميدي إلى الأزقة المجاورة، والشوارع، والمنحنيات فإذا به يرى الوشاة مندسين، منشرين، وشاة يعرفهم بالاسم، ويحرص على الحديث امامهم بما يحسن صورته عند الأستاذ أو كبار المسؤولين، آخرون يشك في انهم وشاة، ونفر لا يعرفهم، الوشاة بلا حصر، وكلهم في مأمن، لماذا لا يجرب حظه؟ لماذا لا يشي لعله يحظى بقرب، أو يخفف عنه، في احدى الحوارات المتفرعة من شارع الاجتماعات طلب منه البلشي ان يقدم نفسه الى التنوخي، حتى الآن لم يلتق به، ولم يقابل الأستاذ، انهم لا يحبونه، اذن.. ليشي ربما ازداد اقترابا، انه يتجه الى رونق، يقف امامها متوددا، صباح الخير يا ست الكل، كما تصور فان الواشي لا بد ان يكون خافت الصوت، لا بد أن ينحني، يود الاقضاء بمعلومات هامة حول العناني، تندي رونق دهشة، يؤكد ان لديه ما يجب قوله عن العناني، ان الحديث الأخير الذي اجراه مع كبير مهندسي مشروعات ري الخطط، اعلان مقبوض الثمن، يتوقف.. لا يدري الخطوة التالية، يظل وجهها صامتا، ماذا يفعل؟ هل ينصرف فوراً؟ أم يبقى دقائق؟ أم يختلق موضوعا للحديث، ان ارتياكه يتزايد، خاصة انها لم تحاول قطع الصمت

واستمرت تحقق اليه، يقول ان كلمة الاستاذ اليوم رائعة، جعلت القلوب تحقق من أجل هدى الهلاوي، رد الله غربتها، عينا رونق كالزجاج، كأنه لم يتحدث، لا يقف في الحجرة، يتمنى ان تجاوبه، عندئذ يشكو لها مضايقات العناني، ومعاملة التنوخي الغريبة، وانفراده بكاميليا، لكنه يتراجع، يرفع يده بالتحية غير انها لا ترد، يتراجع بظهره، تتابعه ضامته، يستدير وكأنه يولي هربا، أثناء مشيه حرص على الاحتفاظ بنفس التعبير على وجهه، ربما فوجيء باحدهم أمامه، عندما تأكد انه ما من انسان يرقبه اخرج لسانه مرات، وبصق، بصق على رونق، وام رونق، وعائلة رونق، لا بد أن يشنع، ان يشتم، خاف أن يبدو منه شيء، داخل هذا الزقاق، انه يسرع الخطى لبحث عن الفولي مفتش الصحة ليحكي له ويفش غله.. لكن قبل وصوله الى نهاية الزقاق يستدعي فجأة لمقابلة الأستاذ.. يتراجع مضطرب الخطى، انها المرة الرابعة التي يقابله فيها على انفراد منذ مجيئه بتوصية من عضو المجلس الجمهوري ابن بلدته، في البداية تشاغل الأستاذ عنه، لماذا سمحت له رونق بالدخول عليه؟ الوقوف بضايقه كأنه معلق في فراغ، ولو خطا الى الأمام وجلس فوق المقعد الخالي ربما فوجيء برد فعل لا يتوقعه، يقولون انه ربما ضرب بعض من يغضب عليهم، لكن ما يرهبه الجميع ضيقه المكتوم بلا نذر

أو علامات، لا شيء يجد من سخطه، ولا وساطة تنهي مقته، يوماً ما ضرب اقرب الناس اليه، التنوخي نفسه، خلع حذاءه وانهاه به عليه، يقولون ان التنوخي راح يتناول الحذاء كلما أفلت وينحني مقبلاً الأرض، ويرجوه أن يهدأ خوفاً عليه من عواقب الانفعال، وضيق النفس. اذا ضرب الاستاذ تطمئن النفس، لكن المرعب ان يضر ولا يفصح. فجأة، يرفع الأستاذ رأسه، يسأل، هل لديك متاعب في الشغل؟ كيف حال ابنتك ثريا؟ اين تركتها اليوم؟ هل ترجع لتصبحها من المدرسة الى البيت؟ اذن انت تقيد نفسك بميعادين ثابتين يومياً؟ يرتبك الجعيدي. اذا احتاجه العمل خلال هذين الميعادين.. ماذا يفعل؟ يضطرب الجعيدي، لكن الاستاذ يسأل عن عمرها، عشر سنوات؟ انها صغيرة، يعود الى الأوراق وكأنه لم ينطق حرفاً، يرتاح الجعيدي الى هدوء الثبرات، لكن لماذا يهتم بابنته؟ يقول الاستاذ فجأة انها تذكره بأمها، تهوي دقات قلبه، يصفر لونه، يشير الاستاذ بقلم رصاص.. يقول انه نقل معلومات الى رونتق منذ نصف ساعة، الساعة العاشرة والنصف، من قال لك انني أحب الوشاية والواشين؟ معنى تفرغك لنقل المعلومات عن زملائك انك أسود القلب وانك لا تعمل، اذا اتبعت هذا السلوك سأبلغ أمرك الى من أوصاني بك، يهز الجعيدي رأسه هزات متلاحقة، بدا الاستاذ

وكانه قد من صخر، جهم، قاس، ناري النظرات، فجأة راح هذا كله وقال برقة انه يرغب في حضور عيد ميلاد ثريا، خاف الجعيدي، لماذا الاهتمام بابنته؟ قبل خروجه من هذا الزقاق أدرك انه ما من انسان يستطيع ان يضير واشيا لأنه قرر ذلك، وأن المسموح لهم بالوشاية معروفون، معدودون، وإن الأمر أصعب بكثير فما تصور..

منحني قصير، وفيه عاقبة الواشين..

في أوله يظهر العناني هائجا ينوي العراك، زعق طالبا السماح له بكلمة، يصيح الوتيدي «تكلم وخلصنا يا أخي»، ينتهز الجعيدي الفرصة، يملأ عينيه من كاميليا، كانه يعرفها منذ الصبا البعيد، لكن العناني يجهم حلاوة اللحظة، يتساءل عن رأيهم في الواشي بزملائه، يرتعد الجعيدي، يتجنب نظرات العناني، يوقن الجميع ان حدثا مشيراً سيقع، يطالب الهلاي بتوضيح أكثر، يعلن الزعراني المشرف على مراسلي الأقاليم بانه اذا لم يعلن الاسم فلا داعي، لكن العناني يقول غاضبا انه لن يصرح، سيكتفي بكشفه لنفسه، وأمام الآخرين، حتى وان لم يصرح باسمه..

خلاء غير مطروق..

أدرك الجعيدي كرب، فان حاله، أما أشد ما آله فحضور

كاميليا واستاءها الى زعيق العناني، لجأ الى هذه المنطقة
النائية، غير المطروقة من الأستاذ أو عيونه، أثناء قطعه
المسافة ردد صامتا هتافات ضد الأستاذ، لمن رونق، تمنى
موت العناني، في الخلاء يلتقي بصديق، لا صلة له بالدار،
مفتش صحة، سمين، يرتدي حلة كاملة ذات صديري
وصندل بدون جورب حتى في أيام الشتاء، ويحمل حقيبة
متوسطة الحجم، حقيبة سفر مع انه لا يسافر أبداً، تعرفنا في
مقهى صغير، انه المفتش المكلف باللف على المطاعم الموجودة
بالشوارع للتأكد من مراعاة أصحابها لقواعد الصحة،
باستطاعته إلحاق الضرر بأي مطعم، واغلاقه اذا كتب تقريراً
يشير فيه الى وقوع مخالفات، يمكنه الأكل مجاناً في أي وقت،
ودعوة أي عدد من أصحابه، ولا يدخر أصحاب الخال وسماً
في سبيل ارضاء شهيته، كذا أصحابه، وتلبية رغباته عندما
ينتهي من الأكل ويصيح، لفوا لنا عشاء الأولاد في ورقة، ولا
تسوا السلطات، بمجرد لقائه بالجميعدي يسأله عما يرغب في
أكله، وعند دخولها يشير اليه قائلاً انه صحفي كبير بجريدة
الأنباء، ولا يمل من تكرار ذلك حتى لو دخل المكان نفسه
عدة مرات في اليوم، كما ان أصحاب المطاعم يكرروا
استفسارهم عن الباب الذي يكتب فيه الأستاذ، فيقول
الجميعدي انه صحفي في قسم الأخبار، ثم يهس لصاحبه

هؤلاء أغبياء، ان الصحفي لا يحصل على باب ثابت الا بعد
عمر طويل ومشوار صعب، يقول المفتش، دعك منهم، ما يهمنا
الأكل، يصني المفتش الى الجميعدي عن عجائب الزمان التي
جعلت شخصاً كالتنوشي يصبح نائباً لرئيس التحرير، والعناني
الذي يهوى خراب البيوت، حتى السعاة يقال أنهم منتظمون في
عصابات نشل، أما الزعراني فيحمي عصابة تتولى سرقة
القطارات المتجهة الى الوجه القبلي، هل هذا معقول؟ ان
مفتش الصحة لا يعرف شخصاً منهم، كما انه لا يقرأ الصحف،
لكنه يصني، وهز رأسه، وقد يلعن أحدهم مشاركة منه
للجميعدي، ولو ناله الارهاق، وبدا على وشك النوم، فان
الجميعدي يثير انتباهه بذكر تفاصيل مقابلته لأحد الوزراء،
تسرع عينا صاحبه، ويزدرد الطعام. ياه! هل رأيت وزيراً،
هل صافحته بنفس هذه اليد التي تصافحني بها؟ وشربت
القهوة أيضاً؟ ثم يردد آه يا عم.. وصلت، أي والله وصلت.
في الخلاء شخصيات أخرى يمضي اليها الجميعدي، رجل تجاوز
الستين، يعمل رباناً لحدى السفن النهرية التي تنقل الركاب
في أيام الاجازات والأعياد، والمواسم، يعرف أيضاً صاحب
مصبغة بلدية، وكاتب فندق قديم، وصاحب بوظة، ومقاولاً
تخصص في بناء المداخن، وتاجراً لاطارات الكاوتشوك، وبائعاً
انفرد ببيع سيقان الدجاج وصاحب مصنع بسطرمة، كثيراً ما

يسعى اليهم جميعا في يوم واحد، خاصة عند وقوع مضايقة، أمر جادثة لم يستطع الرد عليها في حينها، في اليوم التالي لهروب امرأته، لم يهدأ لمدة شهر، جاب الخلاء كله وشنع بغدر النساء وقلة اصلهن، ونقص عقولهن، وأحيانا كان يبكي ويلطم لأن ما فات لن يعود، ولأنها خاتته مع غريب، ولأنها هجرت ابنتها، تحدث حتى الى الذين لم يعرفهم أبدا، جيرانه العابرين في الترامويات والمساجد، والمقاهي، كان يطلق آعة، أو لفظا، فاذا لاحظ انتباه الغريب، ينطلق عندئذ في حديث طويل مهاجما المرأة وغدرها، كثيرا ما يشعر انه انتقم من الأستاذ أو من العناني أو غيرها، مع انه يعرف بعدم وصول أية كلمة مما قاله، أحيانا يجد نفسه وحيدا كهذه الليلة، البرد قارس، ولا بد من العودة الى البيت، عندئذ تقدم الى نقطة قصية، وزعق، ملعون الأستاذ، ورونق، والعناني، والتنوخي، ملعون النهار الذي رأيتهم فيه..

حارة رونق..

كثيرون يترددون على حوارى رونق، وكثيرون يشيرون فيها سخرية، الجعيدي يكبرها بخمس عشرة سنة، الشعيرات البيضاء تتخلل رأسه، ملاحه طفولية عند محاولة الوشاة، كأنه يفشي لأمه سر جارتها، تتفاوت اساليب الوشاة، بعضهم يلف

ويدور ثم يفضي بما يريد قوله كأن الأمر صدفة، وبعضهم يقول ما عنده مباشرة، الأستاذ لا يدع شيئا يفلت، كل من يظهر في حوارى رونق خصص له ملفا يحمل اسمه، والغرض الذي جاء من أجله، حتى أولئك الذين يثق فيهم الأستاذ، في هذه الحارة تشعر بضيق خفي مع ان الأمور استمرت على ما كانت عليه مع الأستاذ بعد ضبطها في بيت العجوز، كل ما تغير انه أصبح يرتدي غطاء واقيا، ما يضايقها انها ترى فيه ما لم تراه من قبل، انه لا يبوح لها، لحديثه ظاهر، وباطن، لم يذكر لها كلمة عن المكان الذي أخفي فيه هدى الحلاوي، أثناء استغراقها في البانيو لتزيل آثار رائحته القوية النفاذة والتي تجذب القطتين حولها، وتجعلها يتحسناها ويحاولان لحسها، أو أثناء تدليكها موضع عضته، أثناء انتظارها في شقتها الصغيرة تساءل، أي أمر شغله اليوم؟ تستعيد ملامحه ونظراته وإيماءاته، أو حركة أصابعه المليئة بالحويوة، واستغراقه في قراءة صحف الصباح المنافسة واهتمامه بعدم وصول صحيفة اقليمية تصدر في اطراف الخطط، شيء ما يخيفها منه، شيء لا تضع يدها عليه، ربما شرود عينيه الزجاجيتين، توجه أفكاره الى أهداف خفية، شعورها أحيانا انه محسوس وغير محسوس، انه يحتل جزءا من المكان وبرغم ذلك تخلو منه الأزقة والحواري، والأسوار، والشوارع، كأنه ظل لشخص

آخر تجهله، تراه ويمكنها رؤية ما وراءه، كأنه شفاف لا يبين، تدرك ان له أكثر من وجود، كيانات متداخلة، لكنه لم يودعها جزءا منه، لم تلمس أي جانب منه، لم تقف عليه، ما تريده مطمور في مكان لا تعلمه، كثيرا ما تنظر الى الباب المؤدي اليه، وبالرغم من يقينها انه بالداخل، وانه لا مخرج آخر للحجرة الا أن ثمة يقينا ينتابها بعدم وجوده، تسأل نفسها، ماذا تريد منه بالضبط، خلال فترة قريبة أصبحت من أشد المقربين، كل ملفات العاملين السرية تحفظ بمعرفتها، والطنبولي يتصور ان لديه كل الأوراق، انها محور مواعيده، واتصالاته، كل من يلتقي به تعرفهم عدا هؤلاء الاغراب ذوي السحن الغامضة، ماذا تريد بالضبط؟ تمر عليها لحظات تود لو تدخل عليه، تصيح، تلقي مفاتيح المكتب، والدواليب، ومفتاح الشقة، تفر من الخطط، تفكر في مصارحته بخوفها الغامض منه، لكن.. كيف تنأى عنه وهي تعرفه ولا تعرفه؟ لأنها لا تمسك بكل خباياه لا زالت تدور في فلكه، لكن ما يعذبها انها تفهم جانباً منه، وبعد ان خرجت من القضية في صمت، واستقبلها بجمرة لم تبد دهشة، ولم تنحن على يده لتقبلها، انما استأنفت عملها بشكل عادي جدا، تماما كما أبدت تفهما عندما قال لها ان مضاجعته لبعض العاملات، وابقاء الأخريات في حالة انتظار، انما الغرض منه

احكام القبضة، وكسر العين، لا يعنيتها تردد اثيل، أو علياء، أو سامية، تسخر منهن، من حججهن التافهة، تضمر لكل منهن كراهية مجردة، بقدر ما تجرص على اختيار نوعية الثياب التي تكشف أدق تفاصيل جدها، بقدر ما تشمئز لرؤية تشبهن وتمايلهن، وتحيلها امتلاء بطونهن بعد الزواج، والافرازات الشهرية، وامتلاء الصدور باللبن، وحركة شفاء الأطفال عند الرضاعة، تضيق بكل ما يتعلق بالاخصاب والانجاب والطبيخ والاثاث والزيارات وتبادل الهدايا، تمنى رؤية كل منهن في لحظة هوان، ان يسارع الاستاذ الى اقتحامهن حتى تنفرس في ملاعهن عندما يدركهن الخوف من نمو الاجنة، قال العناني انه ما من شيء يخفى في الدار، أي محرر لا يجرو على مفاصلة أنثى لم يقربها الأستاذ بعد، قال ان خطابا وصل الى كل من الفتيات الثلاث يقول كاتبه ان البداية ستكون للفتاة التي تحمل فوق فخذها الأيمن شامة مستديرة، حتى الآن لم يطلع شيء في دماغها، لكنها تفكر في عدة أمور، هل تنتحل صفة سائحة أجنبية وتساfer الى جنوب الخطط الغنية بالآثار، وهناك تتعرف بأحد رجال المنطقة، تعيش معه ثم تهجره فجأة؟ أم ترتدي هلاهيل الثياب وتسول؟ هل تنضم الى العجم؟ هل تعشق طالبا، وتبكي على صدره، ثم.. ثم ماذا؟ لم تستقر بعد على نزوة، أثناء انصرافها

تقدم منها برنق، غليظ الرقبة، أحمر المشفرين، رفع يده
بالتحية، حرك عينيه بسرعة، زعق « تعيش جلالة الملكة » ..
ولم تخف ابتسامة غامضة ..

« .. قبو خفي، يتصل بأقبية أخرى .. »

.. الانسان عالم صغير، والعالم انسان كبير، واللحظة زمن
ممتد، والذرة كون فيه ما فيه، ما أسببه لمن تقع عليه عيني
نودج لما سيجري لمن لا أعرفهم: الشرخ في نفوس المقربين نواة
للخلل الذي سيقرب، سيفير، الجعدي لم يسبب لي أذى، لكن
وقع عليه اختياري لأضع روحه بين فكي المنجلة،
يتمنى لو مسح الخطوط بلسانه ليرضيني، لكن ليس ما يتمناه
يدركه، نحن نحدد الوضع، والحركة، ومواطيء الأقدام،
والمدى الذي يجب أن ينعكس عند الصدى، بدأ تقويضه منذ
رحيل امرأته، عرفها الدمياطي وأدرك خباياها، في اللحظة
المناسبة أوحى اليه بضرورة توجهه الى بيته، لو انها تجيد
الكتابة لالحقتها بالأنباء، لجعلت مكتبها بجوار مكتبه، ليصبح
العرض علنيا، انه موله الآن بكاميليا، يعتصم بابنته، وفي
لحظة أخرى لن يجد عاصما، ربما جرى ذلك بعد حين، تقطر
القطرة في موعدها، وكل شيء له أوان ومقدار، أعرف انه
يقرأ، وهذا يزيد كراهيتي له، مكتبة الدار تضم كبا لا مثيل

لها، لكنها جزء ميت في كل حي، معدة ليراها الزوار
فنبهروا ويدهشوا، لكنها محرمة على من لم يمت الى الأنباء
بصلة، لم أصدر قرارا علنيا، لكنه الحبل السري الذي يصلني
بابناء الدار الحقيقيين، قد اتسامح مع خلاصة الخلاصة وحملة
الأسرار، لكن بشروط، حتى لا تتفتح في الأفئدة سككا
بجهولة، ودروبا لم تطرق، المكتبة هنا مصيدة لكشف من أراد
التوغل في الدروب الوعرة، المعرفة تعني ربط الحاضر بالماضي
بالمستقبل، ومبتغاي عزل الحاضر والنظر اليه مقطوعا عما سبقه
أو ما سيلحقه، ما أتمناه ان يعرف الانسان ولا يعرف، ان
يرى ولا يرى تمهيدا للعلمي الأعظم، أدنو الى يوم تينع فيه
اغراسي، فتختفي الشمس في وضوح النهار بينا بريقها يؤلم
العيون، الشرف يصبح سبة والمجد عاراً والفضيلة رذيلة
والصدق أقصر الطرق الى الهلاك، يوم تختفي الحقيقة
الساطعة، يصبح تضليل الملايين أسهل من تضليل طفل يحبو،
يوم يعرف الآلاف أن ما يصفقون له سيلحق الأذى
هم، ومع ذلك يرقصون ويهللون، يتبدل القيم
وتقلب المثل ويتوه الماضي في المستقبل ويضل
الحاضر عن الحاضر ويصبح الحماس لكل شيء بنفس الدرجة،
والانتقال من النقيض الى النقيض بنفس بساطة رونق داعرتي
العظمى، تختفي دعوات العدالة، والمساواة التي لا أساس لها،

أرى يوما تخلو فيه الخطط من نسخة كتاب، ويصير العثور على
اسطوانة أشق من رؤية زهرة الجليد، تباد المكتبات وتمحي
اللوحات، وتحتفي القصائد والحكايات من الذاكرة، ليس
ذلك عن ناظري بعيد، الدعاة بلا حصر، والرسل منبثون في
الخطط، لا شيء يفصل عن شيء في الدار، سأطرد الجعيدي
من الجعيدي والوتيدي من الوتيدي وأمهـد ما تبقى من
نتوءات الضمير، أروض من استعصى، أشغل العقول بمصير
هدى الحلاوي وأمثالها، أو قصة أغنية جديدة، أو ما
سيجري في مباريات الكرة، هناك وهناك، ليس بعيد ذلك
اليوم الذي يقتل فيه الاعجمي رفيقه الأعجمي، وهذا أشد
وأنكى، يتلاشى ما يروح عن كل مساواة، أو اخاء، ترفرف
رايات الاستغلال، تزدهر عصور العبودية، جندي مخلصون
التنوخي يرسل التقرير تلو التقرير ضدي، ماذا أريد أكثر من
ذلك؟ يرتدي القناع في أثر القناع، يأكل على كل الموائد،
صالح لكل العصور، ترى.. هل أعيش حتى أراه مسؤولاً عن
الخطط أو عن جانب منها، يبيعه أو يؤجره لمن يشاء، في كل
مكان يوحد تنوخي، بل من هو أخطر منه، الاعداء غاصبو
الأرض الشمالية متواجدون في الخطط كالخميرة، لو ضبط
أحدهم، لو ارتبط به شخص من الخطط سيعدمان بعد
محاكمة سريعة، أرى يوما يجيء فيصبح فيه الاعداء

الأخوة والأحياء، ومن لا يفهم أو يعاقبهم، يشنني أو
يعلق في مكان عام عبرة لمن اعتبر، لو أفضيت بذلك إلى
إنسان لاتهمني بالجنون، لكنني أرصد الشرخ المسع رويدا.
رويدا، حتى الم رابطون بينهم من هو قريب مني، أعرف أنهم
قلقون الآن، لأنهم يعرفون بوجود الأعوان الخفـساء،
ويستشعرون القلق، لكنهم لن يدركوا أبدا حقيقة الحجم، أو
إتجاه الضربات، وحتى يحين الحين لن يدرك الكثيرون
تفاصيل غايقي، ومعافرتي للمنايا، وسفحي للقيم، ثم التادي في
التادي، أبدا.. أبدا، لن يقدرُوا على سبر أغوارى..

زاوية قرب نهاية الشارع..

.. خشي البعض ان ينتهي شارع الوشاية بدون ان يفضوا
بما عندهم، اسرع الهلالي الى رونق، قال ان الزعراني المشرف
على مراسلي الأقاليم يتلقى هدايا منتظمة من المندوبين، سمن
وعسل وجبن وأوز مذبوح، وهريسة، وأسماك، وانه أفحش في
ذلك.. وجاء قنديل الأزهري لاهثا، قال انه نما الى علمه تفوه
أحد عمال المطبعة واسمه الخضر بلفظ «المنطلقات» واللفظ
من مجموعة حدها الاستاذ لكشف كل ذي ميول أعجبية،
بادرت رونق الى ابلاغ الطنبولي المشرف على المطابع، أجرى

اتصالا بإدارة الأمن، لكنهم طأنوه، وأكدوا أن الخضر لا
تحوم حوله أية شبهات.

وجاء الدكتور السوافيري، وهو ليس من العاملين
بالأنباء، انه استاذ بجامعة الخطط، ظهوره عابر، منظاره
معدني قديم، يضم الى صدره حافظة جلدية بنية اللون، لسبب
ما خيل لرونق انه ضعيف جنسيا، وإن علمتها التجربة الا
تخدع بالمظهر، تطلب منه الجلوس، المقاعد بدون مسند حتى
يشعر الضيف بالقلق، تعتذر لأن الاستاذ مشغول والشارع على
وشك الانتهاء، يفتح الحافظة، يقول ان لديه كشفا بأسماء عدة
من الطلبة لديهم ميول أعجمية، قائمة لا يرقى الشك اليها
وهذه المناسبة كتب مجموعة من المقالات، الأولى في الرد على
الجانب الاقتصادي من فكر العجم وتتضمن أفكارا جديدة
تطرق بعد، تنتاب رونق سخرية، تود لو شخرت، لو بصفت
عليه، لو تجردت عارية فجأة أمامه، يثيرها حرصه على لقب
الدكتور قبل اسمه، يقول ان هذه المقالات بذرة لكتاب كبير
سوف ينسف به فكر العجم نسفا، لقد اكتشف ما عجز عن
علماء الفلسفة والاقتصاد في أوروبا، وأمريكا، ولأنه لا يكتب
نظريات مجردة فقط فقد أحضر معه مقالين، الأول يتضمن
حلولاً لمشكلة الاسكان في الخطط، والثاني حول أفضل السبل
لتخزين البطاطس، يمد يده بصورة صغيرة لنشرها مع المقالة

يرجوها الا تسي. لو بقي أمامها دقيقة واحدة لزعت في
وجهه.

بيان من إدارة أمن الخطط

.. أثناء استعداد نقاط التفتيش لمراجعة احوال جميع
شخصيات الخطط كما هو متبع حرصا على اكتشاف أي أثر
لأفكار العجم يمكن ان تكون قد تسربت في زحام الأحداث،
أو من خلال ضيق بعض الشخصيات أو مرحها، أثناء
الاستعداد لطرح الأسئلة أفادت مصادرها بانه يجري الاعداد
للدفع بأربع شخصيات جديدة الى الخطط، ثلاثة شبان،
 وامرأة، واتضح لنا انهم جميعا يعتقدون أفكار العجم، ولما كنا
حريصين على حماية تقاليد الخطط، وتطور الأحداث فيها
والصراعات، ونقاء شخصياتها، فقد بادرنا الى منعهم من
التسلل الى الخطط، وتصدينا لأي حجج تقول ان هؤلاء كان
تواجههم ضروريا لتعميق الأحداث لقد كنا نتابع المحاولة منذ
اللحظة الأولى لظهورهم، يا أهالي الخطط، إن قوات إدارة
الأمن متيقظة لكل محاولة، وساهرة على حمايتكم من أفكار
العجم، ومصائب العجم..

السور الرابع ..

في أوله أفضى شيخ المرابطين بملخصه الرؤى ، قال ان ثمة شخصاً في الخطط ينوي ما ينوي ، وان محصلة أعماله تؤدي الى تمديد غيبة صاحب الزمان ، انه مجمع لخبث الدنيا ، وشرور الآخرة ، ولد في ساعة نحس ، نفس الساعة التي طرد فيها آدم من الجنة ، وقتل فيها هابيل ، وألقي فيها ابراهيم الخليل الى النار ، وألقي فيها يوسف الى غياهب الحب ، والتي أهلك الله فيها قوم لوط وشمود وصالح ، وصلب فيها المسيح ، وهي الساعة التي غاب فيها الإمام عن الأبصار ، وصاحب مثل هذا الطالع المذموم المشؤوم لا يرجى من زمن يحتويه أي خير ، لهذا وجب الكشف عنه ، وإفساد أمره ..

وقرب الغروب خلت الساحات ، والميادين ، ونزلت وحشة ، وصفرت رياح باردة ، وتأهبت الخطط لليل شتوي مليء بالوحدة ..

وأغمي على امرأة قصيرة ، حول ساقها خلخال فضي ..
وفيه بدأ تنفيذ مشروع مدارس الاطفال التي تضم مرحلة

حضانة، ومرحلة ابتدائية، ستدرس المناهج الرسمية،
ومناهج اخرى لم تطبع في كتب، تلقن معالم النفاق، وحب
الذات، وأصول الخيانة..

واستأنفت الأنباء حملتها، فنشرت عنوانا رئيسيا: «العجم
يتلقون التعليمات من خارج الخطط»، وتلك أول مرة يستخدم
فيها هذا التعبير الذي شاع فيما بعد..

ولاحظ الكولي ان حملة الهجوم أخف حدة، وقال سرا
ان هذه رغبة قادة العهد الجمهوري لأنهم يتقربون الآن من
الدول التي يسودها العجم لالتماس مساعدتهم في بناء الخزان
الكبير، ورد الأستاذ على ذلك، قال في اجتماع عام. ان بنلا
الخزان لن يؤثر على موقفنا، ثم طالبهم ألا ينظروا الى
الخزان كشيء باق إلى الأبد.

ورفع التنوخي تقريرا يؤكد قلب الأستاذ الأمور الجادة
الى أنباء مشيرة، خفيفة..

ورفع التنوخي تقريرا ثانيا يشير الى نوايا الأستاذ
بخصوص سلسلة المدارس التي قرر انشاءها.

وفيه تهدمت اعشاش عصافير عندما ازيلت شجر
قديمة..

وحمل الهواء ذرات تراب ناعم فقال الناس: جو غريب
في غير أوانه..

والضحى والليل اذا سجي..

وتبعثرت نجوم في السماء النائية..

وفيه أصفى أبو ستة مذهولا الى التنوخي، قال: التنوخي
ان الاستاذ اختاره ليعمل محررا في الأنباء، قال: أنا! قال:
نعم، قال: او ما علمت انني أعمل ساعيا في دار الأوبرا؟،
اكس الأرض، وأرش البلاط، وأجمع أعقاب السجائر قال
التنوخي: نعم، قال: أو ما علمت انني أقل الساعة شأنا وأقلهم
قدرا، وانني المسؤول عن نظافة دورات المياه؟ قال التنوخي:
نعم، قال: أفما يعلم الأستاذ انني لا أجيد القراءة أو الكتابة،
قال التنوخي، نعم.. لكنك ستتعلم.

وفيه تقدم البلشي من أبو ستة ساعي الأوبرا، صاح في
وجهه، الا ان أبو ستة واصل مشيه، أمسك البلشي ياقته،
تهته أبو ستة ولجلج في الكلام، لكن البلشي لم يصدق اذنيه،
طلب منه الانتظار، قالت رونق ان أبو ستة بدأ تدريجه
ويجب ان يسمح له بالدخول كأي انسان..

ورفع البيجرمي رأسه، رأى شابا غليظ الشفتين، قبيح
المبنة، مد يده بورقة، ظنه أحد طلاب الحاجات ينبغي
مساعدة، مد يده بقرش، لكن الشاب تهته، تطلع اليه

البيجرمي من فوق الى تحت، قال بدهشة، «وازدراء : ما اسمك؟ قال: أنا أبو ستة..»

وفيه فارق النوم عيني الدكتور صبري أحد غلاة المعجم، فوق المعتقل صمت مجهد ثقيل، موجات متلاحقة تعبر ظهره، أجساد الزملاء متلاصقة، لا يمكن للفرد ان يستدير في رقدته، لا بد أن يقف، يلف، ثم يتمدد؛ النوافذ قرب السقف، الهواء البارد يندفع بلا راد أو مانع، صمت غريب، مؤقت، قد ينتهي في أية لحظة، الكبسات الليلية لا تبدأ الا بعد استغراقهم في النوم، ثم إزاحة المياه فوق الأرض، حاول أن يرفع جسده، اذ يخلو الى نفسه ينفرد به الألم الموجل من نوبات الضرب، في مواضع تلقى الضربات مات الجلد ونبتت عضلات، أبات، أحدهم يحض، حاول أن يغمض عينيه.. وفيه انتفخت اشرة بالهواء، مضت مراكب الى الجنوب، ومراكب الى الشمال، الاشرة منتفخة بنفس الهواء..

وارتدى العناني قفازا، أمسك برزمة منشورات تحمل اسم المعجم، المعجم المناضلين ضد الظلم، من أجل عالم مثالي، لا فقر فيه أو غنى، ولتحقيق ذلك يجب تكثيف النضال ضد العهد الجمهوري الذي ورث مساوىء العهد الملكي وأضاف اليها. هنا توقف العناني: المفروض أن تضاف عبارات أكثر حدة، مثل «مناشدة الخلايا السرية التأهب للحرق والنسف»،

لكن ليس له أن يسأل عما لم يحط به علما، في بداية النهار سيوزع الخطابات في صناديق البريد، ستصل الى موظفين كبار، وضباط، ورؤساء مناطق في الخطط، والى صحفيين، والى العناني نفسه..

وفيه مارس الجنس عدد لا بأس به من الخلق..

وفي حجرة فسيحة، أطرقت هدى لحظات، ثم رفعت وجهها، قال: «بضراحة.. نحن لا نليق ببعضنا..»

وقال الرجل المعجم للرجل الملتحي: أنت معك كل الآخار، أخبار الحي والميت، لكن قل لي يا شيخ وحياتك، هل النخلة الفردانية في الناحية القبلية من البيت كما هي؟ وقال رجل في صحن الجامع: القديم اليوم كان بالأسس جديدا، وان الجديد اليوم سيفقد قديما ذات يوم..

وفيه عبر خالد ميدانا فسيحا والوقت شفتي والسماء بها غيوم بنفسيجية واهنة معلقة في الأعالي، وحركة ما قبل المغيب تقترب من ذروتها، ومجذوب مشغول عن الخلق بمناجاة السماء، ومثذنة المسجد تتأهب لولوج الليل الآتي، يراها ذات رشاقة أثنوية، من يدري.. ربما كان لهذه الأبنية لغة غامضة تتخاطب بها، تبدي الجدران رأيها بما يجري داخلها، وتتملعل لكثرة ما جرى، ولطول وقفها، فتنهار طواعية، من يدري؟ الا تتألم الأشجار من حزن المنشار؟ وصوت الرياح، هل من

المعقول انه لا يعني شيئاً؟ ونظرات الحيوان، الا تضمر رأيا فيما تراه؟ الا تتألم الطرق لكثرة منحنياتها، وشدة الدهس فوقها، ربما تدري أمه بما لا يعلمه عندما تطلب منه الا يخطئ الأرض بقدميه، فالأرض سبع طبقات، وكل طبقة مسكونة، ولكل منا شقيق بينهم..

وفيه دخن برنق مع عدد من العمال، نفث الدخان بشراهة، قال أحدهم انه صاحب مزاج، قال آخر، يضع سره في أعبط خلقه، لحق بهم الوتيدي، أبدوا ترحيبا به، مدوا اليه الجوزة لكنه اعتذر، انه لا يدخن أبدا واستشهد بالامباي، وهنا سأل أحدهم برنق عن النساء، فقال انه ضاجع عدداً لا يحصى من المتزوجات في هذه الناحية، ضحكوا.. ان برنق يحلم. قال الوتيدي: ما رأيك في الزواج من أجل محرومة بالدار؟ تساءل برنق: من يعني؟ قال الوتيدي: الست رونق مثلاً؟ أو ما برنق: سيحدث هذا.

.. ودخل العشري المحرر العلمي للأنباء، سأل الاستاذ عن أخبار الكون، قال ان نجوما ماتت، ونجوما تولد الآن، انه يطلب السماح بتنظيم حملة صحفية يدخل في اطارها عقد ندوة علمية.. يحضرها كبار علماء الفلك في الشرق والغرب، موضوعها ضرورة البحث عن مكان جديد لكوكب الأرض، ان ما يؤرقه نهاية الشمس المحتمية بعد خمسة آلاف

مليون عام، ستمدد وتنفجر ثم تضمر بعد تلاشي كل التوابع، ويصبح كل من عاشوا ذرات في الفضاء يدخل في تركيب نجم جديد، أو تصير الى عدم، ستختفي الحياة قبل ذلك بكثير لأن البرد الأزرق سيدثر كل شيء، هل نترك الانسان يتلاشى؟ هل يضيع كل شيء؟ تساءل الاستاذ عن الحل؟ قال العشري إنه سيدعو الى تصور مبدئي، ان تصمم قطارات هائلة، تشد كوكب الأرض، تفكه من اسار الشمس، والمضي في أعماق الكون بحثا عن مدار ملائم حول نجم مناسب، هز الأستاذ رأسه، قال العشري انه يود تنبيه الناس، سأل الاستاذ عن مركز الكون؟ قال العشري انه لم يصل اليه بعد..

وفيه أخلي المنزل المكون من طابقين بعد أن أصبح آيلا للسقوط..

وحطت عصافير ثلاثة فوق الإيوان الشرقي للمسجد، وتردد صدى صوصوتهم كأنه آت من دنيا بعيدة غير مطروقة، أو أصدااء عتيقة لرائحة عطر فاحت من رداء رجل دين مات منذ قرون..

وفيه أضيئت نوافذ عديدة مع نزول الليل، وظلت نوافذ مظفاة..

ونشرت الأنباء أخبارا عن سراديب متصلة اكتشفت أثناء عمليات حفر عادية ناحية الشارع الثالث، ذكرت آراء أساتذة وتفسيراتهم، وشغل هذا الناس، وعجز المال الذين يعلمون في الحفر عن تلبية فضول الناس، ما هي الأصوات العجيبة؟ هل عثروا على بلاليس مليئة بالعملات الذهبية؟ هل ستعرض البيوت القريبة للسقوط؟

وفيه وصل الى الأستاذ كشف دقيق يضم أسماء كافة المشتغلين بالتجارة في الآثار، وسرقتها وتهريبها، وتقليدها المتقن، قدر فترة زمنية للاتصال بهم، ثم ضم عدد غير قليل من اساتذة الآثار، ثم نشر وعي الاتجار وسرقة الآثار القديمة، قال الأستاذ لنفسه: ليس ببعيد ذلك اليوم الذي تطرح فيه المومياءات في المزاد، وتفك أقدم المعابد وتصدر الى الخارج.. وفيه تطلع صاحب الفندق القديم المبني على الطراز الايطالي الى لوحة تولوز لوتريك، انها لوحة صغيرة، زيتية، فيها ثلاث نساء يجلسن في مقهى، وعلى وجوههن أسى، وتأمل، ومعنى، انها اللوحة الاصلية الوحيدة في كل المخطط لتولوز لوتريك، يضعها صاحب الفندق داخل اطار زجاجي في مدخل القاعة الرئيسية..

وحكى الحاج علي بأسى للمعزين كيف جاءت النهاية؟ قال ان شقيقه قام من الدكان، وصل الى البيت، لم يكن

مريضا، ولم يشك أي شيء من قبل، فتحت امرأته الباب، صاح أولاده فرحين، فجأة تكوم كالجوال، لم يرد منطق، وهنا استرد صاحب الأمانة امانته، قال ان شقيقه ترك ثلاثة أطفال صغار..

وفيه جاء الأخبار الى الأنباء بأن الدكتور الطنبولي أصيب بنوبة قلبية. لطمت كريمة وقطعت شعرها، وأصدر الاستاذ قرارا بان تتولى رونتق مسؤولياته أثناء غيبته..

وفيه ضحك المعلم الياس عاليا..

وسألت المرأة التي مضى على زواجها عام: الا زلت تحبني؟ هز زوجها رأسه: طبعا، طبعا..

وطفش حفطي من بيته بعد تردد طال امره، وسبق ذلك خناقات، وعندما قال لامرأته انه لا يطيق وجهها، ارتمت فوق الأرض، لطمت وجهها ورطنت بالفرنسية، ظنها تسبه، وجه اليها شتائم تمس الأم والأب، والجد الأول، والجد الثاني، بكّت طويلا لأنه لم يسبق لأي انسان ان اهان والدها الذي مات برتبة لواء طبيب، بعد تاريخ طويل ومشرف في سلاح الخدمات الطبية، صاح حفطي ان والدها لا يعنيه، ان ما فسد لا يمكن إصلاحه، والخرق لا يمكن رتقه، وما تبعثر يستحيل له، سيرسل إليها كل ما تحتاج إليه، لاذ الوالدان بحجرتها،

بكى سمير، تشنج صفوت، سَمَا أمهما ترثي حياتها بالفرنسية،
وسوء اختيار أشقائها ورغبتهم في الخلاص منها لأن بقاء البنت
بدون زواج عار، لكن لا عار يشبه ما تعيشه الآن، زعق
حفطي انه سيقوم بواجبه، لكنها لو تمادت فلن تحصل منه على
مليم الا بواسطة المحكمة، وبعد ان ترى النجوم في عز الظهر،
خرج حفطي يحمل حقيبة ملاپسه، شم هواء الطريق، مشى
خفيفا، طربا، وقال: يا أيام زمان ارجعي. رتب أموره من
قبل، استأجر حجرة مفروشة فوق سطح احد البيوت وسط
المدينة، اشترى راديو، ركب مصباحا قويا، ومصباحا خافتا،
ومرآة في مواجهة السرير ليرى عريه وعري من سيضاجهم،
كانت امرأته تصر على اطفاء الضوء، وتغمض عينيها كأنها
تقوم بمهمة شاقة، ولا تتشنى ولا تنحني ولا تتأوه ولا تنج. في
أول ليلة أكل بمفرده نصف كيلو كباب ورغيف وطبق سلطة
خضراء، اغتسل جيدا، فرد ذراعيه، لعب حاجبيه، تعرى،
لم يرتد البيجامة أو ملاپسه الداخلية، راح يتخذ أوضاعا
مختلفة متأملا نفسه في المرأة، حمد الله لأن الأوان لم يول بعد،
والصحة لم تهن تماما، وما زالت بقية يمكن بها استعادة الأيام
التي ولت..

وفيه توقف النادي بين البيوت المطلة على الشارع
الرابع.. زعق: بنت تاهت يا أولاد الحلال..

وقالت المريضة: مبروك.. جاءك عريس..

وفيه عقد قران عطيات المريضة على محمد أمين الموظف،
تابعت الحارة الزفة، وتأكد الجيران ان الدخلة ستنتهي على
الطريقة الافرنجية، بدت عطيات نضرة، شعرها يصل الى
مشارف الردفين، لا تغيب الضحكة عن وجهها، كأنها
استحمت بزيت اللوز، ثم سرت أخبار بظهور علامات الحمل،
من جفاف ريق، ودوخه، وإشتهاء أكل الملوحة، والبطيخ في
غير أوانه..

واكتشف قنديل الازهري نسخة من كتاب أصل الأنواع
لداروين بين كتب ابنه الأكبر حمدي، حلق مرعوبا، ارتعش
لدقائق، تلفت حوله خشية أن يكون قد راه انسان، كتاب
أعجمي، مصيبة، سكب بترولاً وأشعل نارا، لم يطمئن الا
بعد تفحم الأوراق، ردد: استر يا كريم، أطف يا ساتر.
عندما جاء حمدي صفعه بلا مقدمات، كادت أمه ان تصرخ
مستنجدة بالجيران، ارتقى قنديل الازهري مرهقا، معلنا انه
لو رأى كتابا من كتب العجم مرة أخرى سيخنق ابنه بيديه.
قال حمدي: إنه كتاب مباح، موجود في السوق. زعق قنديل
بصوت مبحوح: المهم الا يكون موجودا هنا يا حمار، وأشار
الى دماغ ابنه..

وسأل فلاح عجوز عن الطريق المؤدية الى الحي السابع..
وأبدى الأستاذ ضيقه لأن جعفر ذكر شدة تعلق الوتيدي
بامه، وعمله الدائم على ارضائها..

ورقد خالد يصني الى أنات الحارة وأصواتها الليلية،
وايقاع تنفس شقيقه اسماعيل..

في القصر القديم أدارت ايثار مؤشر الراديو..

وأغلق مجدي فوزي كتابا،

وقال بعض العجم: لا بد من الانتقال الى المقاومة
الايجابية..

وصلى شيخ المرابطين ركعتين،

وكانت السماء صافية بالنهار، ولم يشعر الناس بالفروق
الدقيقة بين يوم وآخر، ونهار، ونهار، وسافر كثيرون، وحل
بمحطات الوصول كثيرون، واقترب البلشي من الوتيدي
وطلب منه ان يعده بالغناء ليلة فرحه، قال الوتيدي: اذن
سننتظر مائة سنة.

وفيه ايقن الأستاذ ان القطوف دانية، وإن لاحت
صعاب..

شارعان متصلان، يعرف أحدهما بشارع الوتيدي

.. تبدو أثيل في أوله، قطعت حوارى، وأزقة، وأسواراً،
لكن عندما استدعتها روتق اضطربت، اللحظة المناسبة
تقرب، كيف ستجاوب مع نظراته؟ لم تره الا في الجامعة
عندما جاء ليحاضر، اختارها لتعمل في الدار قبل تخرجها،
منذ مجيئها تعمل بمكافأة، لم يصدر قرار بتعيينها حتى الآن، لم
يظهر اسمها على صفحات الجريدة، أبدت امها امتعاضاً، تود
ظهور اسمها لتباهى به على الجارات والقريبات، تنقبض
اثيل اذ تذكر امها، كيف ستواجهها بعد أن يحدث ما يحدث؟
هل ستكشف تغييراً؟ يقال ان بعض اجزاء الجسم تستدير.
تفتح روتق ذراعيها، انصرف جعفر، أربع اثيل بنظراته
وتحجيره، تقول روتق ان الأستاذ راضٍ تماماً عن اثيل، لهذا
حرص على لقائها قبل أية زميلة من دفعتها، اللقاء مهم جداً
والانطباع المتبقي لدى الأستاذ سيحدد امورا عديدة، طلب
منها أن تقوم، أن تلف، أن تجلس، قالت ان القوام رائع، ثم

يجب اهدار الشاعر الانسانية، أثيل إنسانة ممتازة، اسرتها
طيبة جدا.

في هذه اللحظة بدأ انهيار خفي داخل الوتيدي، انهيار
يهدد أشياء طال ثباتها، في البداية كان الأستاذ عطوفا، لكن
نظراته اكتست حدة مفاجئة، حاول استعادة ملامح أثيل، لم
يستطع مع انه يراها يوميا، لا يذكر انها اهتمت به، انه
بحاجة الى قبو لينفرد فيه، لكن الأقية كلها في الخطط
خصصت للأستاذ وحده، ثمة أيدي ثقيلة تدفعه الى اتجاه
غامض، لا يدري ما المراد به؟

أثيل تعود الى بداية الشارع..

في هذه المرة تبدو روتق جافة، شرسة، تعمدت أن
تشاغل، قلبت الأوراق، ودليل التليفونات، رفعت عينيها
فجأة، ثم تقدمت من أثيل، راحت تدس يدها في صدرها
وأخص بطنها، رفعت ذراعها الى أعلى، ضحكت، تذكرت
أثيل رائحة الأستاذ وجسده الأبيض الضخم في عريه كحوت
يسبح في فراغ، تذكرت الرائحة التي صاحبت عبورها من
دنيا الى دنيا، ظنت أن الأمر سيتكرر الآن، لكن الأستاذ
سألها بيروود : اتعرفين الوتيدي؟

سألت، هل أصيبت أثيل بأي مرض غير عادي؟ للحظات لم
تفهم أثيل، ثم هزت رأسها نفيا، تبدو وكأنها مقبلة على عملية
جراحية، وتمر بغرفة التحضير، تتأمل قوائم المكتب القديم،
يقال إن الأستاذ في البداية أحضر بعض قطع الأثاث من
بيت عائلته، ويشير اليها العاملون الآن باحترام، فجأة تقوم
روتق، تحتضن أثيل بقوة، تقبلها بشراة، تمر بلسانها على
وجنتيها، تتراجع، وجهها غامض، ترتعش أثيل، تقوا
روتق: ادخلي..

زقاق المفاجأة..

كل شيء غير مألوف في هذا الزقاق، أبدى الأستاذ
ترحيبا بالوتيدي عندما طلب منه الجلوس ظل واقفا، انه
يخجل لأن قامته أطول، وجسده أضخم، يحاول خفض عنقه،
أصر الأستاذ على جلوسه، لاس حافة المقعد وبدا مستعدا
للقوف فور ظهور أية علامة توحى بأن وضعه غير مناسب.
هل تعرف أثيل؟

زميلتنا.. طبعا.

ألم تلاحظ شيئا؟ كيف؟ هل تهون الشاعر الى هذا
الحد؟ أثيل تحبك، نعم، تحبك، تابع الأستاذ بسرعة، انه لا

منحنى مفاجيء

بدأ البلشي وكأنه يزحف على أربع ..
« ألم أقل لك ، ألم أقل انني سأغني في فرحك قريباً .. »
نظر اليه الوتيدي دهشاً ،
هل تخفي علينا؟؟ لم أعرف والله إلا من اللوحة... ألم
تقرأ؟؟

قرض الوتيدي شفته حتى كادت تدمى ..
« يسر الوتيدي ، وأثيل ، دعوة كل الزملاء لحضور عقد
قرانها يوم الخميس القادم .. » قال البلشي ، انه يذكره
برغبته ، ان يغني في فرحه .. ثم تساءل ، اذا ظهرت الأنسة
المصونة أثيل .. هل يخبرها بأي شيء ؟

الشارع المجاور ..

لا .. لن يحدث ، لن يتم ، لماذا يأمره بما لا يطيق ؟ هل يريد
منه ان يصلح ما ارتكبه هو ؟ لا يصدق انها تحبه ، الالفة
صفته ، ذست سكيناً في قلبه . لو أعلنت عن خطوبة لهان
الأمر ، لكنه عقد قران ، زواج ، لو خطوبة فقط لقبل ، ثم
ينهي كل شيء بعد شهر أو شهرين ، لكنه باغته ، لن يحدث
هذا ولو أدى الأمر الى مفارقة هذا الشارع . بل الخطط
بأكملها ، أليس اختفاؤه يبدو مبرراً الآن ؟ لكن .. لكن الى

أين ؟ لن يكتفي بفصله ، لن يدعه في حاله ، ربما سلط عليه من
لا يقدر عليه ، ربما جعل عودته الى النادي حلاً ، في لقائه أول
مرة به تفتحت طاقات الأمل ، لكن أي مجهول ينتظره لو
حاول الفرار ؟ لو خرج الى أحد الأسوار ربما فقد ملاحه ، انه
منفرد بأزقة وحواري الآن ، وتدور حوله شخصيات ، هل
يفادر بغير رجعة ويختفي من الخطط والمباني والمساجد
والزوايا ؟ الأمر صعب ، « الأنباء » الآن في دمه ، انه يقول
« جريدتنا » ، يرقب النسخ المتبقية عند الباعة ، يقارن بما
تبقى من الصحف الأخرى ، في المبنى يطفئ الملمبات التي
تضيء في وضوح النهار ، اذا سمع خريراً يدخل دورة المياه
ليغلق الصنبور ، يدركه السرور أثناء تواجده بين زملائه
فيرفع صوته « الوتيدي يحبيكم » ، يتذكر حاله عندما كان
خارج الخطط بأكملها ، كان يتهيب الاقتراب من الصحفيين
اعضاء النادي ، يحاول اقضاء الضجة عنهم وتوفير الهدوء لهم ،
يخيل اليه انه لو شاركهم جلستهم فلن يستوعب ما يقولونه ، ثم
يتغير الحال في الخطط ويصبح واحداً منهم ، طلب منه
التنوخي أخبار الأستاذ في النادي ، ضاق في البداية ثم اقتنع
نفسه ان ذلك لا يحوي ضرراً ، طلبوا منه أن يصاحب العمال ،
بدا له تعتمد ذلك منفراً ، لكنه هدأ عندما اقتنع بأنهم
يقصدون حماية الدار ، وحتى لا يتسلل أحد العجم ، عبر

الخطط كلها لم ير الوتيدي أعجيباً واحداً، لكنه الآن يؤمن بأن العجم شر مهول ينبغي اجتنابه، أحياناً يود لو رأى أحدهم، يتوقع أن يرى مخلوقاً خيفاً، ربما له رأسين، أو سيقان الماعز، كل ما طلبوه أزعجه في البداية، لكن مع مضي الزمن لم يؤذ أحداً، ولم يضر انساناً، فهذا منامه، أما هذه المرة فالأمر يختلف، ثم انه لا يعرفها، ولم تبد اهتماماً به، ليحاول إنهاء هذا الموقف بأقل الأضرار، لكن... هل يقبل الأستاذ؟ ان لدغته والقبر، ربما لفق له قضية، العناني لن تنقصه الأسباب، عند وصول الوتيدي هذه النقطة من الشارع المجاور ناشد نفسه بضرورة التعقل، فليبق في الخطط مسافة أخرى بصحبة أثيل، حتى يقع ما لا يستطيع تحديده، يضع الأمور في نصابها، ويعيد الأشياء الى طبيعتها، أما الآن فليحاول أن يداوي الأمور الصعبة بالعقل، وان ينتظر ذلك الجهول الذي يخلصه، من يدري؟ ربما ماتت خلال هذين الاسبوعين ربما جرى أي شيء، لماذا يتعجل الأمور؟ اذن ليرجع بحذر الى شارع.. ربما فسروا اختفائه تفسيراً خاطئاً وما أكثر المشككين والمضللين هنا، عند اقترابه من الشارع فوجيء بالعناني يصيح عليه:

يبدو انك تقعد على اذنك عند اختلاطك بالعمال..

لماذا؟؟

الأستاذ قلب الدنيا عليك

تساءل مكروش النفس عما جرى؟

قال العناني ان ادارة أمن الخطط اعتقلت الأسطي

الخضر عامل الليونتيب...

قبضوا على الخضر؟

أكد العناني ذلك، قال إنه من عتاة العجم، قال الوتيدي

ان هذا مستحيل، انه يعرف الخضر كما يعرف نفسه، انه أكثر

العمال شهامة، لم يبد منه ما يضايق انساناً لا داخل الخطط أو

خارجها، قال العناني: انت اذن من العجم.. اذهب بسرعة

الى الأستاذ، تلك سابقة لم تحدث أبداً في تاريخ الأنباء..

درب النكد

أين كنت؟

أوشك أن يذكر مرض أمه لكن لسانه لم يفلت الكلمات لما

تضمنه من قال سيء، خاصة انها تشكو ضعف البصر وجفاف

الريق وشدة الصداع، ضاق لأنه أوشك على اتخاذ أمه كحجة

يرر بها غيابها، لم يمهل الأستاذ، قال إنه كان يعتبره عينا على

العمال، لكن يبدو انه وضع ثقته في غير محلها، يخاف الوتيدي

حتى لترتعد مفاصله، يبدو انه سيطرد، هل عرف الأستاذ ما

فكر فيه عندما لجأ الى الشارع الخامس؟ لو لمع الى موضوع

أثيل لقبيل الزواج منها فوراً حتى يرضيه، المهم أن تنتهي هذه اللحظة، لا يعرف كيف يجيب الأستاذ؟ بل انه مقتنع الآن بارتكابه خطأ ما، لم يدرك ما هو، لكنه اخطأ وانتهى الأمر، يقول الأستاذ انه يحارب المعجم في الخطط وخارج الخطط، ثم يفاجأ بأن أحدهم تسلل الى الدار، وأين.. بين العمال، لماذا؟ لأن أحد رجاله المخلصين أخطأ، لا تقوت الوتيدي الجملة الأخيرة وصفه بأنه أحد المخلصين، أهو عتاب اذن؟ أهولفت نظرك؟ انه لم يثبت بعد، وليس له ملف، ويقبض مرتبه من رونق أول كل شهر، بإمكانه ان يطرده الآن، ان يضيعة، هو الذي لا يجيد حرفة أو مهنة، يطلب الأستاذ فجأة ان يكلمه عن الخضر... ماذا يقول؟ يود أن يعرف ما سيرضي الأستاذ، لكن من أهم ما تعلمه هنا، من أهم ما شدد عليه العناني أثناء تدريبيه ان ينقل شفاهية بلا زيادة، أو نقصان، أما الكتابة فأمر آخر، وفن يسأل عنه الكولي، المهم.. الدقة الصارمة في الرواية الشفهية، قال ان الخضر كان على خلق، يعرف الواجب، محبوب، له تأثير قوي، غريب على من يحيط به، أية خناقة هو الكفيل بفضها، الكل يسمعون كلامه مع انه ليس أكبرهم سناً، ولحظة دخوله المقهى تتحول العيون اليه ويتنافس الجالسون على استضافته، وفي احدى المرات تأخر طفل لعامل في التجليد، كاد يجن، وغاب الوتيدي ثلاث

ساعات ثم عاد بالطفل، وقيل إنه لف الشوارع كلها، والأزقة، وسأل في نقاط التفطيش، ولم يهدأ حتى عاد بالطفل، قال الأستاذ: انت مخدوع فذلك هو أسلوبهم، لكن الوتيدي أكد أن الخضر كان يبدو طبيعياً، سلساً كالماء، وكان يوصف بأنه يخفف الجراح المستعصية ثبت الأستاذ نظراته في اتجاه الوتيدي حتى تقصد عرقه وكاد يبول على نفسه، انه يريد من الوتيدي الانتباه جيداً، تنفس بهدوء، وانتظمت دقات قلبه، لا شك أنه أخطأ، الرجل صاحب فضل عليه، غير حياته، انه يلوم نفسه لأنه تسبب في مضايقته، يود ان يعتذر، لم يفتح الأستاذ موضوع أثيل، تنتهي المقابلة، تسأله رونق عن الأخبار فيقول ان من ظنه موسى طلع فرعون، تطلب منه ان ينتبه، تسأله عن أخباره الأخرى، يدرك انها تقصد اثيل فيقول بسرعة ان كل شيء سيم خلال الأسبوع المقبل، انها مدعوة طبياً، تطلب منه ان يعتبرها كأخته، فيقول إنها أخت حقيقية، تسأله عن استعداده، يقول إن كل شيء يمكن تديره، تقول انه سيحتاج الى ملابس، الى نقود، يقول ان الإنسان لا يعاني في الحصول على تكاليف الزواج أو الموت، تلوح رونق، أمرت بتقديم سلفة قدرها ألف جنيه، ستقسط على ثلاثين عاماً، بيدي تأثره، تقول ضاحكة انه لن يتعامل مع الطنبولي لمرضه، اغا سيمر على كريمة لانها بعض الاجراءات،

في هذه اللحظة يظهر الأستاذ، يسأله، هل زرت الدكتور الطنبولي؟ أو ما الوتيدي مجيباً، قال الأستاذ، وهل سمعت عن أي زميل ذهب إليه؟ هز الوتيدي رأسه، تتم، انه الواجب، استدار الأستاذ مبتعداً، وخاف الوتيدي مرة أخرى من لهجة الاتهام...

منحنى أثيل

فجأة، رآها أمامه، أراد ان يجنبها حرج اللحظات الأولى، والإتيك المصاحب للبحث عن مفتاح للحديث، قال إنه انتظرها ولم تأت، اظهرت تجاوبا وفهما، حرص على الحديث بصوت مرتفع، انه لا يعرف الهمس، مكالماته التليفونية تسمع من مسافة، ربما انتظر الأستاذ نص الحوار بينها، لأول مرة يلتقي بها، بخطيبته التي لا يعرف اسمها الكامل، يقترب منها البلشي، انه يمقت هيئته، تذكره بقرد مسلوخ، في انحنائه تهكم، عيناه تتجهان دائما الى أعلى لقصر قامته، في أشد أيام الحر يرتدي جاكته، وتحتها صديري، يخيل للوتيدي ان قفصه الصدري لا يكسوه الجلد أو اللحم، قال البلشي ان الآنسة المصونة سألت عنه مرتين ولم يره حتى يخبره، ضغط اسنانه حتى لا يستشف البلشي ضيقه، في هذه اللحظة مر الكولي صاح: «هنيئا لك يا عم»، يجيب الوتيدي:

«عقبى لك يا عم ولو ان الزمن فاتك»، قال الكولي: «أنا أشد منك»، قال الوتيدي إن الجواب يبدو من عنوانه، البلشي بينهما ينقل البصر مبتسما، أثيل كأنها لا تسمع حوار الكولي، والوتيدي، انصرفا، أخيرا أصبحا بمفردهما، شعر كأنه غمس في ماء دافئ، فوجيء بانتصاب عضوه، مما أخرجته، لكن بماذا قصد الكولي عندما هنأه؟ هل حاول التعريض به؟، هل عانق الأستاذ خصرها النحيل وتحسس ردفها المشلثين؟، الغريب ان هياجه تزايد عندما تخيل أثيل مع الأستاذ في أوضاع مختلفة، اتبته الى الصمت الثقيل بينها، استعاد احاديث رواها البعض عن اللقاءات الأولى، لكنه لم يسمع عن موقف مشابه جمع بين اثنين في مثل ظروفها، قال ان الخطط في حاجة الى كازينوهات عديدة، أو مات، قال انه يسمع من المعمرين عن مقامي الخطط في العشرينيات وملاهيها، والمناظر والحدائق، واللون الأخضر الذي كان...، انه يحب الجلوس في النوادي، سكبت، وتذكرت أثيل ما يقال عن عمله خادما وظهوره في صور قديمة التقطها البيجرمي له، يحمل الفوطة لأحد اللاعبين، أو يلتقط الكرة من وراء المرمى، أطرق الوتيدي، أخطأ عندما تحدث عن النادي، قال انه يحب الحدائق، قالت وهي تنظر اليه بشبات: لكنني لا أعرف شيئا عنك..

صوت مجهول ..

قال الإمباي: أين انت .. اتني أبحث عنك ..
قال الوتيدي: كنت في طريقي الى الأنسة كريمة ..
قال الإمباي: رد على التليفون ..

قال الصوت الذي لم يسمعه الوتيدي أبدا إنه صديق،
تساءل، هل يعرف الوتيدي انه مجرد غطاء، الكثيرون يقولون
انه طمع في علاوة، زعق الصوت: «انطق يا نطع». لم
يستطع الوتيدي أن يرد، صوته مرتفع بطبيعته، ربما آثار
فضيحة، لكن ما أدهشه انه أثناء مروره أمام غرفة
التليفونات صاح عليه الإمباي، لماذا لا يجبره بالمكان الذي
يجلس فيه، التنوخي قلب الدنيا بحثا عنه منذ دقائق، قال
الوتيدي، لكنك حدثتني منذ لحظات، هز الإمباي رأسه: لم
يحدث، نظر اليه الإمباي، وجهه محاط بالسَّمَاعَات، هل
تكذبني ما من انسان طلبك اليوم، لا من الخارج أو
الداخل ..

جزء من خلاء غير مطروق

.. يتصل هذا الجزء بالخلاء الموجود في الشارع الثالث،
شارع الوشاية، جاء الجميدي لأن أمورا وقعت ولا يمكنه التعليق

عليها همسا أو علنا، لكنه لم يلتق بصاحبه مفتش الصحة
الذي أصيب بوعكة معوية على أثر تناوله أقة كاملة من
البقلاوة المحشوة بالبندق واللوز أهداها إليه حلواني افتتح دكانه
أخيرا، سحب الجميدي رضوان أفندي كاتب أحد الفنادق
القديمة، وهاو قديم لاصلاح الآلات الموسيقية، ويقال انه
أفضل من يضبط أوتار البيانو، وكثير من الفرق العالمية ترسل
اليه أجهزتها لاصلاحها، بعد توغّلها في الخلاء قال الجميدي
ان الفاجر لا يزداد الا فجرا، خفض صوته، صحيح ان
الخلاء غير مطروق ولن تظهر فيه أية شخصيات أخرى، لكن،
من يدري؟ الحرص واجب، قال ان الرجل الفاجر اعتدى
على بنت حلوة، وظريفة، استنكر رضوان ما يسمعه، وهل
بنات الناس لعبة؟ قال الجميدي ان الأمر عادي الى هنا لكن
عين الفجور انه زوجها من محرر، تساءل رضوان، هل قبل
النطع؟ قال الجميدي ان النطع هذا في حجم فلق النخل،
لكنه كالنملة أمام الأستاذ، بعد صمت شعر خلاله رضوان ان
الجميدي فضفض عن نفسه، قال ان فرقة كبيرة من استراليا
أرسلت اليه بيانو لاصلاحه، يا ترى .. كم يطلب لاصلاحه؟

زقاق التحريض ..

شك، حيرة، خجل، أسى على أيام لن تعود، تساؤل عما
سيأتي به الغد، هذا ما أثقل الوتيدي الذي دخل الزقاق

منحنى ..

وأوله تساؤل، هل كان الوتيدي عدوانيا؟ والاجابة ستأتي في موضعها، لكن الآن يدخل الوتيدي زاعقا باسم الجعيدي، لهجة منذرة، تنبئ بشر، أمسك بعنقه، رفعه بيد واحدة، حرك ساقيه، عيب.. عيب.. أنا أكبر منك، زعق الوتيدي، ان هذا الرجل يدس انفه فيما لا يعنيه، ويخوض في الأعراض، اتسعت عينا الجعيدي حتى استدارتا، لم يدر ما سيفعل به، حرك العناني يده، ألم ينذره من قبل؟ تدلت شفتاه، بدا خاليا من أية نية لدفع الأذى عنه، هرعت نظراته الى كل الوجوه، حتى كاميليا، يرفعه الوتيدي ثم يخفضه ثم يرفعه، تزايد حجمه ضالة، وبدا كأنه الاهانة نفسها، ود الوتيدي لو انه أبدى رد فعل، لو قاومه، لكنه فوجيء بالجسد يتدلى لينا، طريا كخرقة، ماذا يفعل بالرجل وب نفسه؟ عملتها يا وتيدي؟ بينما وجهه يبيدي تعبيرات مختلفة عما يدور داخله، لا يمكنه التراجع، كاد ضيقه ان يدفعه الى مزيد من القسوة لكنه حاش نفسه خرج مبتعدا عن الفضول والشماتة، قبل نهاية المنحنى فوجيء بأثيل، جادة غاضبة، كيف علمت بما وقع؟ قالت إن ما جرى مؤسف، ان الرجل لم يقل عنها ما يستحق، ان تصرفاً كهذا سيثير اشاعات حولها من لا شيء.. لم يعلق، شعر بالحاجة الى الانفراد بنفسه بسرعة..

لمقابلة التنوخي، وعندما قوبل بترحيب، وسؤال عن صحة أثيل انتابه كمد وضيق، خيل اليه ان التنوخي غمز بعينه، سأل نفسه عن مكان أثيل الآن؟ هل تنفرد بالأستاذ؟ هل هي في الطريق إليه؟، قال التنوخي ان البعض ينسى نفسه وأصله، هل تصور ان الجعيدي يشنع بالأستاذ؟ أبدى الوتيدي دهشة، قال ان الجعيدي يشيد بالأستاذ دائما، قال التنوخي ان هذا في الدار فقط، لكن عند اختلاطه بالناس فانه يسب ويلعن.. بل انه يفترى على بعض العاملين الشرفاء، وهذا يؤثر على سمعة الجريدة، قال الوتيدي إن الرجل مخطيء لو فعل ذلك، أبدى التنوخي استنكاره، هل يشك فيما يقول، ثم.. هل هذا رد فعل مناسب لما سمعه؟ توقع ان ينطلق، ان يلقنه درسا، قال الوتيدي إنه لن يحمل صفة، اشار التنوخي، هذا ما يريده، يريد صفة أو صفتين وأكبر عدد من الاهانات على مرأى من كاميليا بالذات، ليتذكر ان الاهانة لحقت أولا بالأستاذ، هل يغفر لانسان يشوه سمعة الاستاذ؟ قال الوتيدي انه على استعداد لعصره وتحطيم ضلوعه، ضحك التنوخي، المطلوب أقل من ذلك بكثير..

مرحاض عمومي

.. الى هنا يستطيع اللجوء بسرعة الآن، أحكم اغلاق الباب، بسرعة فك ملامح وجهه، أرخى لتعبيراته العنان، هنا لن تناله العيون، ماذا فعل الجميدي له؟ عينا الرجل المستسلمتان، الضعيفتان، المهاتتان، آه لو بيكي، لو يخرج ويتجه الى نفس المنحنى السابق ويعتذر علنا له، لكنه تفرق به، لم يضربه كما طلب التنوخي، لكن الجرسه والفضيحة في عينيه، أصر التنوخي على حضور كاميليا، لا بد أن الرجل يضمر شيئاً تجاهها، مهما أبدى من همة في خدمة زملائه فلن ينسى ما جرى منه، لماذا يستجيب لكل ما يطلب منه؟ لماذا يرفض ثم ينثني ويتراجع عند المواجهة؟ ان غما ينفرد به، اسند ذراعيه الى الجدار، شد اذنيه حتى الألم، ضرب صدره، غاص باسنانه في شفته السفلى، شد شعر رأسه، تهدجت أنفاسه، انتظر خمس دقائق، ثم جذب مقبض صندوق الطرد ليوحى انه قضى حاجته، انتظر دقيقة وكأنه يرتدي ثيابه، فتح الباب، يتحقق قلبه مرعوباً، يقف البلشي مبتسماً، يلحظ احمرار رقبته القاني، والفم المسفر عن ابتسامة كطينين الذباب، يقول البلشي ان قلبه حدثه انه في الداخل لهذا انتظر، انه يرجوه المرور على الانسة كريمة..

زقاق ضيق يصعب الوصول اليه

في أوله قدر كبير من الكراهية في عيني كريمة، تبدو متجهمة منذ مرض الطنبولي وأحياناً تبدو فرحة، لم يدر انسان حقيقة مشاعرها، اجابها الوتيدي بانه سيتزوج بعد اسبوعين، انه يحجل عندما يفضي بالخبر الى احدى الزميلات كأنه كان المفروض ان يتزوج بمحدثته ثم أخلف وعده، يتذكر ما يقال عن كريمة، منذ أيام رفضت شاباً محترماً لأنه ليس خريج التجارة شعبة المحاسبات، تتحرك لديه رغبة في المداعبة ازاء حديثها، يقول إن الأمور هانت فلن تمضي أيام الا وسيجمعها عش واحد، تسأله، هل أمنت على البيت؟، هناك اخطار عديدة، ربما انفجرت انبوبة البوتاجاز في وجه ائيل.. صحيح اذا حدث ذلك هل سيتزوج اخرى؟، لا يريد الوتيدي، تقول انها متشائمة من هذه الزيجة، تقف بمسكة دفترها، لو ان الدكتور الطنبولي هنا لما استطاع صرف ملهم واحد، تقلب أوراقا، وملفات، ومظاريف، تنظر اليه، حدة، كراهية، ألف جنيه؟ مرة واحدة؟ ما ذنب الدار؟ لقد اخطأ الأستاذ في هذا القرار، كم من قرارات خاطئة بعد مرض الطنبولي، انه يوقع فقط لكنه لا يشعر بمدى الفراغ الذي يحدثه خروج مثل هذا المبلغ الى جيب من لا يستحق!

امتداد الشارع الرئيسي

مع قرب انتهاء الشارع أصبح الوتيدي يظهر عكس ما يظن، ليس في الأزقة والحواري فقط، إنما في غرفة نومه، يسألونه عن رأيه في الزواج، كأنه أول وآخر المتزوجين، يقول من وراء القلب إنه نعمة من نعم الدنيا، سارت الأمور على عكس ما أراد، منذ أيام الخطوبة القصيرة أدرك أنها لا تطيقه، قالت إن حجمه ضخيم وملفت للنظر، طلبت أن يتحدث بصوت منخفض، في الأسبوع الأول تمنعت عليه، صارت تبكي وترتعش كلما هم بالاقتراب منها، في منتصف الليلة الثامنة دخل الحجرة ليجدها عارية تماما، رأسها تتوسد ذراعيها، قالت: تفضل، خاب المرة تلو المرة، لكن الطبيب قال إن ذلك طبيعي، والذين أطلقوا عليه شهر العسل ضحكوا على العرائس، بعد أول مرة تمدد صامتا ولم يدر ما يجب قوله، تذكر ما قاله زملاؤه عن غشاء البكارة أثناء دراسته الاعدادية، إفاضتهم عما يجب اتباعه حرصا على راحة العروس، الغريب أنها لم ترتبك ولم تبك ولم تفه باب الرجل الأول إنما أدارت ظهرها وشعر بأن عينيها مفتوحتين طال صمت، دخل دورة المياه، ماذا يجب أن يفعل؟ هل يخرج زاعقا؟ هل يستدعي أمها ويشرح الأمر؟ أم يصارح بضرورة إنهاء حياتها؟ صاغ العبارات اللازمة لكل موقف

لكن كيف سيكون رد الفعل في الأنباء؟ لكنه لماذا يتجاهل التليفونات التي طارده؟ والجو المريب في الدار؟ ترى.. كيف تم ذلك؟ أين؟ في أي غرفة داخل الخطط؟ أو ثوب كانت ترتدي؟ كيف تجردت من ثيابها؟ أي انفعالات تعاقبت على وجهها، هل ظلت جامدة كما حدث معه؟ فوجيء أنه يحاول تخيل متعتها. هل يخبر أمها؟ لكنه يكرهها، تضع الكحل طبقات، وأحمر الشفاه الفاقع، صباح كل يوم، لديها مفتاح الشقة، تدخل مباشرة، تسأل.. فطرتم؟ تستفسر عن أصناف الطعام التي ستقدم في الغداء، تأمر بتغيير وضع المقاعد، تشير إلى الأركان الخالية، تذكر بالاباجورة التي يجب أن توضع هنا، أو الصورة التي يجب أن تعزى هناك، ودولاب الفضية بالذات دولاب الفضية، كيف يفتح رجل بيتا بدون دولاب الفضية؟ ثم تقول: انت بخيل.. معك سلفة الأستاذ التي صرفها لك، ماذا تنتظر؟ ثم تخلو بأثيل وتهمس وتحرص على تحريك يديها لتسمعه وسوسة الأساور الذهبية، وكأنها تقول: «هات لزوجتك مثل هؤلاء»، إنه ينظر إلى وجهه في المرآة المعلقة فوق الحوض، من الذي رتب هذا كله؟ ربما لم يأخذه الأستاذ من النادي إلا ليزوجه بأثيل، فكر أن يدع الليلة تمر، أن يناقش الأمر مع نفسه غدا، عند عودته إلى حجرة النوم قالت له، ارتد ما يستر جسدك، انني لا أطيق منظر

الجسم العاري، أصفى الى تنفسها، الى أصوات الليل البعيدة، فكر في أمة التي أحكمت إغلاق الباب منذ ساعات، انتابه أسى، طوال عمره ينام فوق سرير ضيق لا يكاد يتسع لجسده الضخم، لكنه لم يشعر بالوحدة كما شعر بها في ليالي رقاده بجوار أثيل، في اليوم التالي أيقن ان الألوان الحاسم فات، وأنه كان من المفروض ان يضارحها في نفس اللحظة، التقى بها عند الظهر، بصحبته كاميليا، سأله عن ميعاد عودته، قال إنه لا يدري، جزعت واستفسرت عن المكان الذي سيأكل فيه، تعجب من اهتمامها، ورقتها، وقال إنه اعتاد دهرًا على أكل السندويشات، مالت الى الأمام وقالت بدلال، إنها ستعد له وجبة شهية في المساء تعوض بها ما فاتته طوال اليوم، قالت كاميليا «يا بحتك يا عم»، فرح للحظات، رقة لم يألها، ربما كان صمته هو الذي أدى بها الى ذلك، ستعيش بقية عمرها تحفظ له الجميل، جنبها حتى الشعور بالمرح، في المساء اشترى صينية كنافة، صفر وغنى وقرر ان يقبلها عند رؤيتها، لكنها كانت نائمة، طلبت منه الا يفتح النور ثم علا شخيرها، كظم ضيقه، في ساعات الليل المتأخرة يتودد، تبدو ثلجية، تفسح ما بين فخذيها وكأنها تتثائب، ثم حدث ان قضت إمامها ليلة عندها، في تلك الليلة سمعت هي اليه، ارتبك من المفاجأة، حتى أوشكت خيبة الأيام الأولى ان تلحقه، أبدت حرارة

زائدة، قبلته، مررت اناملها على عينيه وشفتيه، أصرت على الاستحمام فور انتهائهما، مشيت بخطوات مسموعة تبحث عن الفوطة، عن الشيش، نام راضيا وحمل نفسه مسؤولية جودها، لكن الأمور عادت كما كانت بعد انصراف أمها، ادارت ظهرها وتركته أرقاء، مهدا، عندما زارا أمه همست، انها تريد الآن، أبتسم ليمرر الموضوع، لا يتصور نفسه عاريا على بعد اشبار من أمه، قالت مداعبة، انها ستكون من أجل المرات، قل لها إننا مرهقين ونود التمدد قليلا، اثناء خروجها الى الحدائق الكبيرة جلسا تحت شجرة، خلف حشائش واغصان متشابكة قبلته بشراهة، اضطر الى أن يبعدها عنه، ليس هنا... ليس هنا، في أيام خطوبتهما كان يستشار بشدة لمجرد جلوسها اليه، الآن تمنع عليه، ترتدي أحيانا قمصان النوم المثيرة ثم تنأى عنه، ظن نفسه ينفّر لها، وها هي تتعالى، وتتفضل عليه، أما كلام الناس فلا ينتهي، الآن يبقى في الدار حتى الثانية صباحا، غما اليه ان أحدهم تسأل عن الوقت الذي يقضيه مع أثيل، حتى؟ لم يبال، لم يستقص مصدر الكلام، يقطع نهاية الشارع وهو يرثي لنفسه، يفكر في زيارة أمه لكنه يخشى أن يسبب لها فزعًا، في باب البيت الآن متراس كبير، وسلسلة تربط الباب بالجدار حتى ترى الطارق قبل ان تضطر الى فتح الباب كله، أصبحت

عجوز وحيدة، تنتظر الموت وزيارات ابنها الوحيد التي تقل
كلما طالت المسافات الزمنية، ان ما بينهما يهدده الوهن، أما ما
ينتظره مع أثيل فلا يريجه، ولا يطمأنه، ينظر الى الشرفة،
النوافذ مغلقة، هدوء، كثيرا ما تأمل الستائر المسدلة،
والأضواء، وأصغى الى الضحكات، وتمنى البيت
والاستقرار، لكنه لم يدر ان الجدران تخفي ما تخفي..

قبو خفي

.. يمضي الزمن فأسفر عن طويتي، ويقل اكتامي، أقطع
المسافات وهمتي في صعود، ونجم من يناوئني في خسوف،
أخصب كل شر، أرعى الأذى، وما أردده خفية سيصبح على
ألْسنة الناس غدا، عندما يصبح العدو صديقا، والمحتمل
حليفا، تظهر البدع بلا خجل، يتبدل القوم، يتبدل الظاهر
والباطن، ما يرى وما لا يرى، يسب آخرهم أولهم، ويسب
أولهم آخرهم، يظهرون العذر، يجهرون بالمنكر، يضيعون
الامانات يؤكدون الخيانات، يصبح الجواسيس الذين نشر بهم
الآن في عداد القديسين والشهداء، يسرفون في الفواحش
ويتباهون بالمعصية، تنشأ الأوسمة لكل خسيعة، وترصد
النياشين لمرتكبي الجلييلة، ويمنع القاء البذرة في السبخة،
تتوالد المعاسي، ويرحل المعروف فلا يأمر به أحد، ويفشو كل

منكر فلا ينهي عنه أحد الا عوقب، أرى خاصتي يبتهجون
عند سماعهم أخبار الايذاء، فرحة العناني بتعذيب الخضر لا
تقدر، العناني أخلص من فهم المراد، وأدرك الغايات، لكن
ليس لديه سعة أفق التنوخي وتنوع شروره، يصلح العناني
لتولي أمور الأمن في الخطط، له قسوة القتلة ودهاء اللصوص
وحنكة الجلادين، متعته ان يخرب بيتا، التنوخي عماد الأنباء
بعدي، معتنق كافة الاتجاهات، فاجر في نفاقه، صادق في كل
نقيض يضاهي نقيضه، اذا أرادوا تغيير الأنباء بعدي
فليهدموا الحجارة ان استطاعوا، انها منبشة داخل أرواح
عديدة بلا حصر، زرعت مقاصدي خفية بين الناس، حيث
أحكم قبضتي لا أمان لبشر، ما من مهرب أو تراجع عن قرار
مفاجيء، ليس بالنسبة للعاملين في العلن، انما الساعون في
الحفاء، سبعة يتصلون بي، كل منهم يتصل بسبعة، كل من
السبعة يتصل بسبعة، كالعروق والشعيرات في الأنسجة،
موجودة لكنها لا ترى، كحركة الخلايا، دائمة لكنها لا ترصد،
يسقط حجر فوق رأس يتصادف مرور صاحبه، تزل قدم عند
حفرة لم يرها البصر، يلتقي صديقان، فجأة في بلدة نائية،
تلك الصدفة اللامرئية، ما بين الظل والأصل، يجب النفاذ
الى القوانين الخفية والتحكم فيها، تحويل الزمن الى قوة، الى
طاقة للاغتيال، توظيف المصادفة وليس خلقها، أستقصي

الأثر، أضمر الفصول، وأظلم بمنجى، كان الخضر انبع عمال
 الليوتتيب، كان شها، يد العون الى المحتاجين، محبا لطفليه،
 يتوق الى هدوء البيت، في صباح الجمعة يستيقظ متأخرا،
 ويصيح مع ولديه، يداعبهما، عرف عنه ذلك، وهنا أخطأ
 العناني اذ نسبته الى المعجم، لأن الناس سيقولون، كان انسانا
 حقيقيا.. هل المعجم مثله؟، ما يواجهه الخضر الآن لم يخطر
 على باله أبدا، ولم يتخيل انه سيجري له في حياته، من لا
 يعرفهم، من لم يلتق بهم، وجهوا اليه الأسئلة، صفوه ونفخوه
 بطنه، واستفسروا منه عن أسماء لم يسمع بها، قد يكون تعذيرا
 مصدر راحة لشخص لم يره أبدا، كيف سيدو الخضر بعد
 سنوات؟ كيف ستكون صورة أثيل في الضواحي؟ الى أي
 موضع في الخطط ستجبه ابنة الجعيدي؟ قد يبدو البعض
 بنأى، لكن ما من انسان بعيد، وما من حدث بمستحيل
 التنوخي يستقصي أخباري ويدس ضدي، والوتيدي يرتجف
 لأنه يشي بي، التنوخي على دري، حتى وان أظهر انه ضدي
 يقول فلاسفة المعجم ان كل شيء يتغير، هذا صحيح، و
 اعلنت خلاف ذلك، لكن ما أعيه ان التغيير لا يتم تلقا
 تثبت الأوضاع بمقدار ما يبذل من جهد لتثبيتها ولكن ا
 الى الأبد، وتغير الظروف بمقدار ما يبذل من جهد لتغيير
 الى الأفضل دائما والنتيجة تدوم بمقدار ما أنفق من عرق

الوصول إليها، يقولون بحتمية العدل وانتصار الضعفاء
 والمذبذبين وأقول أليس هذا إيمان بغيبية، لماذا لا يكون المحم
 هو زوالهم، يشط بي الخيال أحيانا فأرى أقاويلهم مجهولة، لا
 تعرفهم السنوات التي لا تزال في رحم الغيب، ألم تندثر ثورة
 سبارتكوس؟ ألم يباع الزنج بعد تحررهم وإقامة دولة استمرت
 أربعة عشر عاما؟ ألم تستمر ثورة بابك عشرين سنة؟ ألم يلعب
 عمر بن عبد العزيز كالبرق ثم رحل؟ يمضي الزمن في حلقات، والمهم
 من يخلق الدورة؟ بيدي أصحاب المصالح انزعاجهم من خطط
 العهد الجمهوري، بناء الصناعات وتشيد الخزان الكبير
 وتغليب العمال على أصحاب الأعمال، والاستيلاء على الأرض
 والأموال؟ أقول لماذا الانزعاج، لماذا لا يكون ذلك أول
 طريق ينأى بنا عن المعجم تماما ويقطع دابرهم من الخطط؟
 لنصبر ونرى ما سيصير اليه العهد الجمهوري، كل ما يقولونه
 نفسح له الصفحات ونغلق دونه القلوب، نسدد الخزانات
 المدببة في المواضع التي تغفل عنها العيون، حتى يلوح المقتل في
 موضع لا يخطر على بال بشر، لو خرجت الآن من قبوي
 وأعلنت ما أخفيه لرجمت وذبحت، وغاب أثري، وضاع
 خيري، لكنني أخفي وأتخفى، خططت بيدي أن الخزان
 الكبير معجزة العصر، لكن مقدار ما يبذل فيه من جهد لن
 يصل على حقيقته الى الناس، يوما ستبدو فوائده كوارث

ما حقة، وربما حوكم من فكر فيه، لن يتحمس الذين عاصروه، ولن يرد الذين شاركوا في أقامته، كم في الزمن من عجائب، وكم تبدل الأيام ما يظنه قصار النظر ثابتاً، ويعتقد ضعاف البصر انه مستعص على التغيير والتبديل، نفس الحروف تشكل كلمات المديح والسباب، ما يراه البعض مستحيلاً أراه ممكناً، ولست بمفردي، حلفائي مجهولون، يرتدون القبعات في مدن نائية، يجلسون في مباني زجاجية الواجهات في مكاتب أنيقة، يحملون حقائب لا تفتح الا لمن يملكها، أعضاء في مراكز علمية، وهيئات اقتصادية، صحفيون أعرفهم، وكتاب لم أرهم، ومفكرون يدرسون سبل الفرقة بين العجم، وضباط وجنود يرباطون على حدود الخطط الشمالية، لو بحث.. لو أخبرت عن عدو اليوم الذي أراه صديق الغد لولّى أقرب الناس مني خوفاً، ولازدادوا رعباً، لكنني أرقب بثاقب البصر زمناً آتياً، وأقول ان الأيام حبالى بلدن كل عجيب..

نقطة تفتيش..

عند هذا الحد من الخطط اقيمت نقطة تفتيش كبرى ضمت عدداً أكبر من الضباط والجنود، ضباط وجنود يرتدون الزي الرسمي لادارة أمن الخطط، وآخرون يرتدون الملابس المدنية، كان السؤال المطروح على كافة الشخصيات..

ما هو المولود الأشد من أبيه؟

تفاوتت الاجابات، لكن تم حجز سبعة أشخاص تتفاوت أعمارهم، أجابوا بالمضمون التالي في صيغ مختلفة:

انه الحديد الذي ولد من الحجر..

لم يعرف مصيرهم، أو الجهة التي اقتيدوا اليها، وهل سيظهرون في الخطط أم لا؟ لكن قلة محدودة جداً أملت بالسبب الذي احتشد من أجله رجال الادارة، اذ انهم تلقوا تقريراً في المقر المركزي الذي لا زال موضعه مجهولاً في الخطط، أعد بعد استطلاعات دقيقة شارك في اعدادها أكفأ ضباط الادارة، وعدد لا يحصى من المصادر التي لا يرقى اليها الشك، وأجهزة أمن عالمية يقوم بينها وبين ادارة أمن الخطط تعاون وثيق، وعلى رأسها وكالة المخابرات المركزية، وروجع التقرير بواسطة أجهزة الكترونية متقدمة لم يعلن عنها، يقول التقرير ان طفلاً ولد في شارع المفاجأة، وان هذا الطفل سيكون له شأن خطير في الخطط، وانه سيفير أسوأ كثيرة طال ثباتها، وانه سيرفع الظلم الواقع في سائر أنحاء الخطط.

السور الخامس..

في أوله وجهت عدة نداءات الى آباء وامهات الأطفال
الذين ولدوا في شارع المفاجأة، وذلك لتطعيمهم، ولتدوين
بياناتهم..

وزعق رجل:

بنت تاهت يا أولاد الحلال..

وفي صلاة المقهى القديم قال المعلم الياس إنه لا يرغب
العودة الى البيت. قال كرشو: المعلم الياس يضيق صدره، هل
هذا مقبول؟ قال: قوموا بنا. قالوا: الى أين؟ الى أي مكان.
يا رجل دعنا لحالنا، عندنا بيوت وحريم وعيال.. ابقوا معي،
يا.. المسألة فيما يبدو جد، اذن.. الى أين؟. الدكاكين تغلق،
وعربات الكارو هاجمة بدون دواب، يجيء غناء من بعيد،
غناء قديم، يصيح المعلم الياس.. يا سلام، ها هو الغناء
الحقيقي، يضحكون، كل ما يقوله يثير لديهم الضحك لأنهم لا
يتوقعون منه الا الدعابة، مشي بينهم ضحكا، طول بعرض.
بياض شامق وشعر أسود غزير، لو أدرك عهود الفتوة لصال

وجال بلا مانع، قال شحاته أفندي لنفسه انه لم يذهب الى طبيب أبدا، في طفولته كان افطاره كوب من السمن البلدي وعشر بيضات، وعسل نحل جبلي، جاءت أكواب الشاي. وفي الواحدة صباحا قال إن الدنيا فيها الكثير مما يجب أن يراه الانسان، قبل أن يعلق المعلم كرشو ساخرا، ظهر رجل قصير، ملامحه صينية، يتحدث العربية، ويبيع نوعا من السبح دقيق الحبات، يعرفه أفراد الجماعة كصديق غامض للمعلم الياس. يومىء أحيانا ثم يمضي، أو يتوقف ناظرا اليه في صمت، الليلة لم يتوقف انما قال بصوت مرتفع أثناء مروره، قلبي مع المعلم، قال الياس: أمامي سفر طويل، تسأل شحاته أفندي عن الحكاية؟ وقف الياس، قال انه سيركب حنطورا ويمضي الى النهر، لن يضغط على أحدهم للذهاب معه، قال شحاته إنه سيصاحبه، منذ العهد الملكي للخطط لم يعيش هذه النزوات المفاجئة، قال كرشو انه لن يتخلف، ركبوا حنطورا يحمله حصان هزيل، يقوده حوذي قصير، ضامر الاكتاف، لم تبد ملامحه في الليل، طلب المعلم الياس ان يلوحوا بأيديهم لأسلاك الترام الممتدة في الفراغ، صاح عند مرورهم أمام ادارة الإطفاء «حيوا رجال المطافئ لولاهم لا احترقت الخطط منذ زمن، ردد شحاته، لا تخافي، لا تخافي، نحن رجال المطافئ»، قال كرشو ان هذا النشيد كان يردده على مسام

من امرأة تطهو على موقد غاز، في الميدان القريب من النهر توقفوا أمام دكان لبن، طلب المعلم الياس من البائع ان يأتيهم بما عنده، أكل كرشو زبدية. وأكل شحاته طبق مهلبية، ثم علق قائلا انه لم يذق لبناً كهذا منذ العصر الملكي، قال كرشو، كف عن ذكر العصر الملكي والا سنجد أنفسنا في المعتقل، ما له العهد الجمهوري؟ قال صاحب الدكان، هل صحيح ان هناك مرض خفي في الخطط لهذا يصرون على تطعيم الأطفال، لم يرد عليه أحد، لاحظ شحاته ان المعلم الياس يقطع الوقت وكأنه في انتظار شيء ما، توقف الحنطور عند النهر، في السماء غيوم مع ان الزمن صيف، بعد صمت دقيقتين، قال كرشو.. خلاص يا عم.. شفت النهر؟، قال الياس إنه سينزل لقضاء حاجته، بدأ نزول الضفة المنحدرة باتجاه مرسى قديم مهجور، تلاشى الجسد الضخم في العتمة، أصوات العربات تصل الى هذه النقطة كأنها صادرة من عالم آخر، أضفى الليل والنهر لون الحلم على سائر الموجودات، زعق شحاته وزعق كرشو، يا الياس.. يا معلم الياس. لم يجيبها. جاء جندي نحيل، طويل، شرحا له، أضاء مصباحا يدويا، استدار صامتا، لاحظا بدهشة انه يرتدي بنطلونا قصيرا، وحذاء بكعب مرتفع، زي غريب عن الخطط، اتجها الى الحنطور، لم يجدا الحنطور، هل ذهب المعلم به؟ هل دبر

مقلبا، بدأ الفجر يشق الليل يبهت ومعالم المدينة تولد من جديد.

وفيه التقط الزعزاعي تفاصيل الحادثة من قسم البوليس الخاص بالسور الخامس، لغز اختفاء المعلم. هذا ما نشرته الأنباء..

بعد أيام سبعة نشر خبر العثور على جثة رجل يرتدي الملابس البلدية بالقرب من الضواحي..

نشر في اليوم التالي أنها لتاجر من جنوب الخطط، قتل سداداً لدين دم قديم..

وفيه صدم رجل كان يقود سيارة زرقاء اللون امرأة عجوزاً كانت تعبر الشارع. لم يتوقف، لم يستطع انسان التقاط رقمه، لم يعرف اسم المرأة، أو الجهة القادمة منها. كانت تقبض على كيس به عشر ليمونات، وخرقة قديمة ملفوفة بها أربع عملات معدنية صغيرة، راح خبرها وانتهى أمرها..

وفيه دب ذعر عظيم بين آباء وأمهات الأطفال الذين ولدوا في شارع المفاجأة، وبدأ أمرهم بتعرض بيوتهم لكبسات من ادارة أمن الخطط، يقصد حصر المواليد، وتدوين أوصافهم، والتقاط بصماتهم، ومراجعة شهادات تطعيمهم..

وفيه عظم الحدث، اذ ظهر الموت بين الأطفال الذين

ولدوا في شارع المفاجأة، وخلال فترة قدرها أسبوع، كانت الأعراض واحدة، من رجفة، ثم ارتفاع في درجة الحرارة. وانتقال سواد العين الى بياض. ولم تشر الصحف الى الأمر بسطر واحد..

ثم سرت اشاعات غامضة ألقت الرعب المهول في القلوب، فحواها ان الطعم الذي جفن به الأطفال كان فاسدا..

وأطال شيخ عجوز ضرير التحديق الى طفل مريض، تعلقت به عيون والديه، الأب بستاني عجوز من أقصى جنوب الخطط، والأم التي وشت ذقنها وجبهتها، قال الشيخ: ما اسمه؟ قال أبوه: سليمان. قال الشيخ: لفوه في خرق سود، واذا طلعت عليه شمس يوم الجمعة المقبل سيعيش. لكن يجب ان تنجوا به..

وفيه مات تاجر لعب أطفال بالشارع الخامس. أغلق دكانه، وترددت أقاويل عن ثروته لكن دهشة دهمت معارفه، اذ انه أوصى بما يملك لإطعام القطط والكلاب الضالة، وبذر حبوب القمح فوق قباب المساجد لإطعام العصافير المهاجرة في الشتاء، شق ذلك على سيدة تمت اليه بصلة رحم، شربت مبيداً حشرياً، لكنهم انقذوها في اللحظات الأخيرة..

وفيه شددت ادارة أمن الخطط حملتها على العجم، وذلك

لظهور منشورات سرية تتهم المسؤولين في الادارة الصحية
بالاهمال في فحص الأمصال الواقية والتي طُعِمَ بها الأطفال
المواليد...

واشتد الأمر في المعتقل، نوع العذاب، وأمطرت السماء
كأفواه القرب، وبقيت نوافذ العنابر مفتوحة، متقابلة لا تدفع
بردا ولا تحوش أذى، وجرى الضرب في أوقات متفرقة،
علت أنات ألم، لكن لم تقلت صرخات الا فيما ندر، ولتكرار
الضرب اعتادت الأجسام تجنب نزول العصي الغليظة على
العينين أو الرأس، وهذا ما علمه رمزي للخضر الذي وصل
أخيرا، لم يسبق لأحد معرفته، ظنوه في البداية مدسوسا
عليهم، لكنه احتمل ما احتملوه، بل ان الضابط المناوب
خصص له جنديين غلاظ القلب، أوسعاه ضربا مبرحا،
وزعقا في وجهه، اذا لم تكن أعجميا فلماذا لا تسب العجم
وتنفذ بجلدك، لكن الخضر عد ذلك منافيا لما طبع عليه،
وسأله منصور عامل المطبعة القديم في الليل، لماذا لا يستنكر
ويخلص روحه من الهول؟ قال الخضر: ولماذا لا تفعل أنت؟
قال: لأنني من العجم، قال الخضر: انني لم أكن أعجميا،
ولكن لن يجبرني انسان على قول شيء غصبا.. ثم كيف انكر
ما لا أعرفه؟ في مرة أخرى قال للدكتور صبري: لم أسمع عن
العجم إلا كل منكر. لكنني أراهم أشداء. يجبون الخير

للناس. يتحملون في سبيل من لا يعرفونهم ومن لم يعرفهم،
قلوبهم جسورة على المشاق والآلام، ما هي حكاية العجم
بالضبط؟

وفيه اجتمع الأستاذ برجل من أقصى جنوب الخطط،
عرف عنه إجاره الواسع في الآثار القديمة، ومعرفته بمواقع
غنية لم تكتشف بعد..

وقامثل الدكتور الطنبولي للشفاء، نقص وزنه، وشحب
لونه، وتقدد جلده، وبدا على وجهه تعبير غريب، ولم يزره
أي انسان من الأنباء، وسر الأستاذ لذلك سرورا عظيما، لأن
عدم الوفاء تغفل وأنيع، أما الخضر الذي عاده مرة واحدة
فلم يعد حرا.. ومن الأمور الخفيفة، اللطيفة التي شاعت
بالدار، ان كريمة سكرتيرة الطنبولي ستدخل دنيا أخيرا،
وتفصيل ذلك، ان شابا حاصل على بكالوريوس تجارة تكلم في
أمرها، لكن المشكلة انه متخصص في ادارة الأعمال، لهذا
رفضت في البداية، ما تريده هو تخصص الحاسبات، لكن أمها
لطمت، وتشنجت وضربت رأسها بالأرض، لو أفلت هذا
العريس فلن تعرف طعم أي رجل، قيل ان الشاب انزعج
لرفضها فتردد كثيرا على الدار، تحمل سخافات البلشي،
ونظرات برنق، انتظر مرات عند الناصية، شوهدت كريمة
تدلل، تتجاهله، تشيح عنه، غير انها قبلت في النهاية، بعد

أن اشترطت أثاثاً من ثلاث حجرات، ومطبخاً حديثاً ونجفة من دورين في الصالون، ونجفة من الخزف في صالة الطعام، وإضاءة غير مباشرة في غرفة النوم، وسجاداً غزير الوبر. لوحظ أنها رقت حاجبها، وتفتت شعر ذقنها، وضربت شفتيها بالأحمر، لكنها لم تكف عن ترديد العبارات المزعجة والملاحظات الجارحة. وتنبأ البعض أنها بعد الدخلة ستهدأ وترق...

وكثر الكلام عن الحزان الكبير، وصفته الأنباء بأنه أعظم أمجاد الخطط منذ تاريخنا القديم، كتب التنوخي أنه أضخم انتصار للعهد الجمهوري، وأنه أول الطريق إلى تحرير الأراضي الشمالية. وأنه قدر جيلنا...

واجتاز أبو ستة المدخل فنقره البلشي عينا، لاحظ الملابس الجديدة التي يرتديها، البنطلون الواسع، والحذاء البني الأنيق والساعة الجديدة. وبالرغم من العناية الواضحة في غسل وجهه، وتمشيط شعره إلا أن الإفراز بدا وكأنه يأبى مفارقة عينيه، ما غاظ البلشي تلك الأهمية البادية على ملائحه، وتجاهله له حتى أنه لم يومئ...

وفيه قويت الاشاعات بأن العهد الجمهوري سيجري تنظيمات جديدة وجذرية في أوضاع الصحافة، وأنه آن للأوضاع المستمرة منذ العهد الملكي أن تتغير...

وفي النصف بعد العاشرة طرق باب الجعدي، ارتفع نبضه وغزر عرقه، استعاذ بالله من المفاجآت. من؟ فتوات مأجورون؟ ضباط مباحث؟ مندوب من الجريدة يستدعيه، صاحبه يستدعيه إلى مطعم جديد لكن طارق الباب كان الوتيدي، ارتاع الجعدي، كاد يفلق الباب خوفاً، ومقتاً، لكن خجلاً منه، كما أن ملامح الوتيدي المتعبة طمأنته، بدا أنه لا ينوي الأذى، قبل جلوسه إلى أحد كراسي الصالة العارية من أي غطاء، قال.. سامحي على ما ارتكبته في حقك..

وهب قنديل الأزهري من نومه، صاح هاتف عليه، صوته كأنه قادم من أعماق جب. قعد مرعوباً في فراشه محاذراً أن يوقظ امرأته، أو يخبرها بما زعق به الهاتف الذي يجيء إما محذراً أو منذراً ثم يمضي فلا يترك أثراً، أو صدي، اللهم أجعله خيراً، أخبره أن ابنه حمدي سيقاسي شدائد ومحنًا...

وفيه طلع شمس يوم الجمعة، فنطق البستاني المعجوز وامرأته بالشهادة، التنفس ضعيف والجسد بارد، لكن الروح لم تفارق الجسد، كان عليها الإقدام على العمل الصعب، الشيخ الضريع أمرها بأن ينجياه من الهلاك، ماذا يفعلان وسليمان جاءها بعد أربعين عاماً من العقم المتصل حتى أن حمل أمه عد من الخوارق، بعد انقطاع كل أمل، بعد استشارة

الشيخ الضرير لف سليمان في شال أسود قديم، وبعد دمع طويل جرى من عيون الأم والأب، جملة وسافر لمدة يومين في قطار بطيء الى أقصى جنوب الخطط، وفي اليوم الثالث وصل الى قريته الصغيرة الواقعة قرب سفح الجبل العظيم والذي يضم منطقة الخلاوي التي يضع كل من يحاول اجتيازها، أو الزج بنفسه فيها، أسلم ابنه الى شقيقه وهو راعي ماعز يصغره بعامين، يعيش مع امرأته وابنتيه، وبعد سبعة أيام عاد البستاني العجوز الى امرأته، ذهبا الى الشيخ الضرير، فقال لها ان سليمان في أمان عظيم.

وفيه فشا الموت المهول في مواليد الشارع الخامس، وعلا الصراخ من البيوت، واضطر حانوتي الخط الى الاستعانة بزملاء له من نواحي أخرى.

وفيه أوضحت المعلومات المتوفرة لدى ادارة أمن الخطط، أن كافة مواليد المكان والزمان المحددين فتك فيهم الفناء، وان الطعم أثمر، ولم يتبق إلا ثلاثة أطفال... وفيه أوضحت المعلومات ان سائر المواليد قد أبيدوا عدا واحد..

وجرت كبسات مفاجئة، وتم تحقيق في أثر تحقيق مع الشكالي، واستدعي البستاني العجوز مرتين، فبكى، وأكد انه

دفن ابنه بيديه هاتين..

وأكدت الاحصاءات والعقول الالكترونية ان طفلا واحدا لا زال يعيش..

ولكن المسؤولين في الادارة تشككوا في ذلك، وأكدوا الهمة العالية في تنفيذ الخطة..

وفيه حصل العناني على عدة عناوين لبعض العجم المقتلين، وأوصاف زوجاتهم. وما تيسر من معلومات عنهن، وسر الأستاذ لذلك..

وفيه حدثت رونق الى برنق وضحكت، فصاح ثلاث مرات: «تعيش جلالة الملكة»..

واحتضن الدمياطي كاميليا الملاوي، قالت بتراخ: وأنا يدك ايضا.

وخرج عنوان الأنباء بكلمة واحدة.. الحزان..

وحارت بخيته أم خالد، توجست ثم أدركها رعب لأن الموت فشا في الخطط، لكنه لم يدرك إلا المواليد، لم تسمع عن مرض مفزع أدرك من هو في مثل خالد، لكنه برقد منذ يومين، ترتفع حرارته، وألم بعض مفاصله، ألطف يا كريم، يا كريم ألطف، بعد نومه مالت على اذنه اليمنى، تلت البسملة سبع مرات، وقرأت الفاتحة سبع مرات، وسورة «قل هو الله

أحد،، أحضرت ورقتين، قطعت أطرافها، سوتها على هيئة عروسة مصلوبة الذراعين، ثم أحضرت ابرة. قلت الفاتحة، دفعت الابر، مرة في عين أم سهير، مرة في عين أم علام، مرة في عين لا تعرف صاحبها، وفي الليل المتأخر، جاء حسين زوجها يبدو انه قضى يوما صعبا في محاولة لاقتراض نقود يكمل بها بقية أيام الشهر، بدا وجهه متعبا، وحول عينيه شقاء قديم، تصلب جسده، قال بصوت مدغوم، ماذا سيفعل؟ خشيت ان يستيقظ خالد، ربنت كتف زوجها، قالت انها مخطئة لأنها استقبلته بمثل هذا الخبر، لم يكن خالد مستغرقا في النوم حبس أنفاسه، أخشى ما يخافه ان يعلو صوت والده، يسمع الجيران وتكرر الفضيحة، فكر، أبوه يكرهه، وإلا كيف يعرف انه مريض، ولا يكلف خاطره بالسؤال عنه، أدركته غصة، تخيل نفسه موغلا في المرض حتى النهاية. يقف أبوه باكيا، يؤكد ان الحالة كان من الممكن ان تعالج منذ البداية. لكن الأوان راح. حزن على نفسه حتى دمع عندما تخيل وقع نبأ وفاته على نادية. سعاد التي يحبها الآن ولا تدري، وحده شقيقه اسماعيل الذي سيصير بمفرده، المدرس واثادة استاذ اللغة العربية بأسلوبه في موضوعات الانشاء. هذه اللحظة خرج الأب، سمع أمه تقول لنفسها انها لا تدرى ما تفعل مع الأب القاسي الذي خلا قلبه من الرحمة. ثم قام

لتجس حرارة خالد، حول وجهه متظاهرا بالنوم، تذكر ضيق أبيه، عندما يضرب صدره بقبضتيه، أو يشق جلبابه فتصرخ الأم لأنه لا يمتلك غيرها، منذ عام طلبت امه . ياريف المدرسة، صرخ معلنا ان الديون أرهقته، وان الناس يديرون وجوههم عندما يرونه، سكب الجاز فوق رأسه، صرخت الأم، هرعته اليه، قبلت رأسه، رجته أن يذكر اسم الله، ألا يصغي لوسوسة الشيطان، قالت انها ستميل على احدى جاراتها وتقترض منها، دفس رأسه بين ذراعيه، ردد حيرته وضيقه، يومها خاف خالد، وبكى اسماعيل، اعتاد زعيقه في لحظات الضيق، لكنها لم يريا مكسورا، عاجزا، ملسا على رأسه، قبل خالد ما بين عينيه، قال انه يستطيع العمل بعد الظهر عند أي كواء أو بقال وان يواصل دراسته أيضا، كف عن نهفته، وقف زاعقا فجأة، اذن.. هذا ما يريده، أن يخرج من المدرسة، لا.. سيواصل تعليمه حتى لو تسول، يكفي ما يراه هو، بعد خروجه من البيت توقف لحظات، دعا الله أن يريجه من هذه الدنيا، ما يمنعه من الانتحار خوفه من الموت كافرا، لكنه فكر في امرأته وولديه، لمن ستركها؟ انها بلا سند غيره، ندم، خاف ان تكون طاقة السماء مفتوحة لحظة دعائه، طلب من الله أن يعينه، ان يرزقه اللقمة والستر والقدرة على تربية الولدين وتحنيبها المذلة والهوان، رأى

الحاج حنفي مقبلاً، سلم عليه، قال ان هماً يمسك به، قال
الحاج، لعله خيراً، قال ان ابنه خالد عنده حرارة، ورعشة،
انه يخاف على الولد، ولا يدري ما يفعل...

وفيه أصغت ايثار الى حديث يدور بين زميلتيها حول
مجدي رمزي، عن ذكائه، وقدراته، وفهمه لأمر السياسة
ومجيئه يومياً بجريدة اللوموند، ابتسمت ايثار عندما قالت
زميلتها انه يستطيع ذكر عاصمة أية دولة في العالم، اتسع
صدرها، ورغبت في ظهور مجدي الآن لتبادل الحديث على
مرأى منهن..

وبدت معالم شكوى على وجه الدكتور رمزي، قال مخاطباً
توفيق بك، انه يتعجب لأن مجدي ابنه يقرأ كتب العجم..
تصور.. انه يتهمني بانني ضد العجم، ضحك توفيق بك، ربما
أصبح أعجمياً من وراء ظهورنا، لم تخف نيرة الاعجاب في
صوت الدكتور رمزي، ولم لا؟ ألم تمتد سعة أفقه الى نظريات
العجم، مع انهم اعداء من كان ثرياً مثله.. لكنه يخاف على
الولد. ابتسم توفيق بك. لو أصبحنا نحن من عتاة العجم فلا
خوف علينا.

وفيه اتصلت رونق بالبوشي وطلبت السماح لسبعة
أشخاص بالصعود، بدون التعرض لهم، قالت ان ثلاثة منهم
صلح، وان آخرهم طويل، كبير الرأس..

وفيه نصبت خيمة ضخمة بداخلها نموذج للخزان العظيم،
رسم على سقف الخيمة أبراج السماء الاثني عشر لسبب لم
يوضحه أحد، تم صنع أحجام صغيرة من النموذج وزعت على
المدارس، والادارات العامة والخاصة، والهيئات، وصنعت
نماذج أقل حجماً أهديت الى زوار المخطط الأجانب، والى
السفارات.

وينتهي هذا السور الآن على خير، بعد أن قاسى الناس
فيه شدائد ومحن، واضطربت أمورهم، وتغيرت أحوالهم،
خاصة عندما عمل الموت في مواليد الشارع الخامس فأفناهم
عن آخرهم، عدا طفل واحد..

شارعان متصلان، يؤدي كل منهما الى الآخر، ويتضمنان فوائد جمة

من أي موضع فيها يلوح الميدان الكبير، لو حجبت
المباني للحظات فان الاحساس بوجوده يصبح قوياً، تتزايد
حركة الشخصيات، وتقع أمور غريبة، فكل من يسعى في
المخطط على وشك العبور الى مناطق مجهولة وأيام لا يدري
إنسان ماذا سيجري فيها؟ عند هذا الحد من المخطط تتغير الظروف

وتتبدل الأحوال، أعلم ان الانسان في تغير دائم، وتحول ليس له آخر، فابن العشرين ليس هو، هو، عندما يصبح في الثلاثين، أو يتجاوز الخمسين، وسبحان المبدل، المغير، يخص من شاء بما شاء، سبحان منوع الصفات، والدلالات، ليس كل أسود عنبراً، وليس كل أخضر زمرداً، ولا كل أبيض ماساً، هكذا تبدو رونق في الخطط، تنكسر خلالها الطباع والأمزجة كما يتكسر الضوء عبر منشور الزجاج، في أول هذا الشارع تتجه لتلتقي بسيدة لم ترها إلا في صور أعدت بواسطة ادارة الأمن، عرفت عاداتها، والكلمات التي يرددتها زوجها، وترتيب الكتب في دواليبه، وعلامات جسده، المرأة التي ستواجهها جميلة، هادئة، تخطت الثلاثين، تقيم حاجزاً من الصعب اختراقه عند حديثها الى الآخرين، تقيم مع ابنها الوحيد منذ اعتقال زوجها، عندما طلب الأستاذ ان تقابل هذه السيدة، وأن تنفجر باكية، وأن تسأل دامية عن أخبار الدكتور صبري فهمي، ان تردد قليلاً قبل أن تتحدث عن ضيقها الذي دفعها الى زيارة آخر امرأة من المفروض ألا تعرف وجودها، لكن.. قاطعت الأستاذ: ان هذا يشبه فيلماً ساذجاً، انها تعرف الهدف، طلبت أوصافاً دقيقة للدكتور، وصوراً ملتقطة له سرا، وترتيب الأثاث في بيته، ولون الستائر، واللوحات المعلقة، وصور مختلفة لزوجته، خاصة

صورة الفرح اذا وجدت، ان ما ستقوم به لا تقدر عليه إلا امرأة في مواجهة امرأة، ستقول ان الدكتور درس لها، لا تريد إلا الاطمئنان عليه، ستفلت منها عبارات غير مقصودة، ستسأل عن نظارته الطبية، هل أبقوها معه أم لا؟ تسأل عن تاريخ آخر كشف طبي.. ثم تتدارك قائلة، آه.. ثلاث سنوات، من الممكن ان يستخدم النظارة فترة أخرى، عبارة مختصرة، كانت روجه في مكتبته، ثم اتصل تليفونيا بعد اسبوع، عندما تقدم رونق على تقمص شخصية مخالفة يغمرها نشاط عظيم، تتعجل النهار، وتضيق بالليل، تقل ساعات نومها، من الأمور المجهولة في الخطط، ان شاباً في العشرين هام بها، كان خجولاً، ينتظرها عند ناصية الطريق، بعد أسابيع ابتسمت ثم أومأت ثم ردت تحيته الخائفة ثم قالت إنها ستنتظره في الساحة، مشياً بجوار النهر، وتوقفاً عند الأماكن المعتمة، انشدها شعراً، كانت تبدي الاعجاب وتطلب إعادة بيت أو شطر بيتاً السخرية تضج في أعماقها، وصوتها الخفي يردد قبيح النعوت والألفاظ، عندما يضغط يدها، تطرق، تسدل جفنيها، تتشاغل بأصابعها، في المرة الأربعين لخروجها مد يده مودعاً، قالت: تعال معي، انني وحيدة الليلة، عندما دخل الشقة جلس في الركن متشاعلاً بالنظر الى النجف، الى السجاد. فوق المكتب الصغير المطعم بالصدف لمح رسائله التي

« قولي للمدام .. صفية عزت الفنانة التشكيلية .. »

مسافة معتمة، أولها فائدة ..

إعلم، والميدان الكبير يدنو، أن البصر والفكر يجب أن يتجها من حين لآخر الى من يتربع في الأعالي، المتوحد في ذاته، وصفاته، الفني عن الزوج والولد، لم ينفصل عنه أحد، ولا ينفصل عنه أحد، واحد، أحد فرد، صمد، تعالت أسماؤه، غنى عن الثراء، لا يحتاج الى خلقه، وجميع الخلائق له محتاجون، وهب لكل منهم ما يقيم أود عائلته، لا ينسى مخلوقاً من عبيده حتى وان تذكره بالموت، هنا في هذه المسافة المعتمة امرأة عجوز تجاوزت السبعين تردد: انه لا يسانا، لا ينسى عباده، انها واحدة من شخصيات المخطط التي لم تذكر إلا نادراً، لا ترى ما بين قدميها لضعف بصرها، تمشي منحنية كعلامة الاستفهام في سطور الكتابة، تشكو دائماً جفاف الريق، وشدة الصداع، لكنها لم تذهب الى طبيب حتى لا تكلف ابنها مصاريف الكشف والدواء، تعيش معه منذ زواجه، تمشي على أطراف أصابعها حتى لا يشعر الخضر ابنها وامراته بوجودها، وطوال النهار تجلس أمام باب البيت في الحارة الضيقة تتحرك مع الظلال، عند نهاية اليوم تستقر في الجانب المقابل، لا تفعل شيئاً في البيت إلا اذا طلبت امرأة

كتبها، لم ينتبه اليها عندما ظهرت في باب الصالة، إلتفت، ثم بدأ يرتعش كفرخ مبلول، أحدث عزبها المتجرد فيه أثرا غريباً، صاعقا، راح جسدها يقضي في النور الخافت، تحول ارتعاشه الى انتفاض، ثم خار خواراً غريباً، تجهمت فجأة، أمرته أن يغادر البيت، في الأيام التالية اعترضها في الشارع، تجاهلته، توصل اليها ان تمنحه الفرصة من جديد، بعد سبعين يوماً من تعقبه لها توقفت، صرخت فجأة، حلق فضوليون، وتجمع مارة، أبرزت بطاقتها لجندي الأمن، صاح انه يعرفها، والدليل انه يعرف اسمها، اسمها وداد، انها تعمل موظفة بشركة طيران المخطط، دفعه الجندي الذي أمسك بياقته: يا كذاب، أنت تضايق سيدة محترمة لها وضعها في المخطط، لا يعرف الأستاذ حكايات أخرى عديدة، إنها تتوقف أمام مدخل البيت، ظلال تدثر المدخل، من الواضح ان البلاط غسل جيداً، كأن الأستاذ يراها من مكان خفي، لكنها أقصت الحواطر البعيدة، وان ترددت فكرة غريبة في ذهنها، لماذا لا تجرب الانضمام الى المعجم؟ لم لا؟، أصغت الى صوت خطوات قادمة من الداخل، انها الآن روتق أخرى، مغايرة لأية صورة بدت عليها من قبل. تنظر اليها الخادمة، صمت نابع من الداخل، برود يوحي بخلو البيت من رجله، هذا لم تصفه التقارير ..

ابنها، ولكنها لا تفعل كل شيء، في مرة طلبت منها زينب ان تطبخ أرزا لكنها اعتذرت بتقدم عمرها وضعف بصرها، لماذا؟ حتى لا تشعر امرأة ابنها انها تعرف شيئا هي لا تجيد طهيه، أعلم ان الأمور لا تمضي ابدا كما يتمنى الخلق، حتى وان بدت بسيطة عادية، سبحانه من له التصرف وتوجيه الشئون، في أواسط العمر، وقرب خريفه، وعند نهاية شتاء يحيل لبني الانسان انه سيقضي السنوات الأخيرة في هدوء فإذا يقلق بعد اقتراب الموت، والمصير في أفول، والأيام في النازل، لكن ليس كذلك الحال، خاصة وان كل شيء الى زوال، خاصة الامنيات والرغبات والمشاريع والطموحات حتى الهين منها الذي يشبه رائحة الزهور، أو العبير الفامض المستعصي على التفسير والادراك، ألطف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير في هذه الخطط، انتزعوا ابنها الخضر من حياتها، ومن حياة زوجته وطفليه، لجأت الى تلميذ في الاعدادية، أملت عليه رسالة الى قادة العهد الجمهوري تتضمن استرحاما لأن الخضر هو ابنها الوحيد، ولأنه العائل الوحيد أيضا، لكن لم يجيبهم انسان، فالشفاعة لا ترجى إلا من حبيبه وصفيه، عليه أصدق السلام، ولكن هل يدرك الانسان في سنين ضعفه وهوانه على نفسه ذلك؟ بيع أثاث البيت قطعة وراء قطعة، وعندما حانت اللحظة التي يجب خروج

احداهن للرزق، رفضت أم الخضر خروج زينب، لأنها شابة والطمع فيها كثير، قالت العجوز إنها ستدري على شبابها، في الأيام الأولى سرحت في الأزقة المجاورة، باعت ليمون بنزهير، وفجلاً أخضر وحاولت اتخاذ مكان ثابت بجوار دكان يبيع السمك المقلي لكن رجلاً فظاً غليظ القلب يرتدي جلباباً، منعها، أعلم ان مصير الانسان يكون مرتبطاً بآخرين لا يعرفهم، ولم يلتق بهم، ولم يخطر بباله رؤيتهم، كثيرون يتواجدون في هذه الخطط بشكل خفي لكنهم يؤثرون في شخصيات معروفة، الى هذا الجزء المعتم من الشارع جاء الاستاذ بنفسه ليرقب هذه العجوز التي تهدد نواياه، رأى قلوباً كثيرة تجن عليها، حتى ان كثيرين وضعوا في يدها قرشاً أو قرشين، ولم يتوقفوا لسماع دعائها، رآها تضع سلة مليئة بالبيض، لم تعلم ان خروجها في مثل هذا العمر، وحمايتها لامرأة ابنها تعتبر تحدياً لمن تجهله، فكر الاستاذ في إسناد المهمة الى العناني، لكن تنفيذها سيقترن بالسرور والرضى لأنها فرصة نادرة للأذى، لذلك استدعى الوتيدي الذي لا زالت فيه عروق تنبض ومناطق لم تعطب بعد، كلفه بالذهاب الى ضابط أمن برتبة رائد، ان يتببه الى هذه العجوز وخطورتها، أن تخصص قوة من شرطة الخطط المحلية، المختصة لاعتقال لباعة الجائلين، وأن يشهد بعينيه ما سيقومون به، وان يعود اليه ليصف ما جرى..

منذ العصر الملكي، اسمه.. محمود حفطي..

سكة الاعتقال..

استر يا رب.. اللهم اجعله خيراً، من سيجيء آخر الليل؟
من؟ جف ريق قنديل الأزهري، أما حمدي فبدا هادئاً، كأنه
يعرف مقدماً ما سيجري، تخيل هذه اللحظات منذ فترة، حتى
لتبدو له الآن مألوفة، خالية من المفاجأة، كأنه عاشها مرات
من قبل، كان الضابط شاباً، يرتدي الملابس المدنية، كذلك
الجنود الثلاثة، ارتعد قنديل عندما سمع أحدهم ينادي
الضابط برتبته، لو أنه يرتدي الملابس الرسمية لكان ظهوره
أقل وطأة، اللباس المدني يضاعف الرهبة، ويوحى بمسئولية
غامضة، أحاط مخبران بحمدي، دخل الضابط كل الحجرات
شاهراً مسدس، قلب المقاعد، وأدراج المكتب، والحقائب
القديمة، فتش الكتب والأوراق، وكوم الصور جانباً، بعد أن
تمالك قنديل نفسه تساءل عن الذنب الذي ارتكبه ابنه، أشار
إلى الوشاة، إلى المكائد التي تدبر للأبرياء، أنه أخلص
الشخصيات في الخطط للنظام الجمهوري ومن قبل كان من أعد
أعداء العهد الملكي، ولا يشك أن ابنه حمدي يختلف عنه،
عنا طلب منه حمدي بهدوء إلا يقرنه به، روع قنديل، كاد
يلطم كالنساء لولا واعز من حياء، قال الضابط انه يقرأ كل

درب المذبوح..

قتيل، قتيل، ردد العناني فرحاً، نسي اهتمامه بكاميليا
واهتمامها به، والاشاعات المتزايدة، يوماً بعد يوم والقائلة بأن
ثمة إجراءات قوية ستتخذ بالنسبة للصحف، وإن الهدف من
ذلك الحد من نفوذ الاستاذ في الخطط، خاصة بعد شبكات
وشكوك، نسي العناني كل شيء، عندما تقع جريمة فانه ينسى
اسمه كما يقولون، أول صحفي وصل إلى مكان الجريمة هو،
الجسد مغطى بلاءة بيضاء، تتبع خيوط الدم، لاحظ زجاجة
روم نصف فارغة، وطبقاً من الحزف الأزرق به قطع جبن،
وخيارة مملحة مقضومة، وورقة شفاقة بها شرائح بسطرمه،
وشماعة معلقة إلى الجدار، وحذاء وجورباً مكوماً بجواره،
فوق السرير صورة امرأة نصف عارية، حرص ألا يلمس
شيئاً، لاحظ بروز نظارة اطارها فضي من تحت الملاءة، لا
آثار للمقاومة، لم يحدث عراك، قال ضابط الأمن انه طعن
مرة واحدة ثم ذبح على مهل، القاتل محترف، خبير بالجسم
البشري، الضربة أخرست القلب، حاول العناني استعادة
لحظة المباغتة، نظرة العينين، كيف نفذ الخنجر؟ أية صورة
تعاقبت على الذهن، سأل عن اسم القاتل، قال الضابط انه
متزوج وله ولدان، قال العناني، من الواضح انه منى النفس
بوعود كثيرة، ما اسمه؟ قال الضابط، انه موظف في الحكومة

ما يكتبه النوالد ضد العجم، لكن يبدو انه يُخلق من ظهر العالم فاسد، عندما تقدم أحد الجنود بالقيد الحديدي وأحاط معصمي حمدي هتف ثلاث مرات بحياة العجم، فسقط قنديل منشيا عليه، ولم ير ابنه الوحيد لحظة خروجه القسري عن البيت..

درب المستقبلي..

.. أمور كثيرة تبدأ في هذه الخطط كنبؤات، أو اشاعات، ثم يتأكد بعضها، وقد يخيب الآخر، وسبحان علام الغيوم، في هذا الدرب تأكد التنوخي من حقيقة ما تردد فبدأ يعد للأمر عدته، ويجهز نفسه لتقلب الظروف، أجرى اتصالات والتقى بعدة شخصيات أدرك بعدها ان التحولات واقعة لا محالة، جاء الى هذا الدرب وانزوى في ركن ضيق وطلب من عبد العاطي الساعي الا يسمح لأي انسان بالاقتراب منه لأنه سيكتب، انه يستخدم قلم حبر جاف، وأوراق متخلقة عن طباعة الجريدة، لا يشطب كلمة، لا يهتم بالاطفاء اللغوية، كتب ان مشروع الخزان الكبير من أعظم الانجازات التي عرفتها الخطط منذ فجر التاريخ، لا.. منذ ما قبل التاريخ، لا شك ان الاحفاد سيتأملون، ويتمجبون، وهذا هو البعد الحضاري.. المستقبلي في المشروع..، عند هذه

النقطة توقف، تلفت حوله حتى يثق من خلو هذا الجزء من الشارع، عندما اطمئن، قهقه بدون صوت، فتح فمه واهتز كأنه يضحك،.. البعد الحضاري، المستقبلي... يا ابن النصابة، البعد الحضاري؟ يا ابن الحرامية؟ البعد المستقبلي؟، لعب جاجبيه، حرك شفتيه ساخرا من معلقي الاذاعة الذين سيرددونها بناء على تعليمات رسمية، لمدرسي التربية الذين ربما اقتبسوها عند الحديث عن الخزان، للمهندسين، للعالم الذين سيعجبون بما يكتب عنهم، لأنهم.. ها، ها، ها، لأنهم صانعوا هذا البعد المستقبلي، يا تنوخي يا ابن الزانية، يتأمل قدرته على صياغة التعبيرات، والعناوين الرئيسية، وتلخيص خطب المسؤولين في سطور،، انه يتفوق على الاستاذ نفسه، ها.. المستقبلي.. الحضاري، وماله؟ هل يخسر شيئا من جيبه؟ ليضيف كلمة.. أخرى،.. العصري، تتصاعد حدة السخرية داخله، تسيطر عليه الآن حالة انفعالية عمادها المزج، يتأمل كلماته على الورق، يعجب لأولئك الذين يدعون المعاناة في الكتابة، الذين يعيدون ما كتبوه مرة أو مرتين، يجتهدون وكأنهم يحاولون الحصول على لبن العصفور.. معاناته الحقيقية في استكشاف اتجاه الريح، وكتابة ما يرضي هذا، وما يثلج صدر ذاك، وتفصيل كل شيء في الحجم المطلوب، يعجب لمن يقلبون الدنيا بسبب مقال أو خبر، كله كلام، كلام، أما ما

يردده الكتاب عن قيمة الكلمة وشرف الكلمة فهراء مقصود به رفع أجور الكتاب، أمانة الكلمة.. أية أمانة هذه؟ أمانة السر؟، سيحفظ الموظفون عباراته في لا وعيهم ويرددونها في المكاتب، والمقاهي، وكالات الأنباء تنقل ما يكتبه، تقول بعض الاذاعات الاجنبية.. «وأشادت الأنباء في مقال كتبه...» يا اولاد العبيطة انقلوا، رددوا، أجهدوا انفسكم في استنتاج ما بين السطور، لكن لن يخطر لكم هذا أبدا، مرة أخرى تلفت التنوخي حذرا، لا أحد يراه، لا أحد على مقربة، فك ازرار بنطلونه، مرر قضيبه على السطور مرة، ثم مرتين، وثلاث مرات..

عطفة القهوة..

لم يتعامل التنوخي مع البوفيه أبدا، لديه موقد كحول صغير وفناجين قهوة، وعلبة سكر، وبن، وكسكة من النحاس تخصه، وكسكة من الألمنيوم يعد فيها القهوة لضيوفه، انه يبتسم عادة لهم، يقول ببطء انه سيعد القهوة بنفسه، تلك هوايته، يسأل، هل يفضلها ضيفه حلوة؟ أم مضبوطة، أم سادة؟ ثم يتوارى عند المنحنى وفيه دورة المياه، يتبول في الكسكة المصنوعة من الألمنيوم، ثم يضيف البن، من قهوته شرب ضيوف من شخصيات الخطط، وأجانب عن الخطط

وزراء، وسفراء، ومستولون جاؤا الى الأنباء لتوثيق العلاقات بين السلطة التنفيذية والصحافة، رثة الخطط ولسانها، أبدى بعضهم دهشته لمذاق القهوة، سأل أحدهم عن سر الطعم النادر للبن، عضو بارز في برلمان الخطط حاول أن يعرف سر التحويلة التي لم يذق طعمها أبداً، كثيرون جاؤا إليه مدعين أنهم ما قصدوه إلا لشرب فنان معه، خصص مفكرة دوّن فيها اسم كل من شرب قهوته، شخص واحد لم يجرؤ على التبول في جوفه حتى الآن، انه الاستاذ. ينبئه إحساسه انه يعرف ما يفعله، لكن اذا صح ما سمعه من أخبار فسيدعو الاستاذ الى فنان، طوال المسافات السابقة لم يكف عن كتابة التقرير تلو التقرير، لا شك ان مجهوده موضع تقدير عند ادارة أمن الخطط صاحبة الحل والعقد، كثيرا ما أوقف في الفجر ليرد على استفسار بخصوص نقطة غامضة، أو جانب استعصى على فهمهم، ما يضايقه ان قدرته على استطلاع الأمور في الخطط محدودة، يمك الاستاذ بكل الخيوط، كل شخص في الدار يفضي اليه بما لديه أولا بأول. الوتيدي يتواجد باستمرار بين العمال لغرض مؤجل، كثير من مشاكل العمال لا تحل مع مدير المطبعة الا اذا توسط الوتيدي، تلك تعليقات الاستاذ، العناني لا يهدأ ولا يكف عن التجوال كل امرأة أو بنت تنقل وتخبر، للأستاذ وسائل خفية

وأخرى معلنة، أما التنوخي فيعتمد على نفسه، يلاحظ من
يجلس الى من؟ من خرج مع من؟ يحاول أن يعرف من هؤلاء
الغرباء الذين لا تسجل أية معلومات عنهم في دفتر البلشي،
يجيئون الى الأستاذ، لكنه لم ينجح حتى الآن، انه يرصد
تعبيرات الوجوه بنفسه، ما يضايقه، انه لا يلم بكل التفاصيل،
لكن اذا وقعت التغييرات، اذا عصفوا بالأستاذ، لن يصبح
أي شيء بعيدا عنه، لا الحزائن السرية، ولا روتق، ولا اسماء
الغرباء...

قبو..

.. أولهم لا يعرف ثانيهم، وثانيهم لم ير ثالثهم، وثالثهم
يجعل رابعهم، ورابعهم لم يلتق أبدا بخامسهم، وخامسهم لم
يسمع قط بسادسهم وسابعهم لا صلة له بهم، تعاقبوا، جلس كل
منهم فوق المقعد نفسه، لم يدر أحدهم شيئا عن الآخرين،
معجزة الخلق وحدث ثلاثة حتى يظن البلشي ان الشخص
نفسه ينصرف ثم يعود، وتشابه الى حد ما ثلاثة، واختلف
السابع لطوله المفرط، سبعة يلبون بالليل والنهار، رباطي بهم
لا يفكه إلا الموت، خيوطي خفية، عناوينهم لدي والدلالات
متينة، في السابع من كل شهر يصل ما اتفقنا عليه، سبعة
إختار كل منهم سبعة، مجهلون بعضهم عدا واحد، ولكل من

النجباء سبعة نقباء مجهلون بعضهم عدا واحد، ولكل من
النقباء سبعة مختارين، نفس تنظيم العجم، عرف عنهم قوة
التنظيم وسريته، وتماسكه، أخذت عنهم ما عرفوا به، أقيم
الظل في مواجهة الأصل حتى يطغى الفرع، وتتشعب الجذور
في ألواء، وتموت اذا تغلغلت في باطن الأرض، تحتق
الأسماك في الماء، وتمرح في الفراغ، هكذا امتد الى كل من لا
أعرفهم. أحتاط من كل أمر بأمر، أستقصي كل أثر بأثر،
ادفع كل غائلة بغائلة، أحاذر تجنب ما يجب تجنبه حتى لا
يعرف أي انسان مساعي وأتجنب كل شيء، قلت لكل منهم:
لا يهمني معرفة نجباءك أو نقباءك، ما يعنيني ألا يموت العصب،
مارسوا ما حلالكم من أعمال، إلتهقوا بما نشتم من وظائف،
ادخلوا أرجاء الخطط، لكم الفرجة والنزهة والمتعة،
اسكروا، لوطوا، اخدعوا الأبيكار، ازنوا، اسرقوا، كلوا
مال اليتيم، إنهشوا قوي القربي، خونوا كل شيء، تحسبوا،
افسدوا في مشارق الأرض ومغاربها، اتلفوا خيرات البر
والبحر، ارتكبوا الاثم، ليس هناك ما يدعى بوطن، هذا
وهم خلق ليموت الناس من أجله، لكن... لا تضيعوا خبري،
أو أثري، ليرز كل منكم موهبته، لكن صونوا الجوهر،
سبدرك عقابي الخالف حتى وان اعتصم بالخللاوي، مهما تحصن
أو تدثر، ربما اختفيت فترة قد تطول أو تقصر، ربما عذبت:

ربما حاولوا تحسين صورتي وتجميل حقيقتي، لكن حبالتي
ممدودة، قد يبتلعني شارع من الشوارع الروامي، قد اغوص
في بحر من البحور الطوامي، لكنني أتابعكم، ألاحقكم، حتى
يتجسد كل شيء كما فكرت، وخططت، ضموا نصب أعينكم
العجم فهم ألد اعدائي، الأفراد والجماعات والدول، أرى
ملاحكم منذرة بكل شر خصب، كونوا كما أراكم..

قال أطولهم:

قلبي لغراقك محزون..

قال الأستاذ:

لكنني باق معكم.. حتى وإن لم تروني.

نهاية مفاجئة للشارعين..

.. اليوم لم يظهر الأستاذ، نزل صمت غريب على العمال،
والموظفين، أما العناني فلم يهدأ، قال أن ثمة شيئاً غير عادي قد
جرى، لكن المؤكد أن المقصود به الأستاذ نفسه..

باب مستحدث، يقع قرب السور السادس،
ومنه يلوح الميدان الكبير

إليه جاء خمسة هم أول القادمين، بينهم مسئول مالي بجهاز
الرقابة على أموال الخطط، ومدير، وشخص لم تعرف

وظيفته، وضابطين بإدارة أمن الخطط، انحنى البستاني وضم
راحتي يديه، لكنهم تجاهلوه، وبدأ توالي الاشاعات، قيل انه
ألقى القبض على الأستاذ، وأنه سيقدم الى محكمة أمن
الخطط، وإن تها خطيرة موجهة اليه، وأن التنوخي سيتولى
جميع المسئوليات، وقيل انه سيتم تعيين شخص من خارج
الدار، وأكد البعض أن الشيوعي استدعي ليصور الأستاذ
في السجن المركزي، وقيل أن قوائم تعد بأسماء بعض
الصحفيين والموظفين والعمال لنقلهم الى وظائف أخرى
بالخطط، وأن التنوخي هو الذي يعد أسماء من تقرر نقلهم،
وعند سريان هذه الاشاعة وصل الحميدي مرعوباً، استقصى
الاخبار فلم يسمع الا همسا بالنقل والفصل، دار حول البوابة
وخوف مقيم داخله، ما يحشاه أن ينقل الى جهة نائية مع
ابنته، عندئذ سيبدأ حياة مغامرة لما مضى، لم
تهدا المضايقات بدءاً من استفزازات التنوخي وحتى
اعتداء الوتيدي، وأمام من؟ أمام كاميليا، كاميليا، كاميليا
النقية، الطاهرة، كاميليا التي يحاولون تلويث سمعتها، تسلم
عدة خطابات، ينبئه الكاتب المجهول عن مغامرة في كل
خطاب، اليوم ضاجعها الدمياطي وكان لون سروالها أحمر،
اليوم مع التنوخي وكان لونه أزرق، العناني، فوزي العشري،
الغلامي، حتى الأزهري، لم يبق إلا يرتق.. يريدون تشويهها في

نظرة، لكن محاولاتهم لم تزده الا عشقاً، لم يصدق، حام حولها من بعيد خاصة بعد تعرضه للاهانة أمامها، ليرصد اللحظ، ويستشق الشذا، والوقفة المفاجئة، وإشارات الأنامل، عزأؤه، انه يراها يومياً، منها يستمد طاقته، وقدرته على المشي والحركة والضحك بصوت عال في الحلاء غير المعمور اذا ثقل سحرهم من رؤيتها، عليه ألا يسكت، انه أخذ المضطهدين، ولن يستمر اضطهاده في كل العهود، الجميع يعرفون ان التنوخي يقاته، والعناني يكرهه، يتقاضى أقل المرتبات، ولم تدفع له الدار أي مبلغ الى التأمينات من أجله، لا بد أن يبلغ هذه اللجنة حقيقة وضعه، ليكتب اذن مذكرة، لكن ربما جرت عليه المتاعب، اذن ليؤجل هذه الخطوة، أما الآن فيطوف هنا مضطرباً الهلوم على ملاحه، اذا سأله أحدهم سيبيدي/ رغبة في عدم البوح، حتى اذا ألحوا دعا الى الله بالألا يحل ما أصابه بأي شخص من بني الانسان، سيقول انه اكتشف اصابة قديمة بالقلب، وانه لن يعيش الا شهوراً معدودة، سيحرص على المشي متمهلاً، ويسأل عن امكانية السفر الى الخارج للعلاج، أو لاجراء عملية جراحية، ليس من المعقول ان توافق اللجنة على نقل مريض مثله، شعر باطمئنان الى حد ما...

ظهر البيجرمي المصور، قال انه كان يعرف ما جرى

لكنه لم يقل لأي انسان حرصاً على أوضاعه الخاصة في الخطط، لقد سمع حواراً بين اثنين من الوزراء أثناء تصويره لها في حفل عشاء، فهم كل شيء، خاصة عندما تجهم أحدهما ولهذا دلالة، قال ان التعليقات لم تصدر إليه من أية جهة، لكنه يتوقع شيئاً ما.

سمع صوت رجل لم يتبين ملاحه أحد:
يا رب.. خفف الشدائد..

عند الجانب الآخر من الباب يقف الوتيدي، لا يدري ما يجب أن يقوم به، لكنه شعر أن الأمور لن تمضي كما كانت، وبرغم ما جرى له فان قلبه انقبض لأن الأستاذ في خطر، واذا صح ما يقال عن اعتقاله ومصادرة أمواله فانه سيرف البهذلة لأول مرة، هو الذي عاش معصوماً من الأذى تجمع عدد من العمال، سألوه عن حقيقة ما يشاع حول زيادة المرتبات، لكنه لم يستطع رداً، اعتذر بكلام لطيف، انزوى منفرداً مع الليل، لم يبتعد عن البوابة، ليرقب ما يدور بمنأى عن العيون..

حول البوابة نشط العناني، غزر عرقه، وتزايد نبض قلبه، بيوت عديدة مهددة وهذا ظرف لا يتكرر كثيراً، ربما عذبوا الأستاذ نفسه، ردد عبارات، موحياً بان عدداً

سيفصل، حذق في العتمة الى الملامح والقسمات.

على مهل اقترب الدكتور الطنبولي، أقرب الناس لا يستطيعون التعرف اليه لشدة ما لحقه من تغيير، نقص وزنه حتى أصبح جلدا على عظم، وتباطأت خطواته، أما وجهه فلحقه تغيير ما لم تدركه كريمة بسهولة، ملامحه وبياض الغرابة أصبحت أرق، لم يزق منذ عودته، وأنهى العديد من الاجراءات المالية وكأنه يكتب خطابا لأحد اصدقائه، كما وقع العديد من الشيكات بدون تردد، حتى حير ذلك كريمة وأربكها، ثم ازداد انزعاجها عندما جاء الكولي يصرف مكافأة مقدارها عشرين جنيها، فطلب منه الطنبولي أن يجلس للحديث قليلا، ثم استدعى كريمة وطلب كوبين من الشاي، لم يعد لديها شك في أن الرجل جن، وان المرض الطويل أربك عقله، وحارت.. الى من تفضي بأمرها؟ لم تتعامل الا معه، فكرت في روتق، لكنها محتفية منذ أيام، ثم عزمتم أمرها على مقابلة التنوخي، ان الطنبولي أكثر ودا الآن، بل انه يحرص على ارضاء كل من سبب لهم أذى، لا يلتقي بشخص الا بادره بالتحية، وقد يمد يده مصافحا، عند وصوله الى البوابة أيقن من اختفاء الأستاذ، لم يفكر في تنفيذ الخطوات التي طال الإعداد لها منذ سنوات، اخفاء الدفاتر، إحلال ملفات مكان ملفات. توجيه الأوامر الى مدير قسم التوزيع

بتخفيض النسخ المباعة وتقليل الكميات المصدرة الى الخارج، تقليل حصة الاعلانات، تكليف مدير المطابع بعدم العناية وزيادة الاخطاء المطبعية، ومنح أكبر عدد من العاملين اجازات مرضية من قبل الدكتور السواري، لم يتذكر الطنبولي شيئا من هذا. ولم يلاحظ ان كريمة أمرت بتنفيذ كل هذه الخطوات قبل وصول اللجنة، ان ما يشغل الطنبولي الآن، بناء مقبرة له في الخطط، حصل بالفعل على قطعة أرض في المدافن الشرقية، وبقي ان يتفق مع أحد المقاولين المتخصصين لبنائها، بعد بحث طويل اختار الكفن، اشترى كفنا شرعيا من ثلاث طبقات. طبقتان قطنيتان، والثالثة حريرية، أدخل مكانا في البيت، وضع فيه القماش بحيث يمكنه رؤيته في أية لحظة أو حركة، توقف أمام المرأة، أحاط نفسه بالقماش الطويل، هز رأسه ودمعت عيناه مرارا عندما تخيل رقدته الأخيرة..

عند ساعة متأخرة جاء عدد من كبار الكتاب الذين لا يظهرون إلا نادرا، لأنهم لا يوقعون في ساعة الحضور أو الانصراف، انما يرسلون مقالاتهم، أما مكافآتهم فتصلهم الى بيوتهم، لم تهدأ الحركة حول البوابة. ترددت اسئلة في صمت الليل الذي يمكن ان يردد صدى رنين الابرة. «هل أعدت الكشف؟»، «هل سيفرج عن العجم؟». «هل سيتم

الاستاذ الى المحاكمة؟ .. هل صحيح انه هرب الى الاراضي الشمالية وأذاع رسالة بصوته من راديو الأعداء؟ ..

تحت البوابة مباشرة جلس قارئ كف، قصير، ضيق العينين، دعا كل من مر به الى الكشف عن طالعه قسمة أحداث عظيمة ستقع. وأمر عجيبة يراها في رحم الغيب، الى الجهة الشرقية تجمع عدداً من المرابطين، احدثوا صامتين، عند الفجر شوهد التنوخي يعبر البوابة مسرعاً، لم يتحدث الى مخلوق لمع العناني ارهاق الجميدي وحيرته. قال ان الأنباء لن تصدر اذا نقل أو فصل. اضفى الجميدي الما على وجهه. أشار بيده:

.. كف عن مضايقتي يا عناني.. كان ذلك ممكناً أما الآن.. فلا.. لا أحتمل..

تساءل العناني ساخراً: ما السبب؟

قال الجميدي انه سيخبره بحقيقة أثر الاحتفاظ بها سرا لكنه لن يحققها عنه، صحيح ان العناني ضايقه كثيراً، لكنها أكلا معا الخبز والملح، انه زميل عمر، عمره المهدد الآن، انه.. انه مصاب بالقلب..

في هذه اللحظة علا ضجيج، ارتفعت أصوات باعة صحف، علقت نسخ من الأنباء، حدثت العيون، وثقلت

الأسن، اسم الاستاذ غير موجود في المكان الذي ظل يشغله عند أعوام طويلة، التنوخي يحتل مكانه، هدأت نفوس، واطمأنت خواطر الى حد ما، التنوخي ابن الدار، وليس غريباً... بدأ انصراف الناس من حول البوابة، أسرع العناني، نما الى علمه خبر مشير لا بد أن ينقله الى التنوخي، قبضوا على ابن قنديل الأزهري لأنه أعجمي خطير، قنديل مختف عن العيون، انه يدعي المرض وعنده أمل ألا يعرف الخبر.

تساءل عدد من الشخصيات عن مكان الأستاذ ومصيره.. ولم يجب أحد..

فوجيء برنق، ها هي رونق تجتاز البوابة على مهل، شاهدة الجمال، بالغة الغموض، صاح.. عاشت جلالة الملكة..

نقطة تفتيش

شدت قوات أمن الخطط التفتيش بعد مخرج البوابة، تم تفتيش جميع الشخصيات بدقة ومراجعة أحوالها، وصدر تحذير قوي ينبه بضرورة الانتباه الى أي انسان به أي أثر من المعجم..

السور السادس، ويمجد الميدان الكبير من جهة واحدة

في أوله علا قدر التنوخي، سطع نجمه وراقت له الدنيا،
أصبح رئيسا للتحرير ومنسقا عاما لأعمال الدار، وهذا منصب
استحدث لأول مرة بعد اعتبار الصحف ملكية عامة في
الخطط...

وفي الصباح الباكر توافد مندوبون عن محلات بيع
الزهور، كانوا يحملون باقات مختلفة الأحجام وضعت في سلال
ملونة وحليت بشرائط حريرية وداخل كل باقة بطاقة باسم
المهني، أمر التنوخي بجمع البطاقات حتى يشكر أصحابها،
وقال البلشي ان أول باقة وصلت من الدكتور عبد العظيم
السوافيري وحوالي التاسعة جاء الدكتور بنفسه، لكن قيل له
ان التنوخي في اجتماع هام، عندئذ ترك مطروفا لدى
البلشي، وأوضح انه يتضمن مقالة عاجلة حول تنظيمات
الصحافة الجديدة ومزاياها.. ولاحظ العاملون في الدار
وجود عدد كبير من برقيات التهئة الملونة أمام البلشي،

برقيات من رؤساء صحف لم يتغيروا، بركات من مديري مكاتب وكالات الأنباء الأجنبية في الخطط، من مراسلي الأقاليم، ورؤساء أقسام العلاقات العامة بالمصالح والشركات، وأعضاء هيئة الاذاعة المرئية، والاذاعة المسموعة، والوزراء، والمحافظين، ورؤساء المناطق، والأعضاء المنتخبين، وأصحاب بعض المتاجر الخاصة، ومديري مدارس اللغات، ولم يكتف بعض نجوم الفن بارسال بركات، انما جاؤا بأنفسهم، ولكن البلشي انحنى لهم واعتذر عن عدم السماح لهم بدخول الدار لأن الظروف دقيقة، حتى الهلالي محرر الفن لا يستطيع مقابلة أي شخص، وجاء آخرون يجهلهم البلشي، لكنه ردهم بلطف.. ولم يكف رنين التليفون في غرفة الامباني الضيقة، أول اتصال جاء من الضاحية النائية حيث يقيم قادة العهد الجمهوري، كان أحسن المسؤولين هناك يستفسر عن رقم التليفون الخاص بالتنوخي ثم اتصل تاجر دراجات بخارية، ثم موظف محال الى المعاش ثم امرأة رفضت أن تذكر اسمها، ثم امرأة أخرى قالت انها ستتكلم عندما تحف مشاغله، ثم فتاة قالت انها ابنة شهيد سقط خلال الحرب الثالثة ضد أعداء الخطط ثم مدير مكتب أحد الوزراء، طلب ابلاغ التنوخي تحية وأمنيات السيد الوزير، ثم سفير الولايات المتحدة في الخطط،

سفير المملكة المتحدة، ثم سفير ايرلندا، ثم ممثل جبهة التحرير الافريقية بالخطط، ثم الناطق باسم هيئة المعونة الدولية، ثم العشري المحرر العلمي الذي اعتذر لأنه لن يستطيع الحضور بنفسه اليوم للمشاركة في الحدث الكبير لبقائه في المرصد، ثم تقيب الصحفيين بالخطط، ثم صاحب مصنع مكرونة، ثم رجل يتحدث لغة لم يستطع الامباني أن يفهمها..

أغلق التنوخي حجرته، طلب ألا يحول اليه أي تليفون من أي شخص مهما علا قدره. تأكد من إحكام قفل الباب، دار في الحجرة دورتين، ثم لعب حاجبيه، أخرج لسانه، رفع يديه مرعشا الوسطى في كليهما، ثم تراجع بمؤخرته الى الخلف، ثم الى يمين، الى شمال، ملأه زهو مفاجيء، قطب عينيه، تقمص الموقف الذي سيخاطب فيه المحررين. صفع قفاه بيده، أدخل إصبعه في استه، أمامه صولات وجولات، بأي المحررات يبدأ؟ كتم الاستاذ على نفسه زمنا طويلا، رونق، لا بد من رونق، وغيرها، لا بد أن يختار ممثلة مرموقة ليرافقها، تخيل حديث الآخرين عنه، «التنوخي يرافق الآن...» من؟، هندي الحلاوي، لا بأس، كل من عرفهن الاستاذ، ثم السفر، آه من السفر، طبعا سيسافر مع قادة العهد الجمهوري في رحلاتهم، جميع الدعوات سيحتجزها لنفسه، من الآن لن يلعب إلا اسمه، سيكتب المقال الافتتاحي، ومقال في الصفحة

الأولى، والصفحة الثالثة، وعمود يومي في الصفحة السادسة،
ومربع في الصفحة الأخيرة به خواطر خفيفة، ها... كان
الاستاذ يخلق نجوما، يكتب للآخرين، لكن التنوخي سيظفء
أي ضوء، ويل للموهوب، ويل لمن يجيد الكتابة، بل انه
سيوقع التحقيقات التي يكتبها الآخرون، أما عن مقالات
التأييد لقادة العهد الجمهوري، فلينهلوا منها حتى آخر الدهر،
كف عن تحريك مؤخرته، أمسك القلم، يجب ان يكون شكل
توقيعه غريبا، معقدا، يصعب تقليده، يوحي لكل ناظر أن
صاحب هذا التوقيع مهم، وعز، رجل داهية، راح يجرب
أشكالا مختلفة للامضاء... بعد لحظات بدأ يلفظ بعض
العبارات بصوت مسنوع، يجب ان يرهبه الآخريين، ليقتصد
في الألفاظ، لكن ليشغل المعاني بالغموض، حتى يبعث الخوف
الى كل من يقف أمامه...

وفيه اشتد البرد ليومين متتاليين، وانذرت السماء بسيل
غزير، لكن لم يسقط مطر، وفي اليوم الثالث سطت الشمس،
اختفت الغيوم كأنها لم تكن.. وفي الأماكن الخلوية بدا الأفق
بعيدا، نائيا..

وراقب المحالون الى المعاش حركة الطريق من خلف
زجاج المقهى.

وهدأت الأمور في الأنباء الى حد ما، ضعفت اشاعات

الفصل، والنقل، بل اتخذت اجراءات مطمئنة، ثم تعيين
الجمعيدي، واثيل، وكاميليا، وعدد من العمال، وقيل ان ذلك
تم بتوجيهات عليا، اقترح الجمعيدي ارسال برقية تأييد الى
قادة العهد الجمهوري، حاولت كريمة تعطيل أوراق التعيينات
الجديدة. لكن الطنبولي نهىها، أمرها بقضاء حوائج الناس
وعدم تعطيل أمورهم، لكن كريمة لم تهدأ، نزلت الى
التنوخي، شرحت وأفاضت، أبرزت المخاطر ونهت الى
بعض الأخطار والى خبايا الموقف المالي الذي تلم بتفاصيله
أكثر من الطنبولي، الطنبولي الذي لم يعد الطنبولي، نصف
وقته يقضيه في تناول الأدوية. والنصف الآخر يتفقد فيه
المقبرة، اصفى اليها التنوخي، ابتسم فجأة، طلب منها أن
تعتبر نفسها منذ الآن سكرتيرة ومديرة مكتبه...

وكثر القيل والقال بالنسبة لمصير الاستاذ، أكد بعضهم أنه
غادر الخطط الى الخارج بالاتفاق مع قادة العهد الجمهوري.
وهس آخرون بانه معتقل في مكان ما من الخطط، وان
عناصر قضية خطيرة تكتمل الآن ضده، وان من يحاول
البحث عنه أو الاستفسار عن مصيره أو الاتصال به سيلقى
عقابا، وعلى الرغم من ان بعضهم جهر بسبه إلا انهم لم
يستطيعوا تشادي خواء حل بداخلهم، ومن هؤلاء العناني الذي قال في
الصالة الرئيسية ان الجريدة مستواها الآن أفضل، وان

الاستاذ جثم على الأنباء عشرات السنين كالرصد، وقال الكوي إنه أخفى أمورا كثيرة لكن آن له أن يظهرها، أما الدمياطي فأخفى انزعاجا من تعيين التنوخي، لكنه لم يظهره، بل حرص على مقابلته عدة مرات في اليوم الواحد، واستطلاع رأيه في كل كبيرة وصغيرة، وسب الأستاذ علنا، فقال ان الدار أوشكت في السنوات الأخيرة على الإفلاس، ظن البعض ان التنوخي غير راض عن الحملة ضد الأستاذ، خاصة وأنه لم يشارك، ولم يذكر الأستاذ من قريب أو بعيد، وفكر الوتيدي ان يمضي اليه وان يقبله لأنه الوحيد الذي صان الجميل لكن الوتيدي فوجيء بالتنوخي يقول في اجتماع عام عقد بنادي الدار، ان الأستاذ وضع ذكائه، وما تعلمه في غير موضعه، وأنه كان مثلا سيئا في المواربة، والمكايمة والخبث، والمخاتلة، واحتقاره لكل الناس، خاصة قادة العما الجمهوري، كان قلبه مع العهد الملكي للخطط...

وفيه سلم التنوخي الى ادارة أمن الخطط كراسة بخط الأستاذ، تتضمن أفكارا حول التردد، التردد وضرور القضاء عليه، التردد عند قبض رشوة، التردد عند الخيانة التردد قبل البوح بالسر الدفين، التردد الذي يسبق السرقة تردد الأثني قبل أن تبيع جسدها لأول مرة، وتضمن الكراسة ملاحظات حول النفاق وأنواعه، ومزاياه، وأظها

وحجبه، وسامات المناق الأصيل..

وأصدر التنوخي تعليماته الى الهلالي لكي يهتم بأخبار هدى المخلوي وصورها...

وفيه علت صرخة حادة، ممدودة في جوف الليل، أصغى عسكري الدورية، لكن لم يتكرر ذلك...

وتوقف خواجه عجوز يبيع الجنبري المسلوق، وشرائح الجبن الرومي لزبائن آخر الليل في خمارة قديمة. اعتاد الرواد رؤيته منذ أربعين عاما لم ينقطع ليلة واحدة، بدا وكأنه يستند الى شيء خفي، سقط فوق الأرض دفعوه، ربتوا بأيديهم على وجهه، نفخوا في أذنيه..

وفيه جاء الدكتور عبد العظيم السوافيري غاضبا، طلب مقابلة التنوخي لكن كريمة صدته بجفاء، تساءل عما اذا كان من الممكن أن يكتب مذكرة قصيرة، كتب الى الأستاذ الكبير والكرام رئيس التحرير، يود أن ينبه فقط الى خطأ جسيم ارتكب في حقه عند نشر مقاله الأخير حول نظم الصحافة الجديدة، لقد نشر اسمه مجردا من حرف، «د»، الذي يسبقه عادة، وسبب له ذلك حرجا شديدا في الأوساط العلمية التي ينتمي اليها، ذلك انه جاهد عشر سنوات حتى حصل على درجة الدكتوراه مما حق له أن يسبق اسمه بحرف

« د » تخفيظا لكلمة الدكتور، انه يرجو تعديل الوضع بنشر
تصحيح يقال فيه سقط سهوا، أو نشر مقاله التالي عن فرق
العجم والفروق بينها...

واستدعي أبو ستة الى مكتب التنوخي، أبدى ترحيبا
عاليا، وأصر على جلوس أبو ستة أولا، سأل عن أحواله، عن
المتاعب التي يلقاها، قال انه لا يشكو إلا من قسم التصوير،
اذ يأبى بعضهم الخروج معه بحجة ان منظره غير مشرف، مع
انه اشترى أحذية متينة، وملابس جديدة، أما البيجرمي،
البيجرمي اللعين، فانه يعتمد مد عشرة قروش اليه كلما
دخل عليه ثم.. يتدارك الأمر مسرعا، يقول انه ظنه أحد
الفقراء الذين يجيئون لطلب الحسنة، أبدى التنوخي انفعالا،
وغضبا، وأعلن ان البيجرمي سيخرج معه بنفسه في كل مرة،
وانه سيصدر تعليماته بذلك. وعندما استدار الى المكتب
غمرته حالة قرف شديد لأبو ستة، وإشمئزاز من حركة فمه
عند الكلام خاصة مع إغماضه لاحدى عينيه واتساع الأخرى.
وتزايد الافراز، لكنه لحظة ان عاد الى مواجهته أصبح
وديعا، يشعر بميل الى مصاحبته والافضاء اليه بالأسرار
والنوايا، اقترب منه، سأل، هل صحيح ان أحد أقاربه يعمل
في إدارة أمن الخطط؟ وانه يحتل منصبا كبيرا؟ ارتجفت
عينا أبو ستة وتزايد افرازها، قال التنوخي إنه يعفيه من

الاجابة نظراً لسرية الموضوع...

وفيه انحنى البلشي وأسرع بخطو تجاه المصعد ليفتح
الباب. لكن أبو ستة نحاه جانبا وطلب منه أن يلزم مكانه...

واستدعي الجعيدي لمقابلة التنوخي، قال ان ما سمعه عن
مرضه بالقلب آله وضايقه، أحنى الجعيدي رأسه، قتل انها
مشيئة الله، طلب منه أن يذهب الى العيادة فوراً، الدكتور
السواري في انتظاره، ستحمل الدار تكاليف العلاج، حتى لو
أدى الأمر الى سفره، أبدى الجعيدي امتنانا، قال انه يعالج،
وان الأمر لا يستحق الازعاج أو تكليف الدار... رفع
التنوخي يده... لا... صحة العاملين فوق كل شيء...

وفيه تابع الجعيدي ملامح الدكتور السواري بقلق، هل
سيكتب مذكرة ضده؟ هل سيعاقبه التنوخي لادعائه المرض؟
عقد الدكتور يديه أمام صدره، مط شفتيه، قال ان الأمر
تأجل طويلا، فز الجعيدي مرعوبا، ماذا؟، كرر الدكتور
بهذوء حزين: لقد تأخرت أكثر مما يجب...

وفيه زعق المؤذن:

الطف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير...

والتقى التنوخي بروتق بعد عودتها الى الدار، لم يسألها
عن الجهة التي اختفت فيها، ولم يعاتبها، لكنه قال ان الدار

لطيفا، مغسول الجلد، فرد يديه، هلل:
وصلنا.. وصلنا والحمد لله..

واستعاد خالد حلا غريبا، رأى نفسه في مكان خلوي،
أرضه من صخر، ناء عن الدنيا كلها، وفوقه، في الفراغ وقف
اثنان، ملاحظهما غريبة، كانا يوجهان الحديث الى جهة ما في
الفضاء الفسيح:

انا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة..
لم يجيبها أحد، كررا:
انا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة..

طارده الحلم، رآه مرتين في ليلة واحدة، كان قلقا،
أسرع الخطى، يخشى غضب أبيه برغم ظهور نتيجة
شهادة التجارة المتوسطة منذ أسابيع وبخاصة بتفوق، لكنه لم
يعمل حتى الآن، بعد انتهاء الدراسة وتخرجه شعر كأن أرضا
سحبت من تحته، لن يستيقظ في نفس الميعاد، لن يذهب الى
المدرسة، لن يلتقي بأصحابه، ربما التحق بوظيفة ما، لكن
المؤكد ان عهدا بأكمله قد ولّى، في كل يوم يجلس الى بائع
الكتب العجوز، يقرأ منذ الظهر وحتى نزول الليل، ينتظر
حتى مجيء الرجل الذي يحمل سلما طويلا ليشتعل المصابيح، ثم
يستمر في القراءة، في الاجازات الصيفية الماضية كان يطلب

كلها ملك لها، ويمكنها أن تستمر في عملها مديرة لمكتبه، أو
اختيار أي عمل آخر، قال انه يعرف مدى حزنها، لكن لو
عرفت ما يعرفه فلن تحزن لحظة واحدة على الأستاذ، ان ما
ارتكبه هذا الرجل في حق الخطط يفوق أي تصور، ولكن لا
داعي الآن.. المهم أن تشعر رونق الجميلة بالراحة، قالت
متجاهلة كل ما قاله انها جاءت لتستعيد بعض أوراقها
الخاصة، وانها لا تفكر في التردد يوميا، قال منفلا انها
تستطيع البقاء في البيت وارسال مقالة مترجمة، أو تحقيق
منقول عن أية صحيفة عالمية، قالت بهدوء أنها لم تفكر بعد في
يجب ان يكون. أطرق، افعل الارتباك، قال ان لديه ما يود
أن يوضح به، لديه ما كتبه، ما لم يجرؤ على النطق به، لكن
الى متى..

وفيه زعق برنق:

تعيش جلالة الملكة..

بدا لها ضحكا، متين الرقبة، صاح برنق متسائلا، م
يحين الأوان؟ متى يعين ساعيا في الدار؟ متى تصرف له حلة
في الصيف؟ وحلة في الشتاء؟ فكرت رونق في الأستاذ، في
برنق، في التنوخي، ابتسمت لمح برنق الابتسامة.. زعق:
تعيش جلالة الملكة..

وفيه ظهر برنق في ساعة مبكرة، على غير عادته بدا

إلحاقه بأي عمل، لكن أبوه يقف غاضباً، يتهمة بأنه لا يرغب في التعليم، وأنه كسول، ولن ينجح أبداً، بعد صمت يقول أنه لا يريد له البهدلة، يتمنى أن يراه مع اسماعيل وقد حصل على شهادات عالية، باع ما وراءه وما أمامه حتى يصل بها إلى ما وصل إليه، يرق صوته، يغمزه تأثر حتى أنه يقبل خالد واسماعيل، تحتج أمها بدلال، ليترك الولدين لمذاكرتهما، كثيراً ما قال بدون مقدمات، شوف يا خالد يا بني، من لم يجرب الوظائف الصغيرة لن يعرف الذل أيضاً، قبل دخول خالد مدرسة التجارة المتوسطة طلب منه أن يضع المصحف على عينيه، وأن يقسم على استمراره في الدراسة حتى يحصل على مؤهل عال... على أية حال لن يطول الوقت، بعض زملائه التحقوا بوظائف، سيساعد أباه، ويشتري ما يشاء من كتب، ودولاب قديماً صغيراً يصف فيه ما كتبه.. وفيه تطلعت إيثار إلى مجدي رمزي، لم تخف ولها أثمان جلوسها في الحديقة، سيسافر الليلة إلى باريس بمفرده، يوماً ستسافر معه، عند ذهابه لتسلم الجائزة.. أية جائزة.. ستقف بجواره فخورة..

وكتب عرائض كثيرة، رفعت إلى جهات متفرقة.. واشتعلت حرائق على أوقات متباعدة.. وقتل أربعة من المعجم في أوقات متفرقة داخل المعتقل

وهبت رياح سريعة، ورياح متوسطة، ورياح لم تتجاوز سرعتها ميلاً واحداً فلم تهز قمم الأشجار.. وأقسم أحد العمال أنه رأى روتق مع برنق في سيارة واحدة، قال مستمعوه إن هذا تخريف مبین..

ورن التليفون في بيت الدكتور فهمي صبري:

أنا صنية عزت الفنانة التشكيلية.

ردت الزوجة بأنها لا تذكر صاحبة الصوت، ثم قالت بحزم:

لا.. ليس عندي أخبار عن الدكتور..

وتأمل الوتيدي طفله الذي لم يتعد عمره دقائق، أمسكت المريضة أنفه، عاط عياطاً نحيلاً، أدركت الوتيدي حيرة، لم يدر ما يفعل!!

وفيه شعرت سميحة أن كرامتها جريحة، أضمرت غيظاً، استعادت أيامها القصيرة التي تلت زواجها بشكري، تعبها من أجل تكوين البيت، ادخار القرش فوق القرش، حماسه المفاجيء وشراءه هدية بكل ما يملكه لحظتها، تحتج، لكن احتجاجها يخفي فرحاً، وعندما طرقت الباب في الفجر ودخلوا بدون أية مقدمات دهشت لأنه بدا وكأنه يتوقع ذلك، وأخيراً تكشف أنه أخفى عنها علاقته بامرأة أجنبية، تعيش في إيطاليا، جاؤا بخطاباته التي وصلته إلى عنوان

عمله، تذكره الايطالية بالساعات السعيدة التي أمضيها معا
مضى حدث ذلك؟ تعرف شكري منذ خمس سنوات، كل م
قاله انه أحب بنات الجيران من طرف بعيد، لم يقل انه سافر
الى الخارج، متى تعرف اليها، وأين؟ أشار الضابط الذي
يرتدي الملابس المدنية، الى طوابع البريد الأجنبية، بدا
وسيا، مهذبا، قال انهم ترددوا قبل اطلاعها على الخطابات،
لكن اتصال زوجها بهذه الفتاة الأجنبية يزيد موقفه تعقيدا...
وفيه أمر التنوخي بعدم ذكر الاستاذ في مكاتب الدار
أو المطابع، أو أروقتها، وكلف الوتيدي بمتابعة ذلك، وأصدر
قرارا بإزالة اسم الاستاذ من صدر الصفحة الأولى باعتبارها
مؤسسا للأنباء.

وفيه قال شيخ المرابطين انه سيتحدث اليهم عن سيدنا
الحضر، أمل الأمل، ومن انقطعت بهم السبل، ومن اضاعتهم
الطريق، وأضنتهم الوحدة، قال ان سيدنا الحضر مشى في
أحد الأسواق، فلقى فيه انسان، قال له تصدق علي، قال سيدنا
الحضر: ما معي شيء إلا أن تأخذ بيدي، وتدخلني السوق
فتبيعني، فأخذ الحضر وأدخله السوق فباعه بأربعمائة درهم
لبث عند المشتري اياما لا يستعمله في شيء، قال له: استعملني
فقال انك شيخ كبير وأكره ان أشق عليك، قال: لا يشق
علي، قال: قم فانقل هذه الحجارة من هنا الى هنا، وكانها

الحجارة لا يمكن لسته أنفار نقلها في يوم كامل، فنقلها في ساعة
واحدة. ثم ان الرجل طلب منه ان يضرب له لبنا لقصره فاذا
بسيدنا الحضر قد شيد القصر في مدة وجيزة، فسأله الرجل
متعجبا. من انت؟ قال: أنا المملوك الذي اشتريته. قال:
سألتك بالله ان تخبرني من انت؟ فقال ان مثل هذا القسم
أوقعه في العبودية. أنا الحضر، سألتني سائل بوجه ربي ان
اعطيه فأمكنته من نفسي فباعني، فبكى الرجل، وانكب
عليه ليقبله، وأعطاه أربعمائة دينار. فأوحى الله اليه، قد
أنجيتك من الرق، وأعطاك الرجل مكان كل درهم دينارا.
لتعلم ان لا يخسر أحد من معاملتي..

وعند القرية النائية، قرب الخلاوي، اقترب سليمان
الصغير من الراعي العجوز، كان يظنه أبيه، قال: يا ابتاه، ما
أرمني شيئا بحجر الا قتلتني، قال الراعي، أبشر يا بني لن
يغلبك أحد، عاد سليمان الى الراعي العجوز، يا أبتاه، لقد
دخلت بين الجبال فوجدت وحشا. لم أخف منه، وقفت
أمامه، وعرفت ما ينوي قوله لي. قال الراعي العجوز: ابشر
يا بني ستعرف كل حيوانات الخلاوي ولن يؤذيك أحدها، عاد
سليمان الى الراعي العجوز، يا ابتاه، رأيت سوقا داخل
الخلاوي، فيه مالد وطاب، لكنني البائع الوحيد والمشتري

الوحيد. قال الراعي المجوز، ابشر يا بني سيكون عمار
الخلاوي على يديك..

الميدان الكبير

.. وتصب فيه كل الشوارع، وتلوح منه كل الأسوار،
واليه تتجه كافة الخطى، ومنه تبدأ الطرق والمداخل
والمرات الى المشارف ثم الضواحي، والمناطق البعيدة،
والأحياء العامرة المأهولة، والخلاوي الحرة المبهولة، مدخله
واحد ومخرجه واحد، ولا بد لكل شخصيات الخطط من
اجتيازه، أول شخصية عبرته جريا، برنق العبيط، بدأ يعدو
الأنه توقف في منتصفه تقريبا، فرد يديه، رفع ساقا وخفض
الأخرى، زعق معلنا انه نام مع رونق، ضاحعا أربع مرات
في ليلة واحدة بعد أن تقعه في الحمام ساعة كاملة، أغرقته
بالمطور، ثم قبلت كل جزء في جسده، وقالت له مع طلوع
النهار انه الوحيد، الرجل الحقيقي ولا منافس له. في هذه
اللحظة اقترب من برنق أربعة عمال، صاحوا به ان يكف،
صفه أحدهم على قفاه، مد آخر عصا طويلة نحس بها ضلوعه.
انتفض هائجا، دار على نفسه مادا ذراعيه الى كافة
الاتجاهات، لكنه لم يصب أحدهم لبعدهم عنه. صرخ

« ستزوجني يا أولاد الكلب... »، وصل زعيق برنق الى سمع الجمعيدي، لو عرف بأمر كهذا داخل الشوارع والأسوار لهرع من فوره الى الحلاء غير المطروق، يقص ما سمعه ويفضض عن نفسه، خاصة ان رونق آذته، وفضحته بعد رفضها الاصغاء اليه في شارع الوشاية، لكن الأمر يختلف هنا منذ فترة، يتبع تعليمات الدكور السواري، لا يعرض نفسه للانفعال، ولا يبذل مجهودا فوق طاقته، لا يجري ولا ينهض فجأة، ان خوفا يستبد به، انه يخشى موت السكته، يصفي في الليل الى دقات قلبه محاولا اكتشاف الخلل، تمنى لو انه يحتلق الكذبة التي أصبحت حقيقة، أراد ان يحمي نفسه من النقل أو الفصل، لكن الأمر تحول الى مصيبة، أشد ما يخافه مصير ابنته بعده. البنت تقور بسرعة، من يراها يقدر عمرا بعشرين سنة، وهي لم تتجاوز الرابعة عشر، اكتملت انوثتها وكل شهر قمري تنزل الى الصيدلية تشتري قطنًا طيبًا، و تحفيه أثناء صعودها السلم، حتى انه لفت نظرها الى ذلك فوجيء بها تقول له ان كل النساء يحدث هن ذلك ولا يود ان تغيب عن عينيه لحظة، خاصة في هذا الميدان الفسيح المظلل بغيوم ثقيل، والمعرض للهواء البارد الذي يثير دوامات صغير من التراب والورق القديم وبقايا الأشياء الغامضة، انه يتركها في البيت بمفردها، يصحبها دائما، وعندما يمضي ليشتري

شيئا ما ويتركها مضطرا في حديقة النقابة. يحذرها من كلام الشبان المصول، وعبارات الغزل، ويلمح الى أساليب الاستدراج المختلفة، أشد ما يثير اضطرابه تصويره لها عارية مع أحدهم، اما لم تغب عن باله، ما يضايقه منها صمتها الدائم، انها تمشي بجواره في الميدان، لا تهتم بالنظر الى برنق الذي راح يعدو متجها الى الضواحي، ينظر اليها متسائلا، هل سمعت ما تقوه به هذا العبط، يخشى الا يجدها بجواره في لحظة ما، يزوعه ان تظهر عليها علامات حمل مفاجيء، يجذبها اليه، يخاف مشيها تحت أسلاك الترام الكهربائية، ربما تسقط فوقها فجأة، يحرص على تجنب المشي فوق الكباري. خوفا من انهيارها، أو إصابته بدوار يسقط بعده في الماء، يحذر صوت الخطى في الليل، خاصة بعد ان حذره العناني من اهتمام ادارة امن الخطط به، واستفسار بعض الضباط عنه، صحيح.. ألم ينظر اليه أبو ستة بعينه المعوجتين، وصلته بادارة الأمن معروفة، في الصباح يقوم من النوم، يهدأ عندما يرى الأشياء، سمع عن كثيرين استيقظوا وفوجئوا بظلام دامس، وظنوا أن النوافذ مغلقة، ثم صرخوا رعبا، طوال النهار يتحسس أجزاء جسده ليكتشف أي ورم قد يحدث في وقت مبكر، انه يتكئ على ذراع ابنته الآن، على وجهه أسى، حتى قدرته على السخرية وهنت، الأمان مفقود، ظن ان الأمور ستصير

الى الأفضل بعد اختفاء الأستاذ. لكن أيامه تبدو الآن حلة
بالنسبة لفلاسة التنوخي، وسوء خلفه، وصغره، وخطة شانه
الكلب، عندما سمع ان الكولي أصدر كتابا صغيرا جمع فيه
مختارات من الشعر القديم هاج، ولم يهدأ، كيف يصدر أحد
المحررين كتابا وهو ليس له كتب بعد. أحال الكولي الى
التحقيق بتهمة الاهمال في العمل والانشغال بأمور خارجية
وأعلن انه لن يهدأ حتى يكف الكولي عن تأليف الكتب، أم
يفصل فصلا نهائيا، أقدم على ما لم يكن الأستاذ يفكر فيه
انهاء عقود الكتاب الكبار في الخطط، قال في اجتماع عام في
عصر المقالات المدججة انتهى، وان الصحافة هي صحافة الخط
فقط، وقال ان الأستاذ ارتكب جريمة في حق العاملين لأن
هؤلاء الكتاب كلّفوا الدار أموالا طائلة، ان الجمعيدي يحظر
الآن معرفته بالشعر أو الأمثال، أو الأدب، لا يدرى
ينتظره في المشارف، أو الضواحي، ماذا سيجري بعد عبور
الميدان الكبير، هل سيختفي تماما من الخطط، أو سيظهر
لفترة محدودة، لا يلفت النظر، وربما بعث الضيق والملل
أما ما سيجري بعد يوم أو سنة لأبش، فهذا لب هذا
وشاغله. انه يلمح أفرادا عديدين يقفون في أعزاء الميدان
الكبير، تبدو على ملامحهم سمات السرية والمجدية، أم
الخطط، انهم يدققون في ملامح العابرين، ويراجعون ملفاتهم

بعض الشخصيات، واحتلات تطورها في المشارف ثم
الضواحي، بعضهم يحمل أجهزة لاسلكي صغيرة يتحدثون
هنا فيها، يتزايد العابرون، تقف كريمة العرجاء فجأة،
تشاغل عن خطبتها الذي بدا واضحا انه يشها عبارات
الغرام، أو شكوى أو لجوى، انه طويل القامة، مفرد
الصدر، مضيء الوجه، كثيف الحاجبين، أسود العينين،
التفت اليه، خلعت الدبلة الذهبية، قالت بحزم إن العلاقة لا
يمكن أن تستمر، علا صوتها الحشن، ارتعشت يدها، تناول
الشاب عن السب، قالت إنها لا يلبقان ببعضها، كاد يبكي
وهو يرفوها أن تمنحه فرصة، فرمى قاطبة ألفت صوتها نظرا
بعض العابرين يرغبون بالمشقة كل منهم بنفسه، قالت ان ما
أمرت به تجار الموبيليا يجب أن ينقذ، أو ما طلبت منه ان
يقسم، أقسم، عندئذ أعدت الدبلة الى راسها واستمرت،
تقدمه بخطواتها لها، الدكتور الطويل، انه عشي على مهلي،
لم تلتفت نظره، مع انها ظلت أقرب الناس اليه طوال أعوام
عديدة، قليلون من عارفوا به رثا على ما تزعج أي توقيع عنه،
يراهم يجتمعون الآن، سكان منفصل، وكأنهم يعرفها، بل ان
ما يجري في الشوارع والأهوار قبل عرض عيونه له الآن
مستعصيا على النهم، يلوح نائبا، سعيدها، مضرب وكأنه لم
يكن، لماذا غطت أمور الناس؟ ماذا اقامه الشح فيما لا يخصه؟

والأم آلت الأمور، كيف من الممكن أن يعيش حياته بشكل أفضل، لم يسافر مرة واحدة خارج الخطط، لم ير الدنيا، لم يمكنه العودة الآن إلى بداية الشوارع، حتى الأستاذ اختفى، قبل عبور الميدان انتهى من رضاء مقبرته، أنفق نصف مدخواته عليها، شيد المقاول حجرتين صغيرتين تحت الأرض، واحدة للرجال والأخرى للحريم، أنه مقطوع من شجرة، لم يتزوج، ولا أقارب له، أوصى بأن يدفن بعض الموتى الذين لا يملكون مدافن، لا يريد أن يبقى وحيداً، ليشاركه رقبته الأبدية من لم يعرفهم في حياته، ومن لم يرهم، تريد كثيراً بفردته بعد إتمام أعمال البناء، دخل حجرة الرجال، فقد فوق الرمال الحماقة، انتهى إلى الصمت المطيب، الصمت الذي لا ضام له، والبرودة، وتوقف بالدور، اللطف، اللطيف، ما تمناه الاجراءات لكي ينفق اللطف الآخر من مدخراته على شجرة لبنة صغيرة، قضى المدخل، كما فرش القدم بالطين، وبنف تنافوي الرمال، ليظلل النبات الأخضر، انه يتوقظ الآن، يوغل بعد في الميدان، ماذا بقي له في الخطط؟ الناح متشغلولة عن بعضهم، بالتزحوف الصمت لا يشغل كل منهم عن أحبائه، من ضحبه ولا يدري لماذا ينتظره في الشارف الضواحي، ان يقيلاً ينمو داخله بكل ما يجري عارض زائل، لا بد ان يختفي، أن يستمر لولا بلا جدوى، أتم مهمته

في الخطط، يعيقه الخواء والمرض عن الاستمرار، لا يريد أن يصبح من الزوائد، أو عالة على الأحداث، ما يريد الآن الرقاد، رقاد بطول، ينحرف مساره، ولبطء خطاه لم يلحظ رجال الأمن في البداية تغير مساره، أوقفوه، في صوت ضعيف قال ان المسافات تطول، ولا جدوى منه، وانه يفضل ان يتجه بنفسه قبل ان يسقط ولن يجد من يحمله. أجرى أحدهم اتصالاً، بعد دقيقة أو ما أحدهم له، وعلى مهل راح الطنبولي بنأى عن الميدان. عن الخطط.

تزايد الحركة بالميدان، تبدو وجوه عديدة لرجال وموظفين، وجوه أخرى لا يعرف أصحابها، رجال ونساء من مختلف الأعمار، بينهم مشي جعفر الساعي متجهاً، لقد دفعوه دفعاً إلى عبور الميدان، لم يشأ مفادرة مكانه في آخر الشوارع، رفض تماماً أن يعمل في خدمة التنوخي، قال إن اليد التي امتدت بالقهوة إلى الأستاذ لن تمتد إلى أي شخص آخر، لها علا قدره، لم يتقدم باتجاه الميدان إلا بعد ان لاحت له امكانية عمل في جهة أخرى، ويقال إن رونق سميت في سبيل ذلك، اختفى الأستاذ، لكن نفسه في كل مكان، يثق جعفر انه سيظهر فجأة في مكان ما من الخطط، عندئذ يبادل النظر في صمت، ويتبعه، انه الوحيد الذي رافق الأستاذ منذ طفولته حتى اختفائه، يعرف

ان الوفاء يزعم الأستاذ، خاصة اذا جاء من ساع يسير
يقف في مواجهة نذل كالتنوشي، الا خلاص من الأمور التي
سدد اليها حراجه، لكن جعفر مستثنى. يقترب منه الآن ثلاث
من راكي الجمال، بدا ظهورهم غريبا، صاح أحد رجال
الأمّن، لماذا يتجهون الى المشارف ثم الضواحي ولم يبد أثرهم
في الشوارع والأسوار. جاء صوت غامض في الجهاز الصغير
يقول ان هذا غير صحيح.. سبق ظهورهم عند السور الثاني
انهم يسعون في أثر البعض، وعند نقطة معينة من المشارف
ستوغلون في درب غير مطروق يؤدي الى البحر الأعظم،
سواء الميدان عبرت اسراب متتالية من الطائرات المقاتلة
وطائرات الاستطلاع بعيدة المدى، وعلى الرغم من عدم
اهتمام أحد حتى الأطفال لانشغال الكل بالمصير، الا ان رجال
الأمّن الشريرين ردّدوا بصوت مرتفع، انها طائرات سلاح
الخطوط تقوم بدوريات مفاجئة لحماية العابرين من الأعداء
تشكف الحركة، يظهر ذوي الملامح القريبة، لم يلفت ظهور
أحد، تمشي هدى الحلاوي متمهلة، فارحة، عزيزة الانوار
تفيض بالرغبة، ترتدي ثيابا مجددة الملامح والحبايا، في
هذا لم يلفت نظر أحد وغازها ذلك. لكنها تمت الامتناع
أحد الصحفيين العاملين بالأنباء، بادها التنوشي، الحب ار
شهور كاملة، أكل وشرب ورقص عاريا كما ولدته امه وقبل

لا يصح تقبيله في بيتها، اشترت له من روما، من باريس، من
كان، ولدن، من الممكن أن تقبل أي شيء عدا الذي
رأته بعينها عندما استيقظت في القجر لتجد مكانه خاليا،
لتفاجأ به يبت الخادمة هيامة يقول لها ان باطن قدميها
أنظف من سقف خلق سيدتها المصابة بمرض سري، لم تشهر به
خوفا منه، من قدرته على تشويهها، بعد انقطاعه عنها،
فوجئت بأخبارها تشر يوميلها واسمها يذكر بمناسبة وبدون
مناسبة، لكنها خافته أكثر، لم تفكر في طلبه أو استئناف
علاقتها به، أشد ما تخشاه ان تلمحه هنا، تعرف جرائه
وبجأته. لكن التنوشي كان يعبر الميدان في هذه اللحظة من
نقطة بعيدة تقرب من أطراف السور السادس، ملاحه
تغيرت، انه أكثر استلاء، حضوره يوحى بالأهمية وانه
مسؤول، انضم الى أولئك الذين يحتلون المناصب والمراكز
الياقة حول رقبة نظيفة، حتى الشارع السادس كان يستحم
مرتين في اليوم، ويدعك جلده بالصابون واللوف الخشن، لكن
القميص يسخ بعد نصف ساعة، حيرة ذلك وعجب لأولئك
الذين يرتدون اللباسات البيضاء يوما كاملا وتظل محتفظة
بنصاعتها، انه يتحدث الآن على مهل بعكس طريقته التي
عرفت بها، يشير بالقلم الرصاص كما رأى مسؤول كبير من
سكان الضاحية البعيدة، وينهر المكتب بأصابعه قبل الرد كما

يفعل أحد كبار الضباط بإدارة الأمن، منذ فترة اشترى
سيارة من أموال الدار، حرص على قيادتها بنفسه، كان
يتجول بها في الشوارع، يحرص على اخراج ذراعه المشية من
النافذة، وتناول منديل ورقي من العلبة التي وضعها فوق
لوحة القيادة، عندما يعترضه أحد المشاة يسب بصوت عال
هؤلاء البهايم الذين يمشون على الأرض، ويشتم السائقين
الآخرين ويلعن من منحهم رخص القيادة، وعند رؤيته امرأة
ينظر إليها داعيا اياها للركوب، وبعد تجاوزها يعلق بصره
بالمراة العاكسة لعلها حسنت ترددا، أو قد الخطى لتلحق به،
كذلك راج يردد عدة الفاظ مرتبطة بالسيارة، فمن ذلك
قوله: «رأيتك عند طلوعي من المراج...»، أو «كسر على
أثناء دخولي الطريق...» أو «ركبت بصوبة ظهر اليوم
بسبب الازدحام الشديد...» أو يبدو عليه الأسف اذ يقول
«عندي خبطة في الرفراف الخلفي، لا أدري حتى الآن
سببها...» وأثناء مشيه مترجلا يحرص على امساك حلق
المفاتيح والتلويح بمفتاح السيارة البارز الظاهر، واستمر على
ذلك زمنا حتى هسن اليه أحدهم بأنه لا يليق بمن كان في مثل
مكانته ان يقود السيارة بنفسه. عندئذ أصدر قرارا بتعيين
سائق خاص، وألبس حلة زرقاء وقبعة، وجلس في المقعد
الخلفي، وكان يفرده الصحف أو بعض الأوراق في السيارة

حتى يواحي بأهمية منصبه، وفي أيام الحر يخلع
جاكته ويعلقها الى النافذة، ويفك رباط العنق قليلا،
ويتطلع بضيق الى الخلق، من الأمور التي استجدها أيضا نشر
صورته مع القفال اليومي له، وقد التقط له البيجرمي مجموعة
من الصور، صورة يبدو فيها، صورة يضع اصابعه على رأسه
مفكرا، صورة ينظر فيها الى جهة ما، وعد التوخي أول من
نشر صورته مع مقال أو تحقيق، وأول من صدر تحقيقاته
بعسارة «التوخي يكتسب من باريس... أو لندن، أو
أثينا...»، ان مقابلته الآن صعبة، والدخول عليه لا يتم الا
من خلال كريمة العرجاء، غير انه كرر ظهوره المفاجيء في
أروقة الدار، كان يستمتع برد الفعل على وجوه المهرجين أو
السعاة. أو العمال، عندما يجدونه فجأة في الصالة، أو المطبعة،
أو في أحد الأروقة يمشي ثم ينحني فجأة متناولا ورقة ملقاة أو
عقب سيجارة ثم يزعق مناديا اقرب الساعة اليك مؤنا، موحا،
انه يتمنى الآن لقاء رونق في المشارف أو الضواحي، لن يهدأ
له بال حتى ينالها، انها محتفية الآن، لكنه يثق من ظهورها،
ورسوها بين ذراعيه، عندئذ يفك الغارها، ويحتل نفس الموضع
الذي احتله الأستاذ زمنا، يضطرب قليلا، يرتبك الى حد ما
عند تذكره للأستاذ. لكنه يتالك نفسه ويمضي بخطى ثابتة.
بينما تمرق في الأعالي ثلاث طائرات مقاتلة، على مقربة تقف

ليس كسل ما في نفس المرء يدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

يتلفت حوله، لحسن حظه ان الجميع متشاعلين عنه وعن
أنفسهم، أوغلوا في الميدان مسافة، والأرض مرصوفة الآن
بججارة سوداء مصقولة، وثمة مصابيح قديمة الطراز، منقوشة،
الجدوع بورود وأطفال تثبت من اكثافهم أجنحة.

يتردد فجأة صوت معدني، مصدره خفي، يتذكره عدد
كبير، انه مذيع قديم، تخصص في برامج الأطفال، شعر
الكثيرون بحنين غامض الى أيام ولت، انه يتلو نصوص
خطابات وصلت اليه من أطفال يدون رغباتهم حول
الوظائف التي يطمنون الالتحاق بها في الضواحي...

مها سعد تمني ان تصبح دكتورة..

أحمد عهدي.. مهندس مطابع الكترونية..

يا كينام ممتاز.. مذيعة..

محسن النجومي.. ضابط أمن..

خليفة محمد.. طيار..

فتحى الهادي...

من مكان ما في الميدان زعق صوت: «الطف بنا يا
مولانا فيما جرت به المقادير»، مشى ثلاثون شابا، أعمارهم

امراة عجوز، ترجو العابرين ان يدلوها على أثر ابتها،
تري: هل تعيش؟ أم ان صاحب الأرواح كلها تذكرها لو
عادت اليها خيرية. لو جاءتها، لو نادتها الآن، لن تفرط فيها
أبدا حتى لو تسولت، لو أكلت الخبز الحاف بالدقة والملح، لا
أحد يصني اليها، لا أحد يستمع وخيرية هي كل ما خرجت
به من الدنيا؟ انها تتقدم على مهل، يدفعها اتجاه الحركة، الى
أين؟ لا تدري.. سألت رجلا يبدو هادئ الملامح، من أين
الطريق الى تركيا يا بني؟ نظر اليها الهلالي بعينين باردتين،
كانه لم يصغ، كأنه لم يسمع، هل تقصد المحوز التلميح الى
أمر ما؟ الايقاع به؟ أم انها امرأة مجنونة؟ أم انه اختبار
سري يجري لشخصيات الخطط قبل الخروج من الميدان
الكبير؟ سمع ما تردد في الخطط عن مثل هذه الاختبارات
الغريبة والتي ستجري بطرق متعددة. أي طريق من هنا
يؤدي الى تركيا؟ بل أين تركيا نفسها، تركيا، نقض
الكلمة من رأسه. يريد الوصول الى أطراف المثار بدون
متاعب، أو مضايقات، يعرفونه في الخطط كمحرر فني، لا يهم
الا بالهياقة، والأخبار الناقصة، من تروج من؟ ولولا النسائين
الجديدة لهذه أو تلك. انه يرجف الآن حشية ما تردد في
ذهنه فجأة، طفا بيت شعر قديم لا يدري قائله، أو متى
سمعه؟ لا يدري من أي حن يظهر في عقله، يسيطر عليه
لحظات...

متقاربة، أطوالهم متساوية، ملاعهم متشابهة، يلوحون بأيديهم،
 يركون شفاههم، لا ينطقون، لم يلتفت اليهم أحد... آثار
 منظرهم فرح حافظ الذي فصله الاستاذ منذ زمن بعيد، لو
 ان الظروف مواتية لجمع توقيعات هؤلاء الشبان على عريضة،
 يرفعها الى سكان الضاحية البعيدة، يرجوهم افراح مكان له
 في الخطط، انه يحاول الوصول الى الضواحي، هناك سيجمع
 توقيعات معارفه وأقاربه وأهل الخير على عريضة يشكو فيها
 الاستاذ الذي فصله، رماه الى عرض الطريق واضطره الى
 العمل من الباطن في عدة دور صحفية، يكتب للآخرين
 ويقبض أقل القليل، اضطر الى العمل كاتبا في طابونة، يقيد
 عدد أرغفة الخبز الخارجة، وأحولة الدقيق، ضيعه الأستاذ،
 لكنه لن يفقد الأمل، انه يلوح الوتيدي، أطول العابرين
 وأضخمهم، والحقيقة انه أثر الانتظار، تردد طويلا قبل
 خطوه الى الميدان، اعتصم بنهاية السور السادس، استعاد ما
 جرى له، لم يشعر بأي رغبة في الخطو الى الميدان الكبير،
 يكفي ما جرى، من يدري ماذا ينتظره في الضواحي؟ لم ير
 خيرا في الخطط، يظهر غير ما يبطن باستمرار حتى في بيته،
 كان بمفرده، أثيل مع أمها، يحيطان بالمولود، أصبح أبا. أثيل
 لا تحدثه عن الطفل، ومن قبل لم تخبره بحركته في بطنها، أو
 متاعبها في الحمل، بل ان تربيّات الطبيب والمستشفى تمت

بعيدا عنه، تولاهما الدكتور السواري، عندما يود رؤية الطفل
 تتصدى له هي وأمها، تمنعانه بحجة انه نائم، أو يرضع، أو
 يغير ثيابه، أصبح مكروب النفس، موجوع الفؤاد، لم يعد
 يناقش، أو يبدي استفسارا، كل ما يطلب منه يؤديه، سواء
 في البيت أو الدار، التلويح لا يهتم به، كأنه لا يوجد في
 الخطط، كأنه لا يبذل أضاف الجهد الذي يبذله الآخرون،
 كريمة العرجاء طلبت منه الاستمرار في مخالطة العمال، يذكر
 بأسى الخضر، طالت غيبته، كان يلقاه بعد خروجه من
 الوردية واقفا عند عربة الفاكهة، يقول الخضر ان الولد يحب
 الموز، في التقى حدثه عن الكلمات التي تعلمها، وحركاته
 الجديدة، كان الخضر رقيق النفس، صافيا، لا جد ان أحدهم
 قرر ابعاده عن ابنه كما أقصوه عن أمه، انه حزين، يمرور،
 لأنهم استخدموه ضد الخضر، طلب التلويح منه أن يردد بين
 العمال اخبارا عن اعتراف الخضر على آخرين، وانهياره، وان
 قوات الأمن تراقب الذين تعرف عليهم، وسيقبض عليهم
 قريبا، ردد ما أمر بترديده، ليته يستطيع الرجوع ولو الى
 شارع واحد، ربما أصلح بعض ما فسد، لكن هيات، ثمة قوة
 خفية، هائلة، تكمن في الخطط، وخارجها، تشمل
 القريب، والبعيد، الأصدقاء، والأعداء، تمتع الجميع من
 العودة ولو خطوة واحدة، واذا استمر معتصما بنهاية الشارع

السادس سيختفي من الخطط، سوف تقصيه القوى التي لا راد لها، ربما أصبحت الأمور أفضل في الضواحي، تقترب منه عجوز ضامرة، وراءها امرأة شابة بيضاء تحيط رأسها بطرحة سوداء، تحمل طفلا تجاوز الثالثة، بدت العجوز متينة رغم انحنائها، قوية رغم هزالها، ضيقت عينها، أطالت النظر اليه وهذا ما لم يفعله أحد في الميدان لا يشغال كل إنسان بنفسه، لكن العجوز كانت مهمومة بالمرأة ابنها، وحفيدها، صاحت بصوت اضنه الشيخوخة: «انت وأمثالك لم يمنعوا الرزق عني، وعن الثابة، وعن ابن ابني.. جئت مع الضباط وعساكر البلدية.. نعم.. انت.. قلبم البيض في الشارع ويهدسوني آخر، هذلة، بعد انصرفكم قالوا لي.. لماذا لم تستجيري بالطويل، المريض، انه صحفي وربما يعرف ابنك، فقلت وهل استجير من لا يرحم؟ أترك أمرك لصاحب الأمر...»، لم تتوقف العجوز، نأى ثلاثهم عنه، عن بصره، طواهم الزحام، صاح الوتيدي بلاء المنجرة «أمي.. اسمعيني يا أمي»، لكن الأوان ولى، والفرصة فاتت، والزحام يضع العالم ويحي القسبات، في السماء حامت حداة على ارتفاع شاهق، ثم بدت ثابتة كأنها ترقب الخلق، مرة أخرى تردد صوت المذيع يعلن رغبات الأطفال:

عمود سامي.. مهندس..

أحمد فوزي.. دكتور..

برهان عاشور.. موسيقار..

واتسعت عينا المعلم كرشو، لم يصدق، المعلم الياس بنفسه، سبحان محيء العظام وهي زميم، نحى بعض العجائز عن طريقه، تخلص من عجوز تسأل بالحاج عن الطريق الى تركيا، ودرويش يحذر من الأعداء ويطلب من أهالي الخطط اتقاء الله، والاتباء الى ما يجري. يقول كرشو لنفسه، هو بعينه، يمك ذراعه، يتعلق به.. معلم الياس.. معلم الياس، مضير الحي الى اللقاء، لكن الرجل لم يتحرك، قال ان اسمه «المجيدي»، اي الياس هذا؟ بحار كرشو، يتلفت حوله، هل يلح بعض الأصحاب القدامى؟ يعاود النظر، اختفى الياس مرة أخرى، لا يصدق أبدا ان الرجل اسمه المجيدي، وانه شخص آخر، انه الياس، الخالق الناطق هو، يقترب ثلاثة جنود، يطلبون منه الاستمرار، الا يتوقف، هذه المنطقة ستخلي، مساجين المعجم سينقلون الى الضواحي، الحراسة مشددة، احتياطات الأمن مكثفة، تقترب مركبات رمادية ضخمة، لاحظ الدكتور فهمي ان السماء رمادية، وتبدأ ببرودة الجوء، ومن الوقت، يدنو النهار من نهايته، عرفوا سرا أنهم ينقلون الى منطقة نائية في الصحراء قرب الخلاوي، تعلقت عيونهم بنواقد مستطيلة في واجهات مباني قديمة عند أطراف

الميدان، من بعيد بدت ظلال العابرين تتحرك بعزل عز
الأجساد، نداء يتلوه نداء، يتلاشى صدى. يعلو سباب
شتائم، يتلاشى، يزعم صوت مستفسرا عن الأحوال وكيف
ستبدو في الضواحي؟ لا يجيبه أحد، من كان سيصدق أنهم
سيرون السماء من مواضع مختلفة، تدثر كل منهم بذكرياته.
انعدم الحوار، مثل هذا الاستغراق يخشونه داخل العنابر،
عندما يغطي أحدهم عينيه بيديه، وتكرر منه ذلك يسارعون إليه،
يمدون حبال الوصل قبل أن يخوض في التيه، لكن الآن، أثناء عبورهم
الميدان فلا مانع أن يخلو كل منهم إلى نفسه، يتذكر أحدهم
حجرة في بناية أو ناصية عند شارعين متقاطعين. أو رائحة ليلة
صيفية، أو صوت طفل يعلو فرحا، أو نسمة هواء، أو دفقة
رياح حركت ترابا مدسوسا في خواف النوافذ. أو مقي
ومقاعد، وبخار شاي ساخن، وشذا من سنوات بعيدة. إن
الحضر مطمئن لعبوره الميدان بصحبة المعجم، لو أن الأمور
مضت بخلاف ذلك لكان عبوره الميدان عاديا. لكنه لا يندم
عرف معهم أمورا لم يكن يعرفها، عاش سنيها عديدة، ورأى
من يصعب عددهم، لكنه معهم رأى أشياء لم يرها، عرف ما لم
يجده في سير الرواة، أو مؤلفات الكتاب المعتمدين، علما
أحدهم أن الظروف هي التي تصنع الإنسان، والإنسان قادم
على صنع ظروف أفضل، تعلم أن الشيء لا يوجد إلا وتفيض

معه، وهذا ما تعنى عنه العيون، الحياة في الموت، والموت في
الحياة، علمه آخر الأدب، واختار له ما يجب أن يقرأه،
عرف أن المعجم يتحملون الأذى من أجل آخرين لم يسمعوا
بهم، ولم يعرفوهم، ولم يروهم، ولن يلتقوا بهم في أي قسم من
الخطط، وأنهم يبنون دنيا تفيض عدلا وسلاما بعد أن ملئت
هذه الخطط ظلما وجورا، تعجب، لماذا يسمون بالمعجم؟ قال
الدكتور فهمي، أننا نعرف خارج الخطط بغير ذلك، هكذا
أطلقوا علينا داخل الخطط، احاطونا برهبة، ليخيفوا
الناس، ويقصوهم عنا، المهم ألا نضل، ألا نتعد عن عمل
من أجلهم فقراء الخطط، وذلك لب جهدنا، عندئذ يلتزم
الرأس بالجسد، اقترب ضابط يرتدي ملابس مدنية، ابتسم،
قال انه يأسف لما حدث في الأسوار، انه يثق بهم، وبقدرتهم
على تجاوز الحزازات الشخصية، أنهم ينتقلون إلى الضواحي،
إذا كانت بعض الاجراءات قد اتخذت فكل شيء قابل
لإعادة التفكير، توقف لحظة، مر على وجوههم الصامته بعينه
الهادئتين، جدد عرضه، قال ان امام كل منهم فرصة الآن،
فرصة لترحيله مباشرة إلى الضواحي، حيث يمنح وضعا
أفضل، وظيفة دائمة في الخطط، ومرتب، سنساعده في
الحصول على مسكن مناسب، فقط، ما عليه الا الوقوف، ثم
يطل برأسه على الميدان، ويعلن بصوت يمكن سماعه انه لا

علاقة له بالمعجم، وانه نادم على اعتناقه فكرهم، قال أحدهم
 انها وقاحة. تراجع الضابط، قال انه ينتظر، أرسل في
 استدعاء الخضر، قدم اليه سيجارة مستوردة، اعتذر الخضر
 لأنه لا يدخن. قال الضابط انه يعجب لموقفه، من الثابت انه
 لم يرتبط بهم يوماً، لماذا ترفض اعلان الندم؟ قال الخضر
 انه سيعلم ندمه فعلاً لمرور سنوات طوال قبل تعرفه الى
 المعجم، لم يفقد الضابط هدوءه، سأله، هل يعرف مصر
 امرأته أو ابنه وأمه. قال الخضر انهم ليسوا بمفردهم، أمسك
 الضابط بيده، طلب منه ان يعتبره صديقاً له، ان يصحبه الى
 أحد أجزاء الميدان ليرى بنفسه الشقاء والغلب، لن يتحمل
 ملامح امه الشقية، أما ما جرى لزوجته...، قال الخضر
 ببرود قاس: انت لست وصيا. نادى الضابط على المنصوري.
 باغته بورقة. هل تعرف ما هذه؟ انه طلب الطلاق موقع من
 سميحة المنصوري، هرب الدم من وجهه. ضربة مفاجأة لا
 تمهد لها، قال الضابط: التراجع ممكن، عض صبري شفته
 حرق في السحنة الناعمة، والوجه الجميل في غير موضعه
 والانسانية المفتعلة، احدى مهام الوظيفة، يستدير عائداً الى
 السيارة. تعلقو ضجة، ثلاثة من جنود الحراسة يسكون رجلاً
 يقارب الخمسين، يحمل حقيبة مفتوحة، اشار اليها، مجرد طعام
 جاف، وملابس داخلية لمحمدي، محمدي ابنه، قال الضابط انه

في دهشة لأن رجلاً مثله يعرف الأصول خاصة وانه في جهاز
 الاعلام الحساس، ثم يقدم على مخالفة القانون، قال الأزهرى
 مرعوباً ان الميدان معبر للجميع. قال الضابط ان القانون ناقد
 في جميع أنحاء الخطط، أي شخص خاضع له، ان حمدي ناشف
 الدماغ، متطرف في أعجميته، لا يدري من أين استقلها مع
 انه ابن الأزهرى.. الأزهرى الد أعداء المعجم، لكن الأوان
 لم يفت بعد. من الممكن ان يرى ابنه، ان يسلمه الطعام
 والملابس، ونقوداً اذا شاء، لكن لا بد ان ينصحه بالتخلي،
 لماذا لا يعبر الميدان مع العابرين. قال حمدي بهدوء، «عيب يا
 بابا». خرس قنديل الأزهرى. لم يفقه لفظاً، أغرورقت عيناه،
 استدار مستعداً. انقض أربعة جنود، تحاطفوا محتويات الحقيبة،
 أدرك الضابط نتيجة اللقاء من ملامح وجهه، اختفى قنديل
 الأزهرى، صالح الضابط في اعقابيه. لا تخف، لن نخبر العناني
 انك سميت لتهرب الطعام الى المعجم سرا، في السيارة الأولى
 يتسلم الدكور فهمي، يتحرك حتى يصبح قريباً من المنصوري،
 لو قدر له ان يتخلص من قيده الآن، ان يتجاوز الاجراءات
 الكبيرة والتفاصيل الصغيرة التي تسبق الافراج، من لقاءات
 بضباط أمن الخطط، وأخذ بصريات، والتقاط صور من
 الجانبين، وبالمواجهة، واستلام المتعلقات، لو أمكن له عبور
 الزحام، والاهتداء الى نقطة محددة توجد فيها زوجته وأبنه،

لا يمكنه ان يتناول العشاء معها، وأن يخرج إلى شاطئ النهر قبل ان تخلو الطرقات تماماً. ان زوجته تمضي الآن إلى الضواحي، ساهمة، قبل دخولها الميدان عاودت صنية عزت الاتصال بها، قالت انها تود الاطمئنان عليه. أي صنية هذه؟ لو رآته الآن وأكد لها انه لم يعرف امرأة بهذا الاسم فلن تضيق، لن تقلق، لكن المناسب لا يحدث في الوقت المناسب، ان شيئاً لزجاً، طرياً ينسج حولها، تعرف اساليبهم لتفريق الزوجة وإبعاد الابن، فصلوها من عملها، ثم اعادوها بعد اكتشافهم ان عائلتها قادرة على إعالتها، انها تود الوصول إلى الضواحي، ان تأوي إلى الركن الهادي الذي اعتادته. اللوحات المعلقة إلى الجدران. العلب، التاتيل الصغيرة الموزعة على رفوف المكتبة، تمسك بيد رباب ابتها، كل الأمور مؤجلة حتى يعود فهمي. ربما تراه الآن في الميدان، وقد لا تراه إلا بعد مسافات طوال.

يزعق غجوز ملتح:

أخبروني.. ما هو الموج المكفوف؟

على مهل، سري البلشي بين الناس، انه فرح ولا يدري لماذا؟ مع انه لا يرتاح إلى النظام الذي يتم به عبور الميدان من رأيه ضرورة تسجيل الأسماء الثلاثية، والأوصاف الدقيقة لكل العابرين. ان العديدين لم تذكر اسمائهم، لم يشر اليهم

بكلمة، اما سروره فربما يرجع إلى تمكنه من محرة. هو الذي يقف دائماً يسأل الخارج والداخل، ضاجع كاميليا، عند عبورها امامه يبالح في الانحناء، يود ان يقول ذلك لكل العاملين، خاصة زكريا أبو ستة، انه يشي الآن مزهوا بنفسه لا يرد التحية، يربش بعينيه اذا نظر إليه، ومنذ مياقة لا يشي إلا وخلفه شرطي سري يبرز مسدسه من تحت قميصه. خصصوه له بعد أن هاجم إحدى الجماعات المتطرفة، وتلقى تهديدات بالاعتقال، يقف الشرطي السري ببابه، وأمام مسكنه، ويجلس بجوار السائق في المقعد الأمامي بعد أن امتلك أبو ستة سيارة أهداها له أمير ثري من الشرق أبدى إعجابه بما يكتب. ربح الله أيام وقوفه أمامه برسالة مدير الأوبرا، منتظراً أن يلتفت إليه البلشي، انه فرح ربما لتوقعه بحجى الفرصة أثناء عبور الميدان فيعلن موهبته التي يحفيها تماماً، انه يهوى الغناء، لديه مجموعة من التسجيلات. قام بأعداد مونتاج بدائي، يسجل تصنيف المستمعين ثم المقدمة الموسيقية المذاعة، ثم تصنيف الجمهور، ثم يبدأ هو بالغناء، ان صوته الخنق، متسلخ، لكنه يثق ان الفرصة لم تفلت بعد، الأمل كبير أثناء عبور الميدان، لا زالت طيور تحلق على ارتفاع شاهق، يقال انها جاءت من بلاد الشمال الباردة قبل موعدها السنوي، وتنبأ البعض بوقوع أحداث حاسم لحجى

الطيور في غير أوانها، قالوا: ليقمن في الخطط حدث عظيم،
يسود الميدان الكبير طقس خفيف، لطيف، يساعد العابرين على
تحمل مشاق الانتقال الى المشارف ثم الضواحي. يقول بعضهم:
ان الجو استمر هكذا! وبعد صمت قليل تدب حركة غير
عادية عند أحد أطراف الميدان، يعلن مكبر صوت عن
اكتشاف جاسوس خطير من شخصيات الخطط يعمل لحساب
الأعداء، تم تجنيده منذ البداية، يعمل مفتشاً للصحة، استمر
أخطر المعلومات من أفواه الناس العاديين، في المقاهي
والمحال العامة، والمطاعم التي كان يأكل فيها مجاناً
وظيفته، وهذه المناسبة يدعو قسم مكافحة التجسس
شخصيات الخطط الى عدم التقوى بالمعلومات، والتزام الحرام
النار، ويقول الاعلان ان الجاسوس كان مراقباً منذ اللحظة
الأولى لممارسة نشاطه. ولكن تم تأجيل القبض عليه الى الميدان
الكبير لحكمة أمنية ما ان أصغى الحميدي الى اعلان القبض
على مفتش الصحة حتى تقدم في العمر عشر سنوات في طر
واحدة، تجعد وجهه وأصبح كالليثونة الجافة، الخشن ظهر
وارتفعت أطرافه، ولم يعد قادراً على متابعة خطوات
يرعق عجوز: الطف بنا يا مولانا. يختار الكولي أبعاد
يمكن أن يبدأ منها عبوره، بحيث تطول مدة مشيه، لكن
يضايقه أن الحلاق الذي اعتاد الذهاب اليه مات في

الخامس، لا يدري الان الى ان حلاق سيمضي ويضي عبده
الراحة؟ كان الحلاق رجلاً طيباً، يسلم له رأساً لمدة ثلاث
ساعات كاملة. بين الحين والحين يزيل شعرة هنا أو هناك،
يساوي هذه بتلك، في نفس الوقت يتحدث في السياسة،
والطب، والجنس. ينمي الزمن الماضي. والبيوت الكبيرة في
الخطط التي اغلقت دون الغرباء وأبناء السبيل. كان إغلاق
هذه البيوت بداية خراب خفي سيصبح علنياً، يدع الصابون
على ذقن الكولي. يجلس قبالة، يهتز باكياً، راثياً البيوت
الكبيرة. بكى الكولي لموت الرجل بكاءً مراراً. فوق مرتفع في
الميدان. وتقف كاميليا. انها محاطة بجنديين من قسم حفظ
الأداب العامة بالخطط، منذ لحظت ضبطت في وضع فاضح
خلف شجرة عتيقة. تمكن الرجل من الفرار، صاحت انها
ستقول كل شيء قبل وصولها الى الضواحي، الرجل الهارب،
الذي فر الآن هو جعفر الأسود ساعي الأستاذ، هو ليس
الأول، ولن يكون الآخر، انها حرة، ولا ترى معنى للقبض
عليها، قالت انها عرفت الدمياطي، وانه لم يصمد في الفراش
الا نصف دقيقة، أما العناني فليس له من الرجولة الا مظهرها
الخارجي، لا أمل فيه وإن ادعى غير ذلك، الدكتور الطنبولي
صحبها بعد شفائه الى مقبرة جديدة بناها، طلب منها أن تخلع
ثيابها الخارجية، خافت منه فاطاعته، رجاها ان يقوم بخلع

ملابسها الداخلية، احتضنها: قبلها، ثم طلب منها أن تتمدد فوق الرمال، تمدد بجوارها عاريا، ثم قام بعد ساعة، ألبسها ثيابها، وانصرفا، مجنون ابن مجنونة لا شك، كل ما قاله انه في زمن مضى كان يأتي بثلاث فتيات صغيرات يتمرغ بوجنتيه فوقهن، كان يتغذى بذلك ثم يصرفهن. أما التنوخي فبيلهت وبعض، أحيانا يطلب صفعه أو قرصه. الوتيدي عملاق، قوي ومتين، لكنه في حاجة الى تمرس، الى طول خبرة، قال لها انه لم يستمتع باثيل منذ زواجها، وانه لم يمارس العادة السرية الا بعد زواجه، الدكتور السواري جريء ومندفع، أصر على ذلك في حجرة الكشف والناس في الخارج، يمكن ان يفتح أحدهم الباب في أي وقت. لكن الدكتور يعتذر دائما بأنه مرهق، ولم يبق جيدا، الكولي شكا من زوجته التجرد من ثيابها وتصدر أصوات الألم، وأخيرا تبكي وتقول: سامحي يا رب انها لا تغير الوضع الذي اعتادته، واذا داعبها بكلمة فان وجنتيهما تنخضبان بالحرمة، تقول كاميليا ان أبو ستة لا يطاق لثبات رائحته، ولعابه، والقذى في عينيه. وارتعاشه الدائم كأنه مصاب بصرع. أما الرجل الوحيد الذي أمتعها حقا الثابت، الفعل، فهو البلشي، صحيح.. يضع سره في أضعف خلقه، بعد انتهائه طلب الأكل، جاءته بالرق واللحم فوجئت به يتأوه أثناء الأكل، أطلق صغيرا، وآهات، ثم

قطعة اللحم الساخنة، لم يكف عن ابداء الاعجاب بالطعام، يا عظمة، يا روعة، ثم يقوم من جديد، ولو ترك لما كف أبدا، أما قنديل الأزهري فيغمض عينيه، يقول انه يتخيلها طالبة في المدرسة، اشترى لها زيا مدرسيا، وحقيبة جلدية، كان يصر على مشيها أمامه، وهنا يندفع الدم الى رأسه، ويطلق عرق المتعة في يافوخه وعينيه.

لم يبد الجنود أي محاولة لارغامها على التوقف، بدوا مستمعين بما يصفون اليه، ثم ان الحركة وانشغال الناس عن بعضهم لا تسمح لهم بالوقوف والزحام..

تقول ان الوحيد الذي لم يلمسها هو الاستاذ مع انها انتظرت اياما منه. شخص آخر كان أحق الناس بها لأنه أحبها حبا جارفا، منزها عن الغرض، انه الجعيدي، لكنها لم تشأ ذلك. لم تكف، ذكرت رجالا آخرين. أحدهم تاجر موبيليا، وطالب في الهندسة، ومقاول تركيبات زجاجية، وصاحب مقهى، وطبيب اشترط ذلك قبل اجهاضها، وعشرة عمال من جنوب الخطط تعاقبوا واحدا بعد الآخر..

وعلى الرغم من هموم الناس واهتمامهم بالوصول الى المشارف ثم الضواحي، فان مثل هذا الحدث لم يكن من السهل ان يغيب عنهم، الأخبار تنتقل بسرعة هنا، التنوخي لم يبد اهتماما، قنديل الأزهري سب، تمى الوتيدي الا يصل الخبر

الى ائبل، الكولي ازداد ارتباكاً، البلشي تورد تباها، أبو
 ستة اشهر بدون ان يعبأ وفي اثره الشرطي السري. انه الآن
 واحد من القلائل الذين يظهرون في تليفزيون الخطط عقب
 نشرة التاسعة ليوضح الأحداث. وليشرح ما غمض من
 الموقف، انه يرمش ويرتعش ويخلع النظارة التي نصحوه
 بارتدائها اثناء القراءة ثم يستدير على مهل ممسكا بعضا معدنية
 صغيرة مشيرا الى بعض الخرائط، أو قصاصات من الصحف
 الممنوع تداولها في الخطط كما انه يسند رأسه الى أصبعه
 لحظات، أو يمسك بين يديه بقلم رصاص طويل، وكان يكثر
 من استخدام تعبير «على وجه الاطلاق»، وسرى نبا في
 الميدان الكبير بانه مرشح لنصب كبير في الضواحي. تمر
 كاميليا محاطة بالجنود، يرفض الجميدي ان يصدق كلمة مما
 تترامى اليه، لا بد انهم حققوها بعقار جعلها تهذي. انها مكيدة
 حاقت بالطاهرة، النقية، المظلومة مثله، تستمر الحركة
 تناقض القضايا مع تدفق الناس، في السماء البعيدة تخلق
 الطيور بكثافة، تخلق امرأة تحمل طفلا يلصق فمه بشدح
 الذي أطلت مقدمته من فتحة الثوب، يتساءل الدكتور
 السواري عن لحظة الوصول الى الضواحي، قيل له ان الميدان
 لا يصب مباشرة في الضاحية الأولى أو الحي السابع، أن
 هناك المشارف، ومنها جزء مهم، وأجزاء خشنة صعبة

يعلم المذيع ان الآمال ستتحقق في الضواحي، وأن
 المشروعات الكبرى ستؤتي ثمارها، وأن الانتاج سيتضاعف،
 والمصانع التي لم تعمل ستبدأ الانتاج، جيش الخطط سيصبح
 قوة صارية تخيف الأعداء، أما جهاز أمن الخطط فيحق لكل
 الخطط ان تفخر به الآن، لا مثيل لكفاءته، الخزان الكبير
 سيمتلئ تماما، يومئذ ستكون له مرحلة، كل أنحاء الخطط
 ستصلها الكهرباء حتى الحلاوي. الأرض المجدبة ستصل اليها
 المياه، ستدب فيها الحياة، يتوقف المذيع لحظات، وفكر
 الدكتور عبد العظيم السوافيري في امكانية كتابة موضوع عن
 احتمالات المستقبل في ظل الخزان الكبير، مثل هذا المقال
 سيشر في مكان بارز، وسيظهر اسمه مسبقا بحرف «د»
 كالعادة، على بعد قليل تقدم احد العاملين من الدكتور
 السواري، رجاء ان يجيء ليكشف على شخص مجهول وقف
 مكانه ثم تلت حوله وسقط عند نهاية الميدان بدون ان يحط
 منطق، لكن الدكتور السواري رفض، انه يستقل الآن من
 مرحلة الى مرحلة ولن يوقفه أي حادث أو سبب، ثم من
 سيدفع الأتعاب مقابل توقيعه الكشف؟ خاصة وأن الميدان
 مزدحم، زحام أي زحام؟ في هذه اللحظة يقرب خالد
 من نقطة هامة بالنسبة له. في الميدان التقى والده بأحد أهالي
 البلدة من ذوي النفوذ الشديد في الخطط وتربطه بقيادة العهد

الجمهوري صلات، حياه باحترام كبير اذ انه يشغل منصب
مستشار كبير، حدثه عن خالد ابنه الذي حصل على شهادة
تجارة متوسطة ولم يعمل بعد، أخرج المستشار حافظته، وكتب
اسم خالد. قال انه سيتكلم بشأنه. بعد لحظات التفت الى والد
خالد، طلب منه أن يذهب مع ابنه الى جريدة الأنباء.
هناك سيحصل خالد على عمل مناسب، ينظر التنوخي إلى
خالد، الشاب مقدد الوجه، يذكره بأيام الفقر، يطلب
من كريمة أن تعطيه قراراً بإلحاقه موظفاً بقسم الحسابات،
لكن كريمة تحدثت عن ازدحام قسم الحسابات بالموظفين،
ثم إن هذا الشاب بلا خبرة. والعمل دقيق. نقطة أخيرة
تود أن تلفت النظر إليها وهي صدور قرارات تعيين
عديدة. لو أن الدكتور الطنبولي باق في الخطط... لو...
يطلب التنوخي منها أن تنصرف، يقرر إلحاق خالد بقسم
الاستعلامات، أن يسلم نفسه الى البلشي، يضمم البلشي
انزعاجاً، لأول مرة يفرض عليه غريب لا يعرفه، سيعمل
معه في هذا المكان الحساس، التنوخي لا يستطيع رد أي
طلب فيه رائحة قادة العهد الجمهوري، لكنه طأن نفسه،
لن يتحمل الولد معه أكثر من أسبوعين، ينتفض الهلالي فرعاً،
يعاوده بيت الشعر الذي لا يدري من أية مصيبة رسا في
لا شعوره.

ما كل ما في نفس المرء يدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
بالقرب من خالد يشي مجدي رمزي على مهل،
يتحدث بالفرنسية الى فتاة غريبة الملامح، خلفها تمشي ايثار،
على عينيها غشاوة، وفي روحها غيظ، لا يدع فرصة الا
ويبدي اعجابه بأية انشي. أما هي فكأنها غير موجودة. فجأة
يتوقف شاب مرهق الملامح. يخلع جاكته الصفراء، ثم قميصه.
ثم بنطلونه. يبقى في ملابسه الداخلية، يرتب ثيابه وكأنه
سيحفظها في دولاب، يتجرد من سرواله، يصوب مسدساً إلى
رأسه، تدوي طلقة.. بلفتت البعض، لم يبد على
الآخرين انهم سمعوا شيئاً. مضى كل منهم الى حال سبيله،
فكر العشري: ان دفن الجثمان أمر مؤقت. هذا الكوكب
الذي نعيش فوقه سيتبخر بعد خمسة آلاف مليون سنة بعد
تورم الشمس وتلاشيها، سيطلب حرق رماده واطلاقه في
قارورة الى الفضاء، يتلاشى، يندمج بأعماق الكون.

عند الناحية اليمنى للميدان، أقيم حاجز زجاجي، وقف
خلفه رجل لم تبد ملامحه، ولم يستطع أحد تمييزها. يرقب
انتقال الناس، لم تقع زلازل، لم تهطل أمطار، لم يعرف الميدان
البرد والثلوج، تتخذ المصائر وجهات متباينة، كالقطارات
عندما تتجاوز لثوان في اتجاهين متضادين، ثم يولي كل منها،

تسابق، وقد تتصادم، تتبادل المواضع، سمع من يقول يوما انه عندما يموت ستنتهي الدنيا معه. لكنه لا يصدق ذلك، لا يرى المرء حصاد كل ما يزرعه، لهذا يخالف كل المتشائمين، الفقر لن ينته، والقهر سيزداد، النهار بعده ليل. والأمل يليه اليأس، والصحة آخرها مرض، والتفاؤل مع التشاؤم. المرأة تحمل قتامتها، الهباب نابع من الضوء، كل شيء يتغير كما تقول فلسفة المعجم، لكن ليس الى الأفضل دائما، أحيانا يرى قصورا فاخرة شيدت وظن اصحابها انها باقية أبدا. الآن بعضها مقرات لمصالح حكومية، أو مدارس، لكل شيء توقيت، كل شيء بأوان، لهذا يقول لنفسه: لا تجزعني، بعد الفرج تجيء الشدة، وبعد اليسر عسر، سيضرب الطوق الذي لا فكاك منه. يسجن الانسان داخل جواسه الخمس، لا يبقى الا الاذئاب، لن تزدهر الا الحوافر، تذوي الأحلام، وتقفر القلوب، عندئذ ينسبون ما جرى له. لو قيل للأذى: من حليفك؟ لن ينتسب الا اليه، هو صورته، والرأس منه، وغيره الذنب، عناصر الشر توازره، قوى الانحطاط تعضده، انه راسخ الخطي طالما ازدهر الفقر والجهل والمرض. لهذا يجب الا يحزن، يأمل عابرو الميدان في تحسن الأحوال عند وصول الضواحي. المبالغة مدسوسة في الوعود، أما هو فيعي السبل لتعميم الجهل الفريد، وتنكيس الأبراج الشوامخ، إسكات كل

نابض، ايقاف كل دائر، كسر الزنود، وخسف الأقيار، يعني انه ظل منحصر وغيره باق. ما هو شرق هنا غرب هناك. لكل عدته، ولوازمه، فترة كمون تليها مرحلة ظهور، أي يقين يمكن رؤيته. أو لمسه؟

تذوب حمرة الشفق في رمادية كابية. لو قدر لانسان رؤية اللحظة الأخيرة في عمر الدنيا ستشبه هذه اللحظة، سرت اشاعات بظهور الاستاذ في الميدان، أحدثت اضطرابا، ولكن الزحام بدأ يخف، والظلال تتوارى، والأصوات البعيدة تنأى، شظايا كلمات، طفل يتمنى. عجوز يطلب حسن الختام، سيضي الليل، ويطلع النهار والكل في المشارف، ثم الضواحي كل شيء رتب بقدر، تلاشى الاستاذ في العتمة، تختفي الطيور من السماء، تتلاحم سحب كانت متفرقة، الميدان الكبير بارد، تذوب معاله في العتمة. من السواد انفصلت ظلال، جواد أسود مسرج بلا راكب. تلا شيخ المرباطين أدعية توصل بها الى الله ليهون عبور المخلصين، حدقوا في الليل النازل، بدأوا خطوهم. لمعت نجمة وحيدة، ثم تلتها نجوم، صاح الشيخ: «يا لطيف. يا الله.. السلامة..».

★ ★ ★

..بسم الله الرحمن الرحيم..

لطفه خفي...

.. سبحانك

يا مبعد السنين الرواحل، ومفني الأيام في الشهور
ثم في الأعوام والحواطر، يا خالق الزمان والدهر
والأزل، من يقدر على دفع الأجل؟ لكل أمر
مقدار، ولكل مبتدأ آخر،

في هذه الخطط يمضي كل شيء بحسبان، بعضه خفي
ومعظمه ظاهر، الطف يا عالماً بالنوايا والسرائر، لا يختلف
اثان في أمر ما انقضى بعد أن ولت الشوارع، وتلاشت
الأسوار، تتفق في ذلك الكتب والمراجع، ما تعميه الأذهان،
ما عبرت عنه النواهي والأوامر، يقولون ان ما يفصل ما مضى
عن الضواحي عقد كامل، وهذا حق ظاهر، واقع لا ينكره

إلا مختل أو جائر، لكن ما بدا للنفس عكس ذلك، عقد كامل.. هذا صحيح، لكنه يبدو للبعض كمدة قرون، ثقيلة الوطأة، جعل أحداثاً قريبة تبدو بعيدة، وأموراً دانية تلوح كأنها قاصية، وما جرى في الشوارع والأسوار والميدان كأنه جرى لآخرين، لا يعيشون في الخطط، بل بدا العصر نفسه غير العصر، والأوان معاكس للأوان، والزمان مناقض لذاته، الطف يا محبي العظام، سبحان من له الدوام فوق كل باق أو آفل منها طال، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، صحيح ان الثواني هي الثواني، والساعات هي الساعات، والأيام هي الأيام، يلي بعضها بعضاً، ولا فكاك، لكن ما جرى ويجري في الخطط قلب الثوابت، وغرس المتغيرات، خاصة ان ما حدث عند مشارف الضواحي لم يتوقعه عاقل، ولم يدر بخلد يتأثر ويؤثر، لم يتخيله أي انسان من أولئك الذين عبروا الميدان الكبير او ظهروا لثوانٍ في الاسوار، امور غريبة ونوازل عجيبة، يكفي القول الآن ان جزءاً كبيراً من الخطط وقع تحت احتلال الاعداء، وأن المشارف شهدت كسرة مهولة هزم خلالها الجيش، واصبحت الحدود الثلاثة الممتدة في البر محتلة بالاعداء، ولم يتبق إلا منفذ واحد ملاصق للبحر الكبير في الشرق نأت الشوارع، والأسوار، وأصبح رصد اطرافها من هنا صعباً وثاقفاً، لا

تبدو منها إلا نهايات الشواشي، ملمح، بقعة مندثرة، ذكرى مارقة واخرى عالقة، لنا ان تتصور غرائب الامور، إذا عرفنا ان كثيرين ينكرون وجود العهد الجمهوري الأول للخطط، ويشككون في العهد الجمهوري الثاني، ويدينون العهد الجمهوري الثالث، ولا يقولون إلا بالعهد الجمهوري الرابع، اما العهد الملكي للخطط فأعيد إليه الاعتبار وعد من أزهى عصور الخطط بعد ان أدين في العهد الجمهوري الأول والثالث، سبحان مغير الأحوال، بل ان عدداً كبيراً من الذين عايشوا الاستاذ، وعرفوه ينكرون وجوده، ويقولون ان ذكره لم يأت أبداً في الشوارع والأسوار، يقولون لمعارضيه، هاتوا برهاناً مبيناً، انه آفل، ولا وجود في الخطط للأفلين، لكن..

لماذا نحاول تخطي المسافات؟، لماذا نبغي عبور الأزمنة الصوارم؟ لكل شيء موضع، ولكل حدث أوان..

نقاط التفتيش..

من الظواهر التي بدت في الخطط بعد الهزيمة العظمى، والمصيبة الكبرى، اختفاء الزبي الرسمي لقوات أمن الخطط، واختلاف سحن أفرادها، ولم يعد سراً ان الأغراب أصبح لهم اليد الطولى في ادارة امن الخطط، بل إنهم ظهروا في

نقاط التفتيش المنتشرة لمراقبة كافة الشخصيات وم يعد
 المستهدفون هم العجم القدامى، بل اتسع الامر، بدا جلياً ان
 عدداً من افراد الادارة تربطهم صلات بالاعداء، ضمت
 نقاط التفتيش ارباب السوابق، وقساة القلوب، وغلاظ
 الأكباد، وأصحاب المعاصي، والفسوق، ومفتصبو الاطفال،
 ومروجو المخدرات خفية في الشوارع والأسوار، وفي البداية
 سرت في الخطط كراهية عظيمة تجاههم، وتكونت جماعات
 خفية لمطاردتهم خاصة بعد تأكد الكثيرين من مكاببتهم
 لأعداء الخطط، وإفشائهم للأسرار، ومشاريع الدفاع المعدة
 لصيانة الحدود البرية، وأماكن توزيع القوات، وسلك
 الاستحكامات، وأنواع المدافع والعيارات، ومرابض
 الطائرات، ومدارج الإقلاع، والمطارات الاحتياطية،
 وأبراج المراقبة، ومواعيد تغيير النوبات، وميادين الرماية
 والتدريبات، ودرجة الاستعدادات، ونوعية الكفاءات،
 والطبائع والأمزجة والعادات، وتسرب هذه المعلومات كان له
 أثر كبير في انتصار الأعداء، لكن زمن مطاردة أعوانهم ولى،
 أي ومحاولة الكشف عنهم انتهت، بل انهم ظهروا وانتشروا
 وطفحوا في الخطط وهذا عجيب... بل ان الابتسام لهم صار
 في بعض النواحي واجباً، ومصافحتهم تبعث على الاطمئنان،
 بعد ان كان الاتصال بهم حق على سبيل الخطأ يورد موارد

الهلاك . لكنهم نفذوا واستشروا . وتغلغلوا في ادارة الأمن
 خاصة بعد أن تولى أمورها العناني، أصبح لهم حق تفتيش أية
 شخصية في الخطط، ليس تفتيش الحقائب والجيوب والادراج
 والوسائد وما تحويه المظروفات، لكن ما تخفيه أعماق القلوب،
 وتلايف الضائر، استهدفوا أولاً فرق العجم، وكما اوضحنا
 اتسع مفهوم العجم، وشمل طوائف لم يخطر على بال أي انسان
 انها ستضم الى العجم يوماً، أعدت ادارة الامن وسائل متنوعة
 وازدحمت نقاط التفتيش بوسائل عديدة للاستجواب، اسئلة
 مباشرة، واخرى غير مباشرة، ورصد للألفاظ ودلالاتها، وإذا
 ثبتت أعجمية شخصية ما تمنع من دخول الضواحي، وتقصى
 نهائياً عن الخطط، ولكن لم يتم هذا في كل الأحوال، فتطهير
 الخطط من العجم أمر يستعصي على ادارة امن الخطط، مهما
 اوتيت من قوة ونفوذ وقدرة على البطش، وخبرة في المكر،
 وتوسع في الاستعانة بالأعداء، ان الخيوط كلها ليست في
 أيديهم وان بدا عكس ذلك للتشاؤم او التعجل. أو الذي
 داهمته الخطط بما لم يستطع تحمله، استئصال العجم يناقض
 قوانين الخطط الخفية وهي أبقى من القوانين الوضعية، شمل
 التغيير اوضاع العجم، نشأت طوائف من أجيال كانت تحبو
 وقت ان كان عجم الخطط يقاسون العذاب في الأسوار،
 ولكن هذه أمور يطول شرحها.

كيف تم اختيار المشرف على الضاحية الأولى..

.. وصل إلى الضاحية النائية التي تقع أقصى الخطط تقرير معد بعناية من إدارة الأمن يقول ان الهلالي هو أصلح من يتولى شئون هذه الضاحية نظراً لخطورتها برغم ضيق مساحتها، ومن أسباب ترشيحه، عدائه للمعجم، وعبوره الميدان خائياً من أية أفكار، وحرصه على ألاّ يفعل خلال الحرب التي جرت في المشارف. حتى انه لم يتأثر مباشرة يوم أن سيطر الأعداء على الحدود البرية الثلاثة، إنما راح يرقب زملائه، قرأ افتتاحية الأنباء ونشرات الأخبار المتنوعة، وأصغى الى الاحاديث المذاعة، ليعرف الخط العام الذي يجب على مشاعره ان تتبعه، تردد على مكتب التنوخي مرات، وكان التنوخي وقتئذ مشرفاً عاماً على الدار قبل أن يتولى أمور الحي السابع في الخطط، استفسر عن الخط الذي يجب ان يتبعه. بعد هذا كله قابل الناس بالتعبير المناسب، الذي يبقيه بعيداً عن مواطن الشبهة، كان يفخر دائماً بأن رأسه خلت من كل كبيرة أو صغيرة، وانه لم يقرأ كتاباً، أو صحيفة، حتى «الأنباء» التي كان يعمل بها، وانه لم يردد لفظاً فصيحاً، ما أزعجه وما لم يقله لانسان تردد هذا البيت من الشعر في ذهنه، تلك السفن وهذه الرياح، ولحسن حظه لم

تُحيط ادارة امن الخطط علماً بذلك. استجوب الهلالي بدقة قبل تسليمه مقاليد الضاحية الأولى. استجوبه رجل غريب الملامح، لم يلتق به أبداً في الخطط، سأل الهلالي عن الكتب التي قرأها خلال الشوارع والأسوار والمشارف؟، قال انه لم يقرأ سطرأ واحداً، لماذا تردد في حارة معينة «ارقص للقرود في زمانه..» فانكر ذلك بشدة، هل تردد على أي مسرح بالخطط؟ فقال انه لم ير ستاراً يرفع أو ينزل. ماذا يفعل بالكتب التي تهدي إليه مجاناً؟ فقال انه يتخلص منها أولاً بأول. من هو شكبير؟ قال انه صحفي الماني. من هو أحمد عراي؟ قال انه تاجر فول سوداني. من هو نابليون؟ قال انه لم يسمع به. من هي هدى شعراوي؟ قال انها قوادة مشهورة. ما رأيه في العهد الجمهوري الأول؟ تساءل بدهشة، أي عهد هذا؟ الخطط لم تعرف عهداً جمهورياً سوى العهد الحالي. صمت غريب الملامح راضياً، طلب منه ان يتحدث في أي موضوع لمدة ساعة بدون توقف. بدأ الهلالي يتكلم، ارتبك، تدفق، توقف. ثوان، وكلما انقضت ربع ساعة قدموا إليه ربع كوب ماء صغير ليبل ريقه. تسارعت أنفاسه، وخفق قلبه، لم يعد قادراً على التحمل كما كان في الشوارع والأسوار، لم يكن يمل الحديث لساعات طوال في ليالي السهر عند هذه الفنانة أو تلك، لم يرق له قلب مستجوبه، لم يراع قطرات عرقه. استمر

يتكلم، بدل وضعه مرات أثناء وقوفه، استمر يتكلم، حتى أشار له غريب الملامح. اقترب منه، قال ان لغته مطمئنة تماماً، انها تخلو تماماً من الألفاظ الخطيرة مثل «القضايا»، «التناقضات»، «المنطلقات»، «في واقع الأمر»، «المجاهبة»، «الأهداف»، «التضحية»، «الوطن»، «الفئات»، «التاريخ»، «الثقافة»، «الانتماء»، «التطلعات»، «القوى»، «قد»، «لأن»، بل ان جملة تخلو من حروف الجر، الفاظه متأكدة، بحيث يصعب فهمه، انه تجسيد حي للجهل الذي لا مثيل له، منذ الآن سيصبح مسؤولاً عن الضاحية الأولى أهم ضواحي الخطط إذ تضم كافة ما يتصل بالثقافة من قريب أو بعيد، والأزمان الثلاثة، ومرافق الوجدان، ان ترشيحه لم يتم جزافاً، انه مرصود منذ الشارع الثالث، تعرض لاختبارات خفية، ان مسئوليته جسيمة، خلال هذه الضاحية سيجري تفريغ عقل الخطط، وتبديد أزمائها، ان ما جرى رغم غرابته مجرد تمهيد مبدئي لما سيحدث، يجب صياغة الافهام والعقول طبقاً للواقع الجديد، ومحو ما تبقى من العصور القديمة، والمهد السلطاني الوسيط. والمهد الملكي الحديث، والعهود الجمهورية الثلاثة، له مطلق اليد في استخدام كافة الأساليب، سيجد معاونة من مفكرين قدامى، وصحفيين، وأطباء نفسيين درسوا خبايا النفوس.

غير ان الهلالي ارتبك، تردد ثم امتنع عن منصبه الجديد، قال ان المهمة ثقيلة، لم يعد نفسه لذلك، ان ماضيه وتكوينه في الخطط لا يؤهلانه أبداً، انه أمر جسيم.

لكن غريب الملامح فاجأ الهلالي بسروره، وترحيبه، فرد ذراعيه، قال ان الهلالي لو رحب مباشرة لرسم رسوماً شنيعة، خوفه مطلوب وتوجهه مرغوب.

قال الهلالي انه عاش خاضعاً، يتلقى الأوامر، كيف يتحمل مسؤولية ضاحية بأكملها؟ كما انها ليست مثل سائر الضواحي؟

تغيرت ملامح غريب الملامح، اكتست قسوة وغلظة، قال إنه ما من شخصية في الخطط تدري ما سينتظرها، لا رجعة، وإلا.. فليخرج نهائياً من الخطط.

سكت الهلالي، بعد لحظات فوجيء بانه محاط بعشرات الصحفيين، وجوه جديدة، شابة، يجهل اصحابها، سألوه: ماذا ينوي ان يفعل؟ بدت ملامحه صارمة، جادة، قال: لن أصرح أبداً بما سأعمل.. إنما سأحدث دائماً عن ما عملته..

مطلب في وصف ما تضمنه الضاحية..

.. نختلف هذه الضاحية عن سائر ضواحي الخطط، أنها أقل مساحة، لكنها تحتل موقفاً أكثر أهمية، إذ تقع في بؤرة الخطط تقريباً، منافذها محدودة، وسكانها قلة، ومبانيها ذات قيمة لا توصف، شوارعها فسيحة، وأشجارها ظليلة، والقعدة تحلو في أي ركن فيها، ومصايبها على الطراز القديم، بها المكتبة المركزية للخطط، وعلى مقربة المكتبات الفرعية، بها المتحف الرئيسي لحضارات الخطط، الفرعونية. والرومانية، والفارسية، والاغريقية، والعربية، والمتحف المركزي لآثار الحضارات النائية عن الخطط، ثم المتاحف المتخصصة، متحف لمجموعات السجاد النادرة، الايراني، والافغاني، والصيني، وبجواره متحف للفنون الاسلامية، حوى عجائب المنمنمات، ودقائق التصاوير، والمشغولات، والزجاج القديم المطلي بالمينا، والزجاج المشق بالجبس، ثم متحف الآثار القديم، ثم متحف لأغطية الرأس، ثم متحف حربي للأسلحة، وآخر للأزياء العسكرية، وقسم خاص لمجوهرات العهد السلطاني، وقسم آخر لمجوهرات العهد الملكي المندثر، ومتحف للتيجان الملكية مصنوعة من الذهب الصب والمرصعة بثمانين الجواهر، وقسم لكراسي العرش، ثم متحف للعربات المطهمة التي كانت تجر بالخيول ويركبها ولاة الأمر،

ومتحف للنادر من طوابع البريد، ومتحف لتطور وسائل مكافحة الحريق، ومتحف لتطور زراعة القطن منذ دخوله الى الخطط، ومتحف صحي به أجزاء الجسم الظاهرة والخفية، وأعراض الأمراض مجسدة، وتصاوير علمية، ومتحف للكون به نموذج للقبة السماوية، وأنواع النجوم، وأشكالها، وأوضاعها، ومداراتها، ومتحف لعلوم البحر وما يحويه، الى جانب هذه المتاحف الرئيسية، توجد عشرات الدور الاخرى التي اسماها اشخاص كانوا أصحاب مقدرة فسعوا خلف كل غريب عجيب، كذلك ضمت الضاحية معابد نادرة وصلت سالة إلى زماننا من العهود الوثنية للخطط، وأديرة، وكنائس عتيقة، ومساجد يرجع عمر بعضها الى ألف وأربعمائة سنة، وبيوت من العصر السلطاني كأنها بنيت بالامس، وبوابات عتيقة، وتماثيل من الديوريت، والجرانيت، والبازلت، والصلصال، والخشب، والأبنوس، وسن الفيل، وتمثال نادر في القدم لأم من الخطط تحنو على طفلها، وتمثال عتيق مصنوع من الخشب لشيخ بلد يمك عصا، وتمثال لكاتب يجلس متربعاً ويمسك قلماً، عده الخبراء الوحيد من نوعه داخل الخطط وخارجها، وتمثال لزوجته تجلس بجوار زوجها، تلمس ذراعه بأطراف أناملها في رقة وحنو ما بعدهما بعد، ضمت الضاحية قاعات فسيحة لسماع الموسيقى، وداراً للأوبرا، صغيرة

المساحة، لكن لها منزلة لا تقدر بثمن عند الكثيرين، وقاعات
اخرى صغيرة، ومسارح، وسيرك ضخم به أعداد من
الحيوانات المدربة، وصفوف من باعة الكتب والاسطوانات،
بينهم رجل تجاوز المائة لا يبيع إلا المخطوطات النادرة،
قصاده كثيرون من سائر الجنسيات، وحفلت الضاحية بما لا
يعد ولا يمكن حصره من نادر المعاني..

الهلاي يبدأ مهامه..

.. في البداية طاف بالضاحية، وتعجب لوجود هذا العدد
من المكتبات، والمتاحف والتأثيل، اتخذ مقراً له قرب الجهة
الجنوبية. مبنى من طابقين تحيطه حديقة صغيرة، أنيقة،
طلب فاخر الأثاث لمكتبه، وأقام الحواجز حتى لا يزعجه
طلاب الحاجات مع أنهم قلة هنا. أجهد فكره فيما يجب عمله،
زاره التنوخي المسئول عن المحي السابع وأبدى استعداداه
لتقديم المعاونة او المشورة، لكن الهلاي عامله بجفاء وقلة ود،
ثم اعتكف سبعة أيام حتى كثرت الأقاويل حوله، ثم ظهر في
اليوم الثامن ليفاجيء الكل بما لم يتوقعه أحد منه، بما لا يتفق
مع ماضيه في الخطط، أعلن أول ما أعلن ان ما جرى خلال
عهد العجم لن يتكرر أبداً، وأثار ذلك دهشة، وتساءل الناس
داخل الضاحية وخارجها، متى حكم العجم؟ وفي أي فترة

تقلدوا أمور الخطط؟ انهم نزلاء السجون على امتداد
الخطط، لكن الهلاي أوعز الى الصحف والى القنوات
التليفزيونية الأربع، والموجات القصار التسع والموجات الثلاث
للتوسطه، بأن يتردد هذا المعنى دائماً، وان تعلن اداة العهد
لاعجمي، بل صرح في حديث الى جريدة الأنباء ان الهزيمة
لكبرى التي وقعت عند المشارف تسبب فيها العجم، وان
تتلفهم في الوظائف، واطلاق يدهم، والاصغاء إلى كلامهم،
كل ذلك أدى الى قلة البركة من الخطط، لأن طالعههم مشغوم،
وبما من مكان ظهوروا فيه إلا وحلت به الكارثة، وانعدمت
الثروة، ولحق الهلاي الى مسئولية العهد الجمهوري الأول،
وقال ان عناصر معينة أثرت على القرارات التي اتخذت، مما
يجعل الانسان يشك في جمهورية قادته واخلاصهم، ثم صرح بان
العجم مسئولين عن بعض الأخطاء التي وقعت بعد بناء
الخزان الكبير، وتلك أول اشارة تخص الخزان الكبير، كف
الهلاي ثلاثة أيام عن اصدار التصريحات والتوجيهات. ثم
أعلن لمدة عشرة أيام عن حدث كبير ستشهده الضاحية قريباً،
ثم تحدث عن تعديل القانون القاضي بعدم افتتاح أية متاجر
تخالف طبيعة الضاحية، ووصف القانون بأنه اعجمي.
سنورد. وفي اليوم التالي أعلن عن قرب افتتاح أضخم مجمع
لاطارات السيارات، ليس في الخطط، إنما في المنطقة كلها،

علقت لافتات وشدت سقالات حول قاعة الاستماع الرئيسية والمخصصة للموسيقى العالمية، ظن البعض ان ثمة تجديداً يجري، لكن عرف أهالي الضاحية ان القاعة ستحول الى معرض للاطارات، وأبدى كثيرون انزعاجهم، وجمعوا مئات التوقيعات، لكن الهلالي طمأنهم، وأكد أن الترتيبات أعدت لبناء قاعة أضخم ومجهزة بأحدث الآلات، وانه تم التعاقد على استيراد أرغن هائل لا مثيل له، وهذا وعدة النفوس، وطيب الخواطر، وخلال الأيام التالية أتم عدداً من الاتصالات الخارجية حصل بعدها على توكيل من شركة الاطارات العالمية، أصبح الوكيل الوحيد المعتمد في سائر أنحاء الخطط، لم يخف هذا، ولم يحجبه، بل ظهر وهو يقصد الشريط، ويتلقى التهاني، ثم يولي وجهه تجاه الكاميرا ليشرح مزايا الأنواع الجديدة من الاطارات، وأثار ذلك استنكاراً، وقال خالد لنفسه، انه مسئول قارح، وأبدى التنوخي دهشته من سرعة الهلالي، وعاود الاتصال به مرات حتى يوحى وكأن لم صلة بالتغيرات الغريبة في الضاحية الأولى، لكن الهلالي تجاهله. في الفترة التالية فوجيء أهالي الضاحية باغلاق أقدم المكتبات المخصصة لاستيراد المؤلفات الحديثة، احيطت الفارين بألواح خشبية، وبعد أيام قليلة أزيلت، ورأى المارة أضخم حذاء عرفته الخطط، ديكور متكامل عبارة عن حذاء

هائل الحجم، تحولت المكتبة الى معرض كبير للأحذية الشتوية المبطن بالفرو، تم ذلك بسرعة مذهلة، حتى أن أحد سكان الضاحية النائية اتصل بالهلالي وأبلغه اعجابه، وعندئذ عرف الهلالي انه يلتزم الخط السليم...، في نفس اليوم أصدر قراراً في جمارك الخطط، بمنع استيراد أية كتب من الخارج، وقال إن الرقابة لا تكفي لمنع تسرب أي كتاب يحوي فكر العجم، ثم أعدت قوائم عديدة بواسطة فريق عمل أشرف عليه الدكتور مجدي رمزي استاذ الطبيعة النووية، والحائز أيضاً على ماجستير في الآداب الشرقية، وتقرر منع الكتب المذكورة في القوائم من التداول في الخطط، وتجريم كل من يحوزها، وناشد أهالي الخطط داخل الضاحية وخارجها بتسليم ما يمتلكونه منها، ضمت القوائم كافة الاساطير القديمة، والتقصص والأدعية الفرعونية، والأناشيد الهندية، والأشعار الصينية، والمسرحيات الاغريقية، واليونانية، ثم ظهرت قائمة تضم أسماء كافة أعمال شكسبير وسترنديج وتشيكوف وأونيل وميلر، ودستوفسكي، وجوجول، وبوشكين، وتولستوي، وجوركي، وليونيد اندرييف، ومايا كوفسكي، وكافافيس، والمنسي، والمصري وأبو تمام، ونيرودا، وناظم، وحافظ الشيرازي، والعتار، وزعت صور من مطبوعاتهم على المراكز التابعة لإدارة أمن الخطط، وعد مشبوهاً كل من يضبط

متلبساً باقتناء ولو عمل واحد، ويبدو أن ذلك أحدث رد فعل قوي في الخارج، خاصة لدى الدول الناطقة بالفرنسية، اتصل التنوخي محاولاً لفت نظر الهلالي إلى هذا البعد، لكن الهلالي سأله: هل يضر ذلك أصحاب التوكيلات الأجنبية؟ قال التنوخي: لا، هل سيؤثر ذلك على حركة بيع بعض المؤسسات للأجانب؟ قال التنوخي: لا، عندئذ طلب منه ألا يتدخل فيما لم يحيط به علماً، وبمجرد أن أنهى المكالمة أصدر قراراً بوقف الفرق المسرحية، الهواة والمحترفين، وقرار باغلاق سائر المجلات الثقافية، العامة والمتخصصة، والدوريات العلمية، واعتبار أي إنسان يسعى لإصدار مجلة معارضا للمبادئ الأساسية، وعلى صلة بالمعجم، وأكد أن ما جرى أيام المعجم لن يتكرر أبداً، وكسب الدكتور عبد العظيم السوافيري مقالتين حول الاجراءات الأخيرة، واعتبرها ثورة ثقافية تهدف إلى مراجعة التراث الانساني، وتصفيته، ولكن الهلالي اتصل به وطلب منه الا يعلق على أي إجراء يتم في الضاحية الأولى، وليسرح بمقالاته عند التنوخي في المحي السابع، أم إحدى الضواحي الأخرى، انه يمقت مثل هذه المقالات، وان ما جرى خلال أيام المعجم لن يتكرر، ولاقى القول الأخير رواجاً في سائر الخطط، رددته كتاب المقالات، واساتذته لجامعات في محاضراتهم، ثم فشا على السنة رجال الاعمال

والتجار أصحاب التوكيلات الربوية، كان البعض يجلسون في المقاهي، ثم يتحدثون عن الأحوال ما جرى وما سيجري، يقولون ان الاوضاع صعبة الآن، الحمد لله الذي انقذنا من عهد المعجم، هددوا اموالنا، ومستقبل عيالنا، وضيقوا في وجوهنا سبل النهب، كانوا سيخربون الثروات، ويجهزون على ما أحوته الخطط، دأب المسئولون في الخطط، والمقيمون في الضاحية النائية، على الاشادة الى الفترة التي سيطر فيها المعجم، وعندما افتتح توكيل اجني لبيع الجبن الكاماميرا، والزيتون الكالاماتا الأصلي، أعلن تليفزيون الخطط عن ذلك طويلاً، رحب التنوخي بالصنفين الجديدين، وقال ان ظهورهما خلال حكم المعجم لم يكن ممكناً، ودلل بذلك على رواج الأحوال، وأشار عضو في مجلس الخطط المنتخب الى ظهور الكاماميرا والكالاماتا، والسيارات الامريكية الفارهة، وقال ان هذا دليل رخاء لم تعرفه الخطط من قبل، جرت احتفالات في الضاحية بمناسبة انواع أخرى من الجبن، وخلال مباريات الكرة التي اقيمت بكثافة علقت لافتات ترحب بظهور الجبن النادر، وخلال المآدب، والدعوات، وفي الصالات، مد المدعوون ايديهم بتحفظ في البداية إلى أطباق الشهيات، ثم توقفوا عند الجبن، اهي الكاماميرا؟ وعند الزيتون، اهو الكالاماتا؟ ثم هزوا رؤسهم، لم يكن ممكناً

تذوقها أثناء حكم المعجم، وفي هذه الفترة شحت أنواع الجبن المحلي، وندرت أصنافه، حتى الجبن المالح الذي اعتاد أهالي الخطط على شرائه بأسعار رخيصة، وأجرى الهلالي تعديلات على مناهج التاريخ المدرسية، واعتبرت مرحلة العهد الجمهوري الأول اعجمية متطرفة، ومنعت اغاني هذه المرحلة، وسائر ما يتعلق بها، وبرغم ذلك فقد تم تهريب بعض الاسطوانات، والكتب من مناطق نائية الى داخل الخطط، وبدا الأمر لخالد غريباً، فعلى الرغم من انقضاء سنوات قليلة على العهد الجمهوري الأول إلا أنه يبدو الآن نائياً، قصياً، تذكر خالد سفره الى منطقة قريبة من الحدود البحرية للخطط، مر بمسرح صيفي اعتاد زعيم العهد الجمهوري الأول القاء خطاب سنوي في ذكرى قيام العهد، رأى المنصة مهجورة، المسرح خال، المقاعد محطمة، اشتراها تاجر اخشاب وكومها استعداداً لنقلها، كان البحر قريباً، والليل متقدماً، وشيش الأمواج يدنو ثم يبتعد، يبدو كأنه اصداء غامضة لتصفيق تردد هنا يوماً، تذكر الخطب الملقاة، وهتاف الحناجر، وتصفيق الأكف، قال لنفسه انه كما تخرب الباني وتهاوى فان التاريخ يدب إليه البلى، وان الأيام تقنى، وان الوقع يصبح شديد الوطأة، بالغ القسوة عندما يعيش الانسان لحظات التحول العظمى، عندما تأقل عهود وتجيء عهود،

ولى العهد الجمهوري الأول بعد الحرب التي شنها الأعداء في المشارف، كانت حرباً مباغتة، صاعقة، حارب أهالي الخطط، وخرج المعجم من السجون إلى ميادين القتال الثلاثة، واستشهد عدد منهم حتى المرابطين مضوا للتحريض، والتهيج، كانوا يرون في هذه الحرب عائقاً جديداً يعطل ظهور صاحب الزمان، عرف خالد اياماً عصيبة، وليال طويلة، عندما تطوع مع نفر من أصحابه، ومضوا الى خطوط النار، وشاركوا في الكائن ونوبات الحراسة، لكن الأقاويل تبدل الآن كل شيء، يبدو الأمر وكأن أهالي الخطط هم الذين شنوا الحرب، وان قادة العهد الجمهوري الأول اثاروها بدون داع، وان المعجم حرضوا عليها، بل قيل انهم سلموا أسراراً هامة إلى الأعداء وان هذا هو السبب الحقيقي في الكسرة المهولة التي جرت في المشارف، والتي سببت أوجاعاً، وآلاماً لا حصر لها، وترتب على ذلك احتلال الحدود البرية الثلاثة، شعر خالد ان حلقات الحصار تضيق حوله، وان شهور السجن التي عاناها عندما قبضوا عليه قبل نذر الحرب تهون إلى جانب ما يجري في هذه الضاحية، وضار همه وشاغله، الى اي مدى تتجه الامور في الخطط؟؟، لم يحرص الهلالي على التمهّل، او اتخاذ وقفة بين القول والقول، او بين الزعم والزعم، تتابعت اجراءاته، لا يوقفه أحد، لا يردعه رادع، حتى بدا الأمر

وكان الضاحية دانت له، وأصبحت كالحلوى اللينة بين يديه، أصدر قراراً بتعديل قانون العقوبات الخاص بالضاحية، أدخل مصطلحات لم تعرف من قبل، مثل «احراز الفكر»، «منع التجول الفني»، «تعاطي الخلق...»، وسرت اشاعات بأنه يعمل على سن تشريع يقضي بالحصول على ترخيص للممارسة المهنية، واستعان بعدد كبير من رجال ادارة الامن لحصر القراء، الذين يطالعون بعد انتهاء ساعات العمل، او الذين يحتفظون بكتب لا تمت إلى المناهج المقررة عليهم في المدارس والكليات، ثم طلب من كل شخصيات الخطط تسجيل عناوين كل ما لديهم من كتب في أقرب نقطة تفتيش، ونص التشريع الجديد على عقوبة كل مخالف بجلده مائة جلدة في الميدان الرئيسي. ومنعه من استلام المقررات التكوينية لمدة عام، وإشهار زوجته أو أمه أو أخته أو إحدى قريباته على حمار بالقلوب بعد تجريدها من ثيابها، حتى ما يستر عورتها، في هذه الفترة شب حريق هائل في دار الاوبرا القديمة، واندلعت السنة لهب ازرق غريب حاد لم يعرف مثله من قبل، وتحول المبنى القديم الى رماد في ثلاث ساعات، والتهمت النيران ديكورات نادرة، وملابس تاريخية، ودقاتر زيارات حفل بتوقيع المشاهير والزعماء، ثم شب حريق مباغت في قاعة الموسيقى الشرقية، وذرف عدد لا بأس به من سكان الضاحية

والمترددین علیها دموعاً غزيرة، وانتحر عازف ايطالي عجوز حزناً، وفي هذه المرة لم يبد الهلالي أية نية لبناء اوبرا جديدة، او قاعة بديلة، إنما فاجأ الناس بقوله، يكفي الزمن الذي عاشته هذه المباني، وان الخطط في حاجة الى مواقف للسيارات اكثر من حاجاتها إلى اوبرا، ثم اصدر مرسوماً بإلغاء مادة التاريخ من المدارس، ثم الغاؤه من الجامعات الأربع، واعتبر المؤرخون فئة منحرفة، وابدى عدد من الأطباء النفسيين استعدادهم لمعالجة أفراد هذه الفئة، وعد المخالف خاضعاً لقانون المهن المحرمة، ولم يفهم انسان ما المقصود بهذه المهن المحرمة؟ ولسبب ما اعتبر دارسي التاريخ الحديث من عتاة المخالفين، ثم تلاهم في المرتبة المهتمين بالتاريخ القديم. ثم الوسيط، وكتب الدكتور عبد العظيم السوافيري يهاجم التاريخ وأشباح الماضي، وقال إن التاريخ يشغل الناس عن الحاضر، وما أعظم الحاضر، وصدر قرار برد الاعتبار الى قمبيز، والى جنكيز خان، وتيمور لنك، واعتبار عين جالوت هزيمة منكرة للمسلمين، والظاهر بيبرس سفاحاً لوث يديه بدماء المغول، ووصف طومان باي بالجن لأنه لم يصن الدماء وآثر التصدي لسليم العثماني، وسب سليمان الحلبي، لأنه قتل نفساً ذكية تمت إلى المستثمرين الاجانب بصلة، وعد كل من وقف في وجه أجداد المستثمرين الاجانب خائناً، وقال الهلالي، انه

بعد تصحيح التاريخ يجب نسيانه تماماً، وعدم الخوض فيه، ثم
سمح ببيع الآثار النادرة المكررة، ثم سمح ببيع قطع معينة
من الآثار غير المكررة. وتنبأ شيخ المرابطين بأن هذا
الاجراء ينبيء بوقوع حدث عظيم، وفي هذا الوقت اشتد
الامر بالنسبة للكتب، وكثرت المصادرات، وأعلن الهلالي أن
الضاحية ستصبح قريباً نظيفة تماماً من الكتب، ومن القراءة،
ومن كل ما يكدر الصفو..

فضول التنوخي

أمسكت الغيرة بقلب التنوخي، دهش لقدرة الهلالي
وفُجّره ومعرفته بالمؤلفين والا كيف أصدر كل هذه القوائم،
وشك في انه أعجمي مرتد، اعتنق أفكارهم يوماً ثم ارتد شأن
كثيرين يزحمون الخطط الآن، قام التنوخي بزيارة خاصة إلى
مكان ما في الخطط حيث التقى بالعناني المسؤول الأول عن
أمن الخطط، أفضى إليه بشكوكه، وطلب مراقبة الهلالي لأن
ما بيديه من امكانيات ومقدرة ليس لها أي نذر في الشوارع
والاشوار، لكن العناني أجابه بجفاء، وقال انه يعرف واجباته
جيداً، ويعرف متى يراقب هذا ومتى لا يراقب ذاك،
انصرف التنوخي وبه ضيق، إنه أشد شخصيات الخطط
المحطاطاً، قضى عمراً كاملاً من النفاق الرخيص، امتدح

العهد الجمهوري الأول ثم انقلب عليه في العهد الثاني ثم اشاد
به عندما رد اعتباره في العهد الثالث لمدة أسبوع، ثم راح
يهاجه عندما سحب الاعتبار نهائياً في العهد الجمهوري الحالي،
ان ماضيه في الخطط مظلم، ما من صفحة مضيئة في حياته، ما
من دين سددته، ما من جيل رده، عندما طلب منه ان يتبول
على قبر أمه راح يمضي إليه كل اسبوع ويشهد الناس على ما
يفعله كدليل على اخلاصه، وهكذا تولى مسؤولية الحي
السابع، لماذا لا يصني اليه العناني؟ هل يعتبرونه وجهاً قديماً،
آن آوان تغييره، لكنهم لا زالوا في حاجة إليه، لكن.. نجم
الهلالي يطنى عليه، يتصرف كأنه الوحيد الذي ادرك نوايا
الاستاذ مع انه لم يكن قريباً منه، ولم يكن من خاصته، قام
التنوخي بزيارة اخرى الى الضاحية، ابدى اعجابه بقدره
الهلالي، قال ان تقريراً وصله من هيئة اليونسكو يقول بان
عدد الكتب في الخطط الآن وصل الى ادنى حد له منذ
اختراع المطابع، وان عدد الكتب التي كان يتم نسخها يدوياً
في العصور الوسطى أكثر مما يصدر الآن في الخطط كلها،
أبدى إعجابه باعتبار شكبير ومورياك وسارتر من المعجم،
هنا غضب الهلالي، قال بلهجة حادة، جافة: اعتبارهم، ماذا
تقصد، أليسوا من المعجم فعلاً؟، لأول مرة يرتبك التنوخي في
حضرة الهلالي، الهلالي التافه الذي كان يضطر الى الانتظار

عدة ايام حتى يلتقي به في مكتبه بالأنباء، سبحان مغير
الاحوال في هذه الخطط، وحتى يخفي ارتبائه اضطر الى
الاستئذان بحجة ذهابه الى المستشفى المركزي للخطط كي
يجري بعض التحاليل..

الهلاكي يؤذي معارفه..

اعتاد قنديل الأزهرى التردد على هذه الضاحية سعيًا
وراء الراحة وشم الهواء في حدائقها، انه الآن ضارب في
الشيخوخة، ملامحه أكبر من عمره الحقيقي، بعد ان أكلت منه
الاحزان وشربت أثر اختفاء حمدي، تطوع حمدي في الفرق
الخاصة التي مضت الى الحرب المباشرة والتي جرت في
المشارف، ضاعت أخباره، وتلاشى أثره كأنه لم يكن، ولم يرد
اسمه في كشوف الأسرى، كان خالد أقرب الناس إلى ابنه،
مضى معه، وحارب معه، لكنه لم يشف غليله بخبر، أنب
قنديل نفسه طويلا لانه زعق في وجه ابنه، لانه لعنه أمام
ضباط امن الخطط، لانه تبرأ منه امام العناني، خاصة بعد
ان ضبطوه في الميدان الكبير يحاول تهريب ملابس وطعام،
بكى ورجاهم أن يأخذوا في اعتبارهم انه أب، وان الضنى
غال، حمدي لم يرهقه أبداً، لم يخرجه، لم يرسل أية طلبات من
السجن، عندما خرج من السجن إلى الجبهة لم ير بالبيت،

خرج في البحر نسي بالظن. توقف وعي قنديل عند هذه
المرحلة، لم يدر بالتغير الذي جرى في الخطط، ولم يع زوار
العهد الجمهوري الاول، أو اختفاء الاستاذ، سأل عن الاستاذ
كأنه باق في الخطط ويرفض مقابله، لم يتصور انه تلاشى بعد
أن كان ملأ الشوارع والاسوار، والظل المحلق فوق المشارف.
ثم يقين لديه بأنه لو التقى به سيساعده، سيدله على مكان
ابنه، لم يكن يقضي اوقاتاً طويلة بالبيت، سرعان ما يغادره
تحت الحاح امرأته التي تطلب منه ان يلف في الخطط، لعله
يلمح حمدي صدفة، انه يمضي مردداً بعض عبارات المقالات
التي كتبها تأييداً للعهد الجمهوري الاول ظناً منه بأن العهد
باق، وان الحال لا زال كما هو، ضحك منه بعض اهالي
الضاحية، ولم يلحظ ان تردده على هذه الضاحية يعرضه الى
الشبهة والأذى، لم يلحظ الدوريات اللاسلكية التي بدأت
تجوب الضاحية، وتوقف المارة، ثم تطرح سؤالاً محدداً، ماذا
تفعل اذا كنت ماشياً في الشارع ورأيت موكباً رسمياً؟، ان
الإجابة الصحيحة المعتمدة هي «أقف على الفور ثم اهتف
واصفق»، «واذا كنت تتركب سيارة؟» «اركن الى
اليمين»، والويل لمن يجهل الاجابتين، لم يلحظ قنديل
التغيرات التي لحقت بالضاحية، المكتبات التي أصبحت
متاجر احذية. والجراج ذو الطوابق السبعة الذي احتل موقع

الحرب، فوجيء قنديل بالسناكي مشهرة، والحصار محكم، صاح الضابط:

إذا رأيت موكباً رسمياً.. ماذا تفعل؟

تذكر قنديل فقرة كتبها يؤيد فيها اجراءات ما:

«يجب ان نقف صفاً واحداً، ولن يتم ذلك إلا باستئصال العدو...»

زعق الضابط مأخوذاً بما يسمعه:

إذا رأيت موكباً رسمياً.. ماذا تفعل؟

«ان الخطوات المتخذة لنشر مجانية التعليم، والتأمينات الاجتماعية، وبناء الخزان العظيم..»

صرخ الضابط:

«إذا رأيت موكباً رسمياً.. ماذا تفعل؟»

مد قنديل يده ليضبط الزر، حتى يواصل الاستماع، اسنكته الايدي، وهنا ادركته لحظات صفاء عجيبة، ادرك ما يراد به، قال بهدوء انه زميل الهلالي المنسق العام لهذه الضاحية، لم يصغ احد إليه، بعد التحقيق المبدئي طلب مقابلة الهلالي، لم يستجب اليه أحد، بعد اربعين يوماً من اعتقاله، وبعد نشر أخبار متفرقة عن قضية هامة ستعلن قريباً، ودارت تخمينات بين أهالي الضاحية، عن القضية،

المكتبة المركزية، وقاعة المطالعة المركزية التي أصبحت كافيتريا، لم يلحظ اللافتات التي تهاجم العهد الجمهوري الأول، واللافتات التي تشيد بالعهد الجمهوري الحالي، ولم يلحظ اللافتات القديمة الممزقة التي اهللوا إزالتها وتشيد ببعض منجزات العهد الاول ومن ذلك الخزان الكبير، لم يلحظ عبارات السب التي كتبت بخط سريع فوق هذه اللافتات، انه يأوي الآن إلى ركن ظليل، يجلس فوق دكة خشبية عتيقة، بالقرب منه قطعة رخامية مستطيلة عليها نقوش تركية: اخرج جهاز تسجيل صغير، لا يذكر متى اشتراه؟ بدا عليه شجن خفي، ضغط زرّاً أحمر، علا صوت مطربة قوي، جميل:

جاهدوا ولوا الصفوف..

شيلوا الحياة على الكفوف..

تعاوده ايام الحرب، تحمل الكلمات روائح السنين المولية، يؤنب نفسه لانه قسا على حمدي، يبكي عندما يتخيله محتضراً، ظامئاً، لا يجد انساناً ليغلق عينيه، وفي هذه اللحظة، كانت الدورية اللاسلكية ترصد الاغنية وتتجه الى مصدرها، كانت إحدى الدوريات المزودة باجهزة لالتقاط أية انغام ممنوعة، اضيئت لمبات الانذار، اغنية من فترة

أهي مؤامرة، أم تجسس، أم دعارة؟؟ وكانت الدلالات قد انقلبت، فأصبح يعني إقدام أحد الأشخاص على تأليف بحث ذهني، أو مقالة، والاستعانة بمراجع اجنبية، أما الدعارة فتعني الاقدام على الاعجاب بعمل فني معين والدعاية له، وهذه المفاهيم ليست ثابتة، إنما تخضع الى التغير من فترة الى اخرى، ثم توجيه الدعوة الى رؤساء التحرير، والمراسلين، والمهتمين، وفي بداية المؤتمر ابدى الهلالي اسفه لأن المتهم صحفي قديم، انجب شاباً اعتنق مبادئ العجم، لكن قيل في حينه انه يخلق من ظهر العالم فاسداً، للأسف لم يشأ ان يقضي ما تبقى له من عمر هادئاً، تطفل وجاء الى الضاحية متأمرأ، جاء ليرتكب جريمته، عاش عمره كله مخلصاً للمبادئ الاساسية، أفشى السر، وأدمن النسيمة، ولم يرفض رشوة، لكنه بدأ يستقيم بعد إحالته الى التقاعد، لكن هذا لا يعني أن امثاله كثيرون، ان القاعدة العريضة من الصحفيين منحرفة وفاسدة، واذا كان قنديل مثلاً جيداً، يخلص لعهد مضى، ويردد اغنية مصادرة، فهذا مثال وحيد...، اثناء الحديث توقف الهلالي ليرشف جرعات ماء، استأنف حديثه عن تماسك القاعدة المنحرفة، حملق مرات الى الفراغ وكأنه لا يرى الجالسين، في القاعة الصغيرة المكيفة، قطب عينيه عندما صاغ بعض جملة على هيئة تساؤلات، مط شفتيه عندما ابدى

الاشمئزاز، مد يده مثنياً ثلاثة اصابع فارداً الابهام والخنصر متعجباً، ضرب المنضدة بقبضته مرتين عندما حذر وأنذر، أكد بعض المراقبين أن الهلالي أراد ان يعلن من خلال المؤتمر خطوط جديدة لتطور الامور، من ذلك تبدل المفاهيم وما يستتبع ذلك، اجاب على سؤال أحد المراسلين بقوله ان الاستماع الى مثل هذه الاغنية يعد خروجاً على الاجماع، ومخالفة للوائح، هناك مقطوعات موسيقية معتمدة، جاهزة، تباع بأرخص الاسعار، لقد ارتكب قنديل جرماً لا فكاك من عقوبته، في اليوم التالي جرت محاكمة سريعة، صدر حكم باعدامه، لم يبد عليه انه تأثر، نقر ركبته ثلاث مرات، حار الهلالي، قال لنفسه هذا الرجل يحفظ الشعر القديم، والحكم، والامثال، كان يصحح مقالات الاستاذ، لماذا لم يعلق بقول مأثور، او بيت من الشعر، اقتادوه من قاعة المحكمة الى غرفة التنفيذ، منذ سنوات ألغيت الطعون او النقض، لكن بقي تقليد من الزمن القديم، السؤال عن الرغبة الاخيرة، يقال ان أحد الاجانب اشار بذلك كمظهر حضاري لا يضر ولا ينفع، انتبه قنديل وكأن دلوأ مثلاً غمر رأسه، قال انه يرغب في تقبيل زهرة من نوع حنك السبع، دهش الدكتور مجدي رمزي لغرابة الطلب، لكن اللائحة صريحة، اضطروا الى تأجيل التنفيذ ثلاث عشرة ساعة حتى تم العثور على الزهرة..

« كيف سمع الغناء الممنوع مرة أخرى .. »

.. استنشق الدكتور مجدي رمزي هواء الضاحية بعمق، ومشى في طريق خال، يستعيد وجه قنديل الذي اكسى لوناً أزرق، انه يصر على حضور عمليات الاعدام، وينزل الى البئر مع الطبيب ليجس النبض، لم يتوقف عن ذلك بعد عودته الى الخطط، قضى سبع سنوات مبعوثاً على نفقته الخاصة حتى حصوله على الدكتوراه، بعد عودته ولأسباب غامضة ظهر في الضاحية، كان مقرباً من الهلالي، وعرف انه الرجل الثاني، انه شرس الذكاء، غريب الطباع، عنده أنفة زائدة، يرتدي نظارة طبية إطارها معدني تنزلق دائماً على أنفه، وتجيء نظراته من خلفها حادة، قاسية يجيد عدة لغات، يتقن علوم الرياضيات، واسع القراءة في الأدب، عالم بكل المواقف السياسية، عرف النساء منذ سن مبكرة، ارتبط بامرأة في الثلاثين وهو بعد في السادسة عشر، كانت متزوجة، جميلة، ذكية، ولا ترتدي باروكة، هامت به، وطلبت الطلاق من أجله، كاد الأمر يتطور الى أمور خطيرة، لكنه أفلت في اللحظة المناسبة، انه يعرف الوقت الملائم دائماً، عرف نساء لا حصر لهن، وعندما جُند للخدمة العسكرية لم يذهب الى الحرب التي دارت في المشارف، ولم يطأ بقدمه أرض أية وحدة عسكرية، ولم يلامس جسده الزي العسكري، سافر

بلدناً كثيرة، وعرف شخصيات لا حصر لها، ظل يتجاهل ايثار برغم حبها له، وهيامها به، وحرص عائلتها على زواجها منه، وايمانها بانه سيحصل على جائزة نوبل لاجائه حول تحويل الحديد الى ذهب، وضرورة وقوفها بجواره لحظة تسلم الجائزة في استكهولم، لم يتبادلا كلمة تعبر عن حب، ولم ينفردا، ولم يرقصا، لكن الامور مضت بترتيب خفي محكم، عندما سافر الى الخارج ابدى لا مبالاة قاسية، تجاهل مكالماتها، وتثائب عندما استفسرت منه عما تستطيع أدائه له اثناء غيابه، في المطار راح يتحدث ويضحك ويصافح كأنها غير موجودة، زادها ذلك تعلقاً به، وتأججت نارها، وبعد سفره قضت ليال سوداء تبكي وتتقيأ، وتشكو أوجاعاً لا تحصى، وتدفس رأسها بين وسادتين بالساعات، ما روعها الا ترتبط به، إلا تعايش نبوغه الفذ، واللحظات التي تشهد ميلاد اختراعاته، ثم.. لحظة العمر كله، عندما تقف الى جواره، تواجهه معه المصورين والصحفيين، تجيب على ما قد يوجه اليها من أسئلة بعد تسلمه نوبل، كادت تهلك بعد سفره، نحلت وضمرت، لكن ما خفف عنها تعرفها الى خالد، وخروجها معه، ثم هيامه بها، وحبها لها، الذي اضمره، واخفاه حتى دفعته باللطف والرقّة الى البوخ به، والتعبير عنه، وبعد تصريحه، واعلانه لها انه لا يطلب منها إلا ان تحبه، راحت تتجاهل مكالماته، وترد عليه بنفسها

لتقول ان ايثار غير موجودة، او مشغولة، واذا يغيب او يختفي يومين أو ثلاثة تسعى إليه، وتستفسر عنه ثم تلتقي به، تتخذ نفس الوضع الذي يتخذه مجدي عند الحديث إليها، أو عند تجاهله لها، بل انها تومىء بنفس وقته، ولا تجيب خالد إلا بالفاظ محدودة، معدودة، مثل.. آه، وبعد؟، يا سلام؟، ثم تستدير كما يفعل مجدي، وبعد ان أجريت الاتصالات، وكتبت المخططات، سافرت الى مجدي، وقالت للناس أنها تنوي إعداد رسالة علمية، اقامت معه تحت سقف واحد لمدة عام كامل، قضت حاجاته كلها، لكنه لم يقربها، ولم يقبلها حق، وكان يأتي بصديقاته إلى البيت، ثم يقول لها ان هذا طبيعي، وعلى أية حال فتلك حياته، عندئذ تصمت، كانت مستعدة لتحمل كل شيء من أجل تلك اللحظة الكامنة في رحم الغيب، عندما تنتشر الأخبار، وتطبع الصور بعد أن يتحول الحديد إلى ذهب، البروفيسور رمزي اثناء تسلمه الجائزة وبجواره شريكة كفاحه، كان أثناء ساعات عمله يحملق في الفراغ، او ينقر أسنانه بقلم رصاص، عندئذ تتجمد حركتها، تحشى ان تشوش على أفكاره، في احدى المرات جلست بلا حراك أربع ساعات كاملة، كان يحملق خلالها إلى نقطة ما في الجدار، كادت مثانتها ان تنفجر، لكنها لم تمض الى دورة المياه، خافت التشويش عليه، افساد فكرة قد يترتب عليها الاختراع الذي

سيأتي له بجائزة نوبل، تزوجا بعد سنة ونصف، ثم امضت معه بقية المدة، وكانت سنينا سوداء بالنسبة لها، لكن هان كل شيء من أجل الجائزة، غير انها عادا مباشرة الى هذه الضاحية، فوجئت به يمارس مهام لا علاقة لها بما درسه، ظنت ان هذا درب فرعي يوصله الى طريق الجائزة، ان الدكتور مجدي لا يفكر في ايثار، لا ترد صورتها وكأنها لا وجود لها في ذهنه، انه الآن ينظر براحة الى بقايا الاشجار، لا يخفي اعجابه بالهلالي، شن حملة ضد الأشجار العتيقة، ومتوسطة العمر، والتي لا زالت غرساً، استطاع تجريد الضاحية من الحدائق السبع اللواتي كن مثار اعجاب الرحالة، وتحفة النظارة، وهدفا للمكروبين، والعشاق، لم يترك احواض الزهور، وتماثيل الرخام، والجزر المستطيلة التي تتوسط الطرقات، والبرك الصناعية، والبركة الكبرى التي حار عتاة المهندسين في التوصل الى مصادر تغذيتها بالماء. هاجم الهلالي كافة المشاتل في وقت واحد، ثم محوها، وتفرم أصحابها، وصدر مرسوم تم تعميمه في سائر الخطط، اشاد بقدره الهلالي، وجرأته في الهجوم على اللون الأخضر، واعتبرت خطته مثلاً يجب ان يحتذى، وتسبب ذلك في زيادة حنق التنوخي، في هذا الطريق الذي كان الى وقت قريب مدثراً بالخضرة مشى الدكتور مجدي متمهلاً، مستعيداً وجه قنديل المشنوق من

القناة لحظة الحصار آخر ملامح الحياة، فجأة انتبه الى ان ثمة شيئاً غير عادي يجري، في هذه اللحظة تسلك الى اذنيه صوت ناي شجي، يحوي احزاناً بلا ضفاف، كأنه غروب أخير لا رجعة للشمس بعده، كأنه فناء اليقين، تركيز موجه للنهايات كلها، للتواني الأخيرة في الوداع، وبداية ادراك الاختفاء الغامض، كان أنيناً خصباً في حزنه، يحرك اعنى القلوب، ويرقق الأفئدة الجامدة، ويدفع بالنفس، الى حواف الأسى الذي لا أسى بعده، لكنه الحزن المنذر بفرح، والضيق المبشر بالفرج، والكثمة الموحية ببهجة، اين المصدر؟ تلفت الدكتور مجدي حوله، لم يستطع ان يحدد، بدا العزف آت من كل فج، معلق في الفراغ، نابت من الأرض، لم يكن هذا العزف إلا تمهيداً لصوت مشروخ، رجالي، بدائي، ناطق بلهجة المدائن الجنوبية من الخطط القريبة من الخلاوي خشونة مرهقة، مرهقة، تعكر وتفسل، تدنى وتقرب، ترجف وتجمد:

يا أسمر يا بو الزند صعيدي

حبك بيسري في وريدي..

رفع الدكتور مجدي يديه الى أذنيه، خوف مباغت مبهم أدركه واغرقه، حتى انه نسي استخدام جهاز الاتصال الصغير المزود به كل المسؤولين في الخطط، خوف غريب أدركه، خوف لم يعرفه، ولم يواجهه، انه من القلائل في هذه الضاحية الذين لا يخشون الاستماع الى أية مقطوعة موسيقية محرمة، او

اغنية غير معتمدة، الهلالي نفسه يخاف الاستماع الى الموسيقى الرسمية التي اعتمدها بنفسه، لكن الامر يختلف بالنسبة للدكتور مجدي، لكن ثمة شيئاً ارجفه، اسرع مجري، اتصل بالعناني في مقره الخفي المجهول لكل من في الخطط، لخص الواقعة، وأكد خطورة الناي، والغناء، في هذه الليلة تدفقت على الضاحية عربات محملة بقوات الأمن، وسيارات مجهزة بأدق الاجهزة الالكترونية، القادرة على رصد ديبب الموجات بين أقصى النجوم..

التراخيص بمزاولة المهنة

.. بالرغم من صدور هذا القانون منذ فترة، الا انه صدر من جديد. ثم توالى صدوره عدة مرات وعلى مسافات زمانية متساوية، خصص مبنى لتراخيص من طابق ونصف عند الطرف الجنوبي للضاحية، ضم عدة فروع ترأسها ضابط من الإدارة، وهكذا اصبح من المستحيل على صاحب مهنة ممارسة أي نشاط إلا بعد توقيع هذا الضابط، في البداية طلب من كافة المبدعين المعروفين التقدم للحصول على التصاريح، خصصت استارة لهؤلاء تختلف عن الأخرى المعدة للمبدعين من الشباب وصغار السن، واعتبرت الرخصة صالحة لمدة سنة، تتجدد بعد التحريات اللازمة ويحق لحامل التصريح

شراء لوازمه من أقلام (مختلف الأنواع) وألوان زينية، أو مائية، أو صلصال، أو برونز، أو جبس،، أو نوت موسيقية، وخلاف ذلك، كما يسمح بتقديم الإنتاج الى لجان الفحص لإقراره واعتماده، أما اجراءات ظهور العمل الفني فعدت منفصلة في هذا المبنى يتسلم الداخل كراسة بالمحظورات التي تتجدد كل شهر قمري، ومن أهم المنوعات الثابتة عدم التعرض الى ما يمس الأسس التي قامت عليها الخطط، خاصة في العهد الجمهوري الرابع، أو ما يلمح الى أمن الخطط، الأمن العام، الأمن الاجتماعي، الأمن الفكري، الأمن الغذائي كذلك عدم التعرض لأية شخصية عامة خاصة أرباب الوظائف الذين يتقاضون مرتبات ثابتة، أفراد الضبط والربط، أعضاء الأجهزة المعلنة، ورجال الإرشاد الزراعي، ورجال مقاومة الآفات الراشحة، ورجال الاطفاء، وهيئة هيئة التمريض، والمجالس العليا للأحياء والضواحي، وأصحاب التوكيلات الأجنبية، وضمت الكراسة نصائح بضرورة ظهور القوادين والسماسرة بمظهر لائق يضمن التعاطف معهم، وحظر أي تلميح ولو ضئيل الى أفكار المعجم أو شخصياتهم، وعقب صدور التشريعات اتصل الهلالي بالتنوخي، طلب منه الحضور الى الضاحية لمقابلتة، ثم أمر هام..

كيف تكتب رواية متعددة الأجزاء؟

عند مدخل الضاحية توقف التنوخي طبقاً للنظم واللوائح، سأل الضابط الشاب:

عندما ترى موكبا رسميا.. ماذا تفعل؟
أركن الى يمين الطريق..

بعد اجتيازه نقطة الاستجواب أسرع الى مقر الهلالي، فكر في تطور الأمور بالخطط، لم يشعر بضيق لأن الهلالي استدعاه. كان الهلالي مرؤساً في الشوارع، لا وزن له ولا قيمة، لكنه الآن منسق ضاحية بأكملها، وصاحب هيمنة، ضاحيته من أهم أجزاء الخطط وما يجري فيها سيقدر مصير ما يدور في الأجزاء الأخرى.. قابله الهلالي بمزاج طيب، بدا متشرباً للغاية عنده ميل للدعابة، يومئ ويشير بأصبعه ويمط شففيه كأنه قضى عمره كله يصدر التوانين ويحدد المصائر. توقف لحظة ثم فاجأ التنوخي:

ألا تود أن تصبح قصاصاً أو كاتباً مسرحياً؟

قبل أن يوغل التنوخي في دهشته شرح الهلالي فكرته، أنه يود إحداث تطوير هام في هذه الضاحية، لقد فكر في إلغاء كافة الأجناس الأدبية، لكن بعض الأجانب ذوو الكلمة المسموعة في الضاحية النائية أشاروا بعكس ذلك،

قالوا ان الأدب واجهة لا بأس بها، وان خلو الخطط منه أمر مستحيل، هل يمنع هذا القرار الأمهات من قص الحوادث لأطفالهن؟ بالطبع هذا صعب، قال الهلالي انه فكر في كتابة القصة والشعر والمسرح الى الموثوق بهم، ان من يختارهم بنفسه سيفهم من الحصول على ترخيص لأنه سيمنحه بنفسه، قبل التنوخي بسرعة، قال أن لديه ميول أدبية قديمة، وهي الدافع الحقيقي وراء توجهه الى الصحافة، لكن الأستاذ لم يبدأ اهتماما. لعنه الله أينما كان الآن..، طلب الهلالي منه ان يبدأ نشاطه فوراً، قال الهلالي إنه سيسمح له بكتابة الرواية ذات الأجزاء المتعددة، وسيحصل على مكافأة ضخمة، أبدى التنوخي تأثره لهذه الثقة الغالية ووعد بتسليم أول رواية متعددة الأجزاء خلال وقت قياسي، بعد انصراف التنوخي، خشي من اقتراح الهلالي، ربما يخفي مكيدة يريد بها تحسين صورته، هل من المعقول أن يؤثر الهلالي دون الآخرين، لكن ربما اقترح ذلك بناء على طلب من الضاحية النائية، ثم أن يكتب الرواية بنفسه؟ لن يدع أية ثمرة تنفذ منها السنة التأويل، والدرس، انه يتأمل الضاحية، في كل مرة يجيء يجد تغييرا ملحوظا لا يخفى، سمع قبل مجيئه عن الحملة التي نظمت ضد أستاذة التاريخ، والباحثين، والمنقبين، إرغام عدد كبير منهم على الاستقالة والالتحاق بوظائف عادية في

مكاتب تصدير التراث التي افتتحت أخيرا، رفض بعضهم بما دفعهم بسهولة الى ادارة أمن الخطط، أرغمت قلة على الهجرة الى بلاد نائية لا بد من الطيران لمدة أسبوع حتى يمكن الوصول اليها، ان السهولة التي تمر بها الأمور هنا ملفقة للنظر حقا. لكن هل تم ذلك بين يوم وليلة؟ هناك جهود لا تنكر سبقت الهلالي، ثم الإنهاك الذي لحق بالناس أثناء الانتقال من الميدان الكبير ثم المشارف، والحرب المباشرة، ايقاع الزمن أصبح سريعا في الضواحي، وهذا مخالف للشوارع والأسوار، أهو شعور فردي؟ أم سمة تصاحب الذين اقتربوا من الخمسين، يرتعد اذ يفكر في الموت، نفذ خواء الضاحية اليه، لا يصدق ما قيل فيما مضى عن جمالها، وطيب هوائها، لم يستطع تذكر اسم منشئها الذي أجرى اليها القنوات، وفجر عيون المياه، وأتى بغريب النبات ونادر الأطيار في طرقاتها كان الود يصفو، وتتعانق العواطف، وتؤخذ العهود رونق.. أين رونق الآن؟ كيف أصبحت ملامحها، ماذا تغير في الجسد الضاح بالأنوثة والحيوية، الذي يعرض كل مواضع فنته من خلال تلافيف الثياب، أين هي؟ أين حضورها الذي يرفع حرارة الجسم؟؟ يغير دقات القلب، نفث ذكراها عن ذهنه، لو رصدوا هذا لسبوا له الأذى، ذلك وفاء غير مستحب، لماذا تهاجه صورة رونق؟ للضاحية تأثيرها الذي لا ينكر،

انتبه فجأة الى غناء .. نعم، بالضبط غناء مصحوب بأنغام
وترية مشجوجة:

يا اسمر، يا أبو الزند صعيدي

حبك يسري في وريدي

انه يرتعد، غناء ممنوع، ما يخيفه انه لم يتبين المصدر، من
يفني؟ من يعزف؟ أيغني ذلك فشل الهلالي؟ أم أنه اختبار
مفاجيء يتعرض له، للغناء وقع ضاغط، ثقيل يسري الى
أغوار نائية، ليعدو، ليخرج من الضاحية، ليتصل بالعنان في
مقره غير المرئي...

نصيب الشعر..

.. عاتب الديماطي زميله القديم، «أليس لنا في الطيب
نصيب؟» كيف تذكر التنوخي، ولم يفكر فيه؟ هل نسي أنه
قارض للشعر بنوعيه، العمودي والحر؟ ضحك الهلالي، لا
داعي للفضب، أي الأقسام يفضل؟ قال انه ليس أقل شأن من
التنوخي، انه رئيس مكتب تحصيل العمولات الخفية، وهذا
منصب حساس في الخطط، كما أنه آخر من تولى رئاسة تحرير
الأنباء من الجيل الأول، لن يقبل الا بتصريح له قيمة، مثل
الرواية، قال الهلالي ان الديماطي عزيز عليه وزميل عمر،
والأدب كله متاح له، لكن التنوخي حصل على ترخيص

بكتابة رواية، ان قطاع الشعر خالي في الضاحية، لماذا لا
يجرب نفسه فيه؟ قال الديماطي انه يقبل اذن كتابة ملحمة
تسأل الهلالي عن معنى الملحمة؟ قال الديماطي إنه شعر كثير
مرصوص في كتاب واحد، لم يبد الهلالي مانعا، ويبدو أن
الحوار أوحى إليه باجراء جديد. أصدر لائحة مكملة لتنظيم
الخلق والابداع. بالنسبة للروايات المتعددة الأجزاء،
والملاحم الشعرية، ومسرحيات الفصول الثلاثة، تقرر ألا
يتصدى لهذه الأصناف إلا ذوي المناصب الرئيسية في
الخطط، أما الرواية متوسطة الطول، والمسرحية ذات الفصل
الواحد، والقصيدة ذات التفعيلة الواحدة، فلمن هم في
مستوى المدير العام، أما القصة القصيرة والقصيدة الغنائية
فلأصحاب الوظائف من الدرجة الممتازة، كذلك بالنسبة
للوحات الرسم، اذ قسمت الى أحجام، يقابل كل حجم درجة
إدارية، ويمنع من هم دون ذلك التصدي لهذه الأنشطة، وعد
هذا التشريع مناقضا لما سبقه، اذ قصر أمور الخلق على
أصحاب الوظائف الرسمية، المعتمدة، بل أنه منع الموظفين
من ذوي الأصول الفقيرة، اشترط ألا ينحدر القصاص أو
الشاعر أو الرسام من والدين فقيرين، وألا يكون الأب قد
مارس أعمالا مخلة بالشرف. مثل كسب الرزق من عرق الجبين
طوال العمر، أو الكد من أجل العيش وتربية الأولاد أو

رفض فرص السرقة والرشوة، أو أبناء العائلات الفقيرة الذين تفوقوا في دراستهم وسعوا الى اختلاس ساعات ليقروا فيها الكتب غير المتداولة، أو ارتكبوا جريمة تثقيف النفس، وتفتيح المدارك واعتبرت الاجراءات احراز الموهبة، وعدم الابلاغ عنها جريمة تعرض مرتكبها لتهمة الاخلاص الدائم. في هذه الفترة نصح بعض المستشارين بالتروي في اصدار هذه الاجراءات، أو تقديمها على دفعات حتى يتقبلها الناس، لكن الهلالي رأى عكس ذلك. وقال إن اسلوب السيناريو لا يصلح لهذه الضاحية، ليس هنا ما يخفيه، أو يخجل منه..

المقاهي..

عرفت الخطط عامة، وهذه الضاحية خاصة، بالمقاهي، لم يستطع انسان حصرها أو ارجاعها الى زمن معين، كانت الضاحية تزدهر بالمقاهي القديمة، أشهرها المقهى الشرقي، كانت فسيحة هادئة، تحتفظ بأزمنة قديمة وعبق لا مثيل له، داخلها مقاصير مستورة بالخرز الملون، عرفت بالشاي الأخضر والقهوة العربية، والزنجبيل، والترجيلة الأزميري، في أيام الحر تظل رطبة، هادئة، لا تفارقها الظلال، اذا رفع انسان صوته فسرعان ما يدركه خجل، فوق جدرانها اقفاص حمام غريب، ولوحات زيتية غامضة، وقطع اثاث عربي قديم أركانها تشع

روائح عطور ومجنور، تنتهي بعض زواياها نهايات مفاجئة، يوحي ما خلفها بمصر آخر، لا يبدو إلا في الأحلام الغريبة، كثيرون من الأجانب قصدوها، كثيرون من الشعراء هجعوا الى أركانها، يحاولون اقتناص الأفكار، والصور، في الفراغ يتزج البخار والرطوبة والمهس، كان مقهى عزيزا على نفوس عدد لا حصر له، في البداية ترددت اخبار عن مستثمر اجنبي ينوي شراءه ثم مضت شهور لم يتردد خلالها أي خبر، كان ذلك قبل مجيء الهلالي، وبعد توليه أمور الضاحية زار المقهى، وأعلن عن بناء من ستين طابقا مكيف بأكمله سيقوم في هذا المكان، أخذ الناس بالقرار، بوغت محبو المكان، والمترددون عليه، لكن الترتيبات جرت بأسرع مما يتصور انسان، انتزعت ملكية الورثة، لم يحصلوا على أبيض أو أسود، سمح لهم ببيع محتويات المقهى اضطروا الى بيع النجف النحاسي والخشي والأوبالين القديم بأرخص الأسعار، كذلك ألقم الكريستال العتيق، وأطباق صينية، ونرجيلات تركية وفارسية وهندية، ولوحات بعضها يمثل أدق التفاصيل في الضاحية خلال القرن السادس عشر، بيعت المقاعد التي لم تفارق مكانها منذ عشرات السنين، والدكك الخشبية العريضة، ومناضد الرخام التي فاحت برائحة السكر والشاي وعبير النعناع، قبل ان يهوي أول معول هدم، مات الحمام

داخل الأقفاص المعلقة عند المدخل القبلي. وطق زجاج
الواجهات البحرية وصهل جواد صاحب المقهى الذي توفي منذ
سنوات صهيلا عاليا، وضرب برجليه الأماميتين في الهواء، ثم
همد، كان جوادا من أندر الأنواع أصيل السلالة، كان
صاحب المقهى يمتطيه في أوقات معلومة قبل الغروب ويطوف
به قرب المقهى، وبعد أن أدركه الكبر، وعاقته الشيخوخة،
صار يجلس فوق دكة قديمة والحصان بالقرب منه، يشرف على
إطعامه، ونظافته، ومداواة قروحه، وفي مواعيد ركوبه
القديمة كان يأمر عماله بوضع السرج واللجام عندئذ يزم
الحصان برأسه ويرفع رجلا ويخفض الأخرى، ثم يزوح وبجي
مرات أمام صاحبه الذي يغمض عينيه حيناً أو يتنهد متحسراً
أحيانا أخرى، واذ ينزل الغروب، ويعتم النهار، وتظلم
الشموع العتيقة، يفك اللجام والسرج، تبدأ حركة الحصان
ولا يسمع صهيله عبر الليل، إلا همهمة أو دمدمة، وعندئذ
يتمدد صاحب المقهى فوق الدكة لا يتحرك الحصان ويبعد
وكأنه تجمد تماماً، ولا تفزعه افطع الأصوات قرباً، ولا تحركه
أرق المداعبات، عاش الحصان بقرب الدكة الخشبية بعد
رحيل صاحبه. لكنه هوى ليلة الهدم، تشققت الأرض
وغاضت المياه من حول النافورات الرخامية، وفي الليل
تقوضت الجدران كأنها لم تكن وسبب ذلك خوفاً للعمال.

خاصة بعد أن تألم أول من رفع معول الهدم، وسرت اشاعات
بأن ثمة ولياً من أولياء الخطط مدفوناً تحت أحد الجدران
وأنه اجهر على المقهى قبل ان يجهزوا عليه، وأنه سيعاقب كل
من تمتد يده، حوالي التاسعة صباحاً فزع العمال وانصرفوا عن
المبنى، ضاعف لهم المهندس أجورهم. لكنهم رفضوا، وعدت
هذه الواقعة فاصلة اذ أمر الهلالي بعدها باستيراد العمال
الأجانب الى الخطط. خاصة من كوريا الجنوبية، تلا ذلك
قرار بازالة كافة المقاهي ولم يستثن حتى هذا الدكان الصغير
الواقع بين منزلين يمتان الى العصر الوسيط، لم يضم إلا مقعداً
خشبياً عريضاً محلياً بنقوش دقيقة، تمثل الأنس والحيوان
وكانت مشهورة بتقديم نوع من الشاي لا مثيل له، هُدمت مائتي
المقاهي، وصدرت فتوى تحرم المقاهي، وتعدد مضارها،
وصدر أمر نهائي باحتثائها من الخطط كلها، وآلم هذا الجمعدي
في وحدته وشيخوخته، وكان الأمر صعباً. مرا، على كثيرين،
لكن تم كل شيء في سرعة وجيزة، كما ازيلت المقاعد الخشبية
الموضوعة حول بقايا التماثيل، وشوهدت الأماكن الصالحة
للجلوس في المواضع التي اشتهرت برقتها، وهدوئها، وطيب
هوائها، كاد الهلالي ان يصبح راضياً عما تم، لكن ما أرتبه
وشايقه، تردد هذا الغناء الخفي الذي وصفه الدكتور مجدي
رمزي وصفاً دقيقاً..

رحلة الفولكلور

.. استمع الهلالي مع عدد من الخبراء الأجانب عن الخطط الى وصف دقيق للفناء، لكن لم تستطع الدوريات اللاسلكية تسجيله، العجيب ان من سمى الى سماع الفناء لم يسمعه، حتى الذين تمت قلوبهم الاصغاء اليه، كان خالد يثني الساعات الطوال عبر الأطراف النائية، ويعرض نفسه لأقوى الشبهات، لكنه لم يرصد النغم الشجي، كان الفناء يتردد فجأة بدون تمهيد تزايد حتى الهلالي. خاصة مع ظهور الفناء في أوقات لا تخطر على بال، وأجمعت أقوال الشهود ان الصوت لا يبدو مرعوبا، أو مهتزا يود الإفضاء بما عنده ثم الاسراع بالاختفاء، ابدا كان هادئا، واثقا، رقيقا، كأنه منبعث من أعماق حقل قصب لا زال حصاده بعيدا، يختفي فجأة كما يظهر، تزايد حتى الهلالي، وتحدث عن مؤامرة تديرها عناصر مناوئة، وأصابع العجم، اضطر الى اتخاذ خطوة كان ترتيبها متأخرا، فأمر بالغاء الفولكلور، وتطبيق ذلك يعني وقف نشاط المنشئين الريفيين وعدم السماح لهم بدخول الضواحي والأنحاء، وحذف الأمثال الشعبية من الحوار العادي والحوار المتخصص، وأبطال الحكايات التي يقصها المعجزة شفاة ومصادرة الأزياء ذات الأصول الشعبية في الخطط، ثم فرض الزي الموحد لأهالي هذه الضاحية واستثنى

من ذلك اصحاب مكاتب الخبرة الأجانب، ومالكي انسيارات قوة ستة سلندر. ألغيت أيضا أغطية الرأس المصنوعة من الصوف والطواقي، وألغى الصديري البلدي، والجلباب واسع الأكمام، والعباءات بمختلف أنواعها، الملاء اللف، والملس، والشقة، والسترة والبرقع، والفساتين المحلاة بالقصب، ألغيت مراسيم الولادة، واغاني الميلاد، والسبوع وأبطلت عادة اشعال الشموع في اعياد الميلاد والأفراح، وبطلت صناعة الطبول، والدفوف، وآلات الايقاع، وشدد التضييق على النابات، والأرغول بمختلف أنواعه، والسلاميات، والصاجات، ومنعت رواية الملاحم في اسواق الريف المتطرفة النائية والقرية، منطقة الخلاوي، جرد المنشدون والمداحون من آلاتهم واعاد أي انسان يخالف منتما الى العجم، وظهرت مقالة مطولة للدكتور عبد العظيم السوافيري يؤكد ويبرهن على أن التراث الحقيقي للخطط لم يعرف الأمثال الشعبية، وأنها بدعة دخيلة، كذلك ملاحم عنتره، والهلالية، وذات الهمة وعلي الزبيقي، وسيف بن ذي يزن، وان كل ما قيل عن اصالتها، وعظمتها، وطرافتها، مجرد سم مدسوس بواسطة العجم، وأورد الدكتور عبد العظيم السوافيري ستة آلاف مرجع علمي تؤكد كلامه واراؤه، ودعا المشككين الى إلقاء نظرة على هذه المراجع، وأشار الى اهتمام العجم بجمع التراث الشعبي، من

أجل فهم الشعب وضربه من الداخل، أرسلت برقيات تأييد عديدة تؤيد الخطوة المباركة بإلغاء التراث الشعبي، لكن الهلالي لم يهدأ كان يفضل البدء بخطوة الآثار لكن الظروف دفعته الى الفولكلور، والمغني الصعيدي يتزايد ظهوره، والأمور لذلك غير مستتبة، اتصل به العناني من مقره الخفي، وأبدى قلقه بسبب تجمع بعض الأهالي في مواضع معينة وانتظارهم سماع الغناء ثم تلك المعلومات المتوفرة حول وجود عدد من الموهوبين الذين لم يسجلوا انفسهم، وكلهم لا يشغلون وظائف رسمية، اتخذت بعض الاجراءات المحدودة، مثل تخفيف انتاج الورق. وتخصيص أماكن لبيع الأقلام وأوراق الكتابة، ولم يكن ممكناً الفاؤها تماماً لأن الأعمال اليومية في الخطط تم بواسطتها، كما أبدى اتحاد المستثمرين الأجانب ضيقه لذلك، من هنا جاء اقتراح الدكتور مجدي رمزي تخصيص متجراً واحداً لبيع الورق والأقلام لكل من يحمل جوازاً أجنبياً، لكن العناني رفض ذلك لأن هناك عدداً من أهالي الخطط يعملون في مكاتب المستثمرين الأجانب وباستطاعتهم الحصول على فائض الورق، كما أن عدداً من الأهالي الذين هاجروا منذ سنوات وحصلوا على جنسيات أجنبية ثم عادوا لممارسة النشاط الاقتصادي، انهم يعاملون معاملة الأجانب، لا يمكن محاسبتهم، قال العناني إن الادارة

ستتحمل المسؤولية في نفس الوقت أثبتت مشكلة أخرى حول المرابطين، انهم ليسوا مقيمين في هذه الضاحية ولم يشترك احد افرادهم في أي نشاط مريب كتأليف الروايات، أو الرسم، أو نظم الشعر، يظهرون هنا أو هناك كانوا يجيئون دائماً الى نهايات الأسوار، لم يدخل أحدهم الى الشوارع والحارات، وكانوا آخر من عبر المبدان، جوهر المشكلة طقوسهم وعاداتهم ومناجاتهم هذا الغائب، هل يمكن اعتبارها ضمن الفولكلور المصادر، جرى نقاش طويل، وقيلت آراء لكن مندوب الادارة أكد أنهم مراقبون، ولا يعتبروا مصدر قلق، الأمر الذي يجب الاهتمام به، والتركيز عليه، أولئك الذين لم يبلغوا عن مواهبهم، ان الادارة ستوليهم اهتماماً غير عادي.

الفندق القديم ..

.. اغلق الفندق القديم، جرى الاعلان بأن صاحبه يعلق عدداً من اللوحات التي رسمها عدد من الفنانين المعروفين بالخطط، نسخ من لوحات عالمية توجد أصولها في المتاحف العالمية، كان يتباهى بها ويشرح ما غمض من تكويناتها، انه عجوز اشيب الشعر، اسمر اللون، هادئ الصوت، يبدو كأنه شي على أطراف أصابعه، أعزب منذ تخرجه من القسم

الأدبي وهو مشغول بفكرة كذب لم يسمع بعد، يدور حول الماء، حالاته وأنواعه ولادته وفاته، خواصه ان فندقه يمتد الى الجزء المندثر من الخطط والذي شيد معظمه في القرن الماضي، يعلو نوافذه زخارف جصية. جمع اصحابه الايطاليون القدامى بقايا القصور القديمة من اثاث وصحون وأدوات طعام، تضم الحجرة رقم واحد سريراً ضخماً وزخارف خشبية كان يخص ملك الخطط الثالث، أعده خصيصاً لاستضافة امبراطورة اليابان التي زارت الخطط بمناسبة فرح ابنته، ويقال انه انفق من اجلها اموالاً طائلة. وبنى لها على جانبي الطريق الممتد من مرفأ الخطط القديم حتى الضاحية بيوت عديدة يضم كل منها قاعات تشبه الى حد التطابق قاعات عسرها في بلادها البعيدة، وزودها بالأطعمة والتحف، حتى لا تشعر بالغربة، ما شغل المؤرخين فيما بعد، هل ضاجعها ملك الخطط ام لا؟ هل اثمرت هذه التكاليف وأتت بالنتيجة التي كان يرجوها؟ صاحب الفندق يؤكد انه ضاجعها، وان عطرها النفاذ النادر ترك آثاره حتى الآن، وباستطاعة الأنف المجرية، الخبيرة ان تميزه. كان بار الفندق على هيئة غرف القيادة في سفن القراصنة النجف مستدير كمجالات القيادة في الطرادات الانجليزية القديمة، الصالة الرئيسية فرشت بسجاد كاشان النادر، أواني الزهور من البورسلين اليوهيمي النادر،

اما أواني الطعام فصنعت من الفضة المطعمة بالذهب، حدث أن آخر مالك ايطالي هرب الى خارج الخطط اثر قيام العهد الجمهوري الأول، اذ ثبت وجود علاقة قوية بين صاحب الفندق الايطالي وبين آخر ملوك الخطط، بل قيل ان الايطالي كان يبيع للملك ما لا يمكن تهيئته في القصور الملكية من أمور فنى وعمر، استمر الفندق بلا صاحب، اداره لمدة سبع سنوات الموظفون القدامى لحسابهم، كانوا يقتسمون الايراد في نهاية كل يوم، باعوا السجاد الثمين النادر، والنجف النادر، واستبدلوا الأواني الفضية باخرى من الألمنيوم الرخيص حاولوا انتزاع البار الخشي العتيق، لكنهم لم يستطيعوا بسبب تثبيته في الأرض، ثم حدث أن عرض الفندق للايجار بواسطة لجنة حصر الأملاك التي شكلها العهد الجمهوري الأول، رسا المزاد على هذا الرجل خريج القسم الأدبي القديم، وكان يشغل وظيفة أمين المكتبة المركزية للخطط. لكنه لسبب ما لم يفصح عنه استقال، وفضل تقاضي ثلثي معاشه والتفرغ للتندقة، كان الفندق قد جرد من أثمن محتوياته، لكن موقعه في قلب الضاحية، وتردد عدد من الأدباء والفنانين للسهر في بهوه الرئيسي، حبه الى قلبه، ثم واثاه حظه، اذ حدث أثناء تجوله في الفندق اتكأ متعباً على جدار احد الممرات واذا بباب سري يفتح، يقوده الى مخزن

كبير محتوياته يمكن ان تؤثت فندفا كاملا، مرايا ضخمة مذهبة الاطر، آلاف الأطباق الخزفية التي يمكن للناظر ان يرى وجهه منعكسا عليها، لشدة لمعانها، قام بفرشه من الخزن أثثه من جديد، اعاد الرونق اليه، اخرج تماثيل المرمز، ولوحات نادرة، وزعها على الغرف والممرات والصالات ثم بدأ يشتري من فنانى الخطط ويقتني غير ان أثمن ما اعتز به لوحة صغيرة، أصلية للفنان العالمى الفرنسى، تولوز لوتريك، تمثل ثلاث سيدات عجائز متقاربات الرؤوس، يجلسن في مقهى، قدر الخبراء ثمن اللوحة بثلاثة ملايين دولار، وتوافد عواة الفن، ومندوبو المتاحف العالمية، وسامسة عاليون، لكن صاحب الفندق رفض، واصر على بقائها في الخطط، وضعها داخل اطار هادىء في صدر الصالة المخصصة للتأمل، وغير المسموح بالتدخين أو شرب الخمر داخلها، ذاعت شهرة الفندق وفضله الكتاب العالميون الذين مروا بالخطط، ويؤكد صاحبه المعجوز ان همنجواي كتب في احدى غرفه قصة قصيرة، وان مالرو كتب عدة رسائل وضعها في صندوق البريد الخاص بالفندق، وكانت الفرق الأجنبية القادمة للعزف في اوبرا الخطط او الرقص، أو التمثيل تفضل الاقامة فيه، وتؤثره على الشيراتون الجديد، وخلال الخريف، ولدة اسابيع معلومة كانت تجيء الى الفندق كونتيسة فنلندية، كانت عجيبة

ولطيفة الطول دقيقة الخصر الى حد لا يصدق، مرمرية العنق، رقيقة الأنف واسعة العينين، تشي كأنها تتحرك عند حدود الزمان المجهول، انها الوحيدة المسموح لها بالاقامة في الغرفة رقم واحد، لم تكن تنجول في الخطط. أو تخرج من الفندق، انما تنتقل من غرفتها في كامل زينتها «تمسك قفاز الدانتيل الأبيض بيدها، وترتدي مجوهراتها، قلادتها الماسية. والبروش اللازوردي، وخواتم العقيق، والأساور المحلاة بالزمرد، وتجلس في قاعة التأملات تتطلع بهدوء الى لوحة تولوز لوتريك، ثم تتجه الى غرفتها مطرقة، جليلة الخطى وهكذا تنقضي أيامها في الخطط، لم يكن لصاحب الفندق اقارب، لكن اعتاد الموظفون والعمال مجيء سيدة رقيقة الوجه قصيرة، يميل شعرها الى اصفرار، عيناها زرقاوتان، مقتصدة الحركات، هادئة، اذ يراها تهلل ملامحه، تجيبه بأهة، أو ابتداء يتجه كل منها بنظراته الى جهة مختلفة، واذ يلتقيان بعينيها، يومئ كل منهما. ويعود الصمت، ويستمر الأمر هكذا حتى تغادره المرأة بخطى سريعة لم يكن يتحدث الى الموظفين والعمال كثيرا. انما يدير الفندق بنظراته، واشاراته، وعند اكتمال مجيء الأدباء يقدم اليهم القهوة بجانا، ويجلس بعيداً عنهم، يشارك في الحوار بالاصغاء وقبل انصرفهم يدعوهم الى لقاء نظرة على لوحة لوتريك، اصبح الرجل

سما لما مع بدء التطورات السريعة في الضاحية، وعندما جاءه مستمر أجنبي منفوخا، مزهوا، مصحوبا بضابط رسمي من الإدارة أدرك أن كل شيء سيضيع عليه، وأيقن من ذلك عندما تلقى مكالمة تليفونية من مجهول بعد منتصف الليل: نصحه الصوت بأن ينجو أن يفر مع لوحة تولوز لوتريك وما يعتز به، ثم عمولة ضخمة دفعت لأحد المسؤولين بالضاحية، ولا بد من بيع الفندق، طلب الفندق من المستثمر المزهو بنفسه أن يمر عليه بعد أربعة أيام، في غروب اليوم التالي تردد الغناء بعد انقطاع. جاء من كل اتجاه، ومضى إلى كل ناحية في الخطط، هرعت سيارات الرصد، وبكى الناس خفية. وتحركت أشجان بلا حد:

يا اسر يا أبو الزند صعيدي
حبك يسري في وريدي....

قبض على عدد من المشتبه فيهم، لكن الغناء لم ينقطع هذه الليلة، تردد مرات، في اليوم التالي اكتشف رجال الإدارة أن صاحب الفندق لم يعد له أثر، وأنه أتى في الليل بسيارة نقل ضخمة، شحن سرير الامبراطورة اليابانية، والنجف الخشي، وتمكن من تفكيك البار القديم، وسجادة واحدة من طراز بخاري كان يفرشها دائما عندما تجيء الكونتيسة الفنلندية، وجميع اللوحات، وبالطبع لوحة تولوز لوتريك.

اجتاز المدخل الجنوبي للضاحية أجاب على أسئلة ضابط التفتيش اجابة صحيحة، كاد الهلالي أن يطق من الغيظ، اختفاء الرجل صفقة له، أكد ذهابه والعجز عن اقتفاء أثره أحد الأمثال الشعبية الممنوع من التداول، والذي يقول أن سكك الخطط بلا حصر، وضروعها أكثر من أن تحصى، أبدى سكان الضاحية النائية انزعاجا لضعف وسائل الرقابة، أشاروا إلى تفاهة النقولات التي هربها الرجل، الخطورة تكمن في ضعف نظام المراقبة في الخطط حتى بعد الاستعانة بخبراء السي آي آيه، وهذا يؤدي إلى تزايد حالات سرقة الآثار بغرض الحفاظ عليها، وعرقلة خطط تهريبها، وعد ذلك أول إشارة إلى وجود محاولات مكاكة لتهريب الآثار كما عد هروب صاحب الفندق أول تحد علي لما يتم..

مطلب في آثار الخطط وما جرى بشأنها..

.. يوجد في الخطط ثلاثة أرباع آثار الدنيا. أما الربع الباقي الذي لا قيمة له فموزع على سائر البلدان والأمصار، تنتمي آثار الخطط إلى عصور بدائية، وفرعونية، ورومانية، وفارسية، واغريقية، وعربية اسلامية، ومنذ مسافة ترجع إلى الشوارع والأسوار، وآثار الخطط مهددة بفقد عظيم، استطاع الأستاذ أن يتصل برجل معمر، نحيل، طويل، مخصص

البدن، يرتدي أربعة جلابيب صوفية، وعمامة من ثلاث طبقات، ويمسك باليمنى خيزرانة طويلة مرنة على صلة بهربي الآثار من الأجانب والغريب ان اختفاء قطعة - ولو صغيرة أو قليلة القيمة - كان يشير ضجة وقتئذ، ويقم الدنيا ويقعدها، لكن مع تبدل الأوضاع في الخطط عامة، والضححية الأولى خاصة، تغيرت الأمور بعد انقطاع طويل ظهر هذا الرجل مرة أخرى، انه يعرف موضع كل أثر في أراضي الخطط انه يقف في صحراء شاسعة، متشابهة، ثم يشير بخيزرانه الى موضع معين، سرعان ما يبدأ الحفر، تتكشف الدرجات المفضية الى الحجرات المزينة بالصور، الى المومياءات الملفوفة في شرائط الذهب، الى التواييت الجرانيتية، والتماثيل المرمرية. أثار وجود الرجل في الضاحية فضول الكثيرين، كان ينام النهار كله، ثم ينزل الى الطرقات بعد المغيب يجلس وحيداً في مواجهة الأرض الخلاء التي قام فوقها المتحف القديم قبل إزالته ثم يخرج فص الأفيون النقي، يضعه تحت لسانه، يبدأ الاستحلاب البطيء، ثم يشرب الشاي الثقيل عند منتصف الليل يلتقي مع بعض معاوين الهلالي، لا يتحدث بصوت مرتفع، يوميء ويشير، يجيد سبع عشرة لغة، وثلاثين لهجة انه يختفي عند الفجر مخلفاً وراءه رائحة ثقيلة، مزيج من عرق ورائحة كتان قديم، انه يتعاون مع الهلالي،

ويشمن قطع الآثار النادرة، يساعد في عمليات الحصر الواسعة، لآثار الخطط في الصحراء أو تحت البحر، وهذا ما نعجز عنه الأجهزة الحديثة المعقدة فيما تلي ذلك ظهرت سلسلة تحقيقات في «الأنباء» حول الأخطار التي تهدد الآثار، من ذلك تغير المناخ في الخطط خلال السنوات الأخيرة، وهذا يعرضها الى التآكل والعري، ثم ارتفاع منسوب المياه الجوفية نشيجة لإنشاء الخزان الكبير، وأدى هذا الى إضعاف أساسات المعابد والتماثيل، ثم تزايد نسبة الرطوبة في الجو كنتيجة ثانية لمصائب الخزان الكبير، ثم نشر تقرير وضعه سبعة علماء ينتمون الى سبع جنسيات، يقول ان الخطط مكان غير صالحه للإيواء الآثار، وانه من الأفضل نقلها الى بلاد أخرى. نشرت الصحف عديداً من آراء العلماء وأساتذة علم النفس تبارك هذه الخطوة المباركة، وأشرف التنوخي على تنظيم استفتاء واسع النطاق جاءت نتيجته مائة في المائة، ثم اجتمعت لجنة لاختيار البلاد التي سيتم بيع الآثار اليها، استبعدوا بلاد العجم لوقوع معظمها في الحزام البارد، وحددوا القارتين الأمريكية الشمالية، والأوروبية، وشطبوا القارة الأفريقية لتخلف بلدانها، وفقرها، كذلك القارة الآسيوية، واستثنى الأفراد الأثرياء القادرون من كافة البلدان بحجة ان امكانياتهم لا تسمح بالحفاظ على هذه الآثار،

ثم وصلت الى الضاحية طائفة خاصة تقل مجموعة من أصحاب الملايين، بعضهم بدين وبعضهم نحيل، بعضهم قصير، عدد منهم ينتمي الى جماعة تقول بأن ملكاً قديماً من ملوك الخطط اضطهدهم، وطردهم، ولهذا يضمرون حنقا خفيا ضد الخطط، ويسعون للحصول على مومياء هذا الملك المحفوظة في مقبرة لم تكتشف بعد، للتشهير بها وحرقتها، وعلان النصر المؤجل منذ ستة آلاف سنة، نظمت رحلات للفوج داخل الخطط، وحدث أن طفلاً في السادسة صاح وبكى أثناء مرورهم أمام مجموعة تماثيل، أشار الى تمثال، لأب راجح يحتظن ابنه، تمثال صغير لا يتجاوز طوله ثلاثين سنتيمتراً، لكن خطوطه دقيقة، وملامحه رقيقة، شبط الطفل الأجنبي في التمثال، بكى وتشنج، طلب الأب شراء التمثال، ولكن مرافق الفوج اعتذر لأن الطلب قدم في وضوح النهار، ولا بد من استشارة الهلالي، طلبوه تليفونياً، عندما علم أن الأب من كبار رجال الصناعة أمر باهداء التمثال الى الطفل كبادرة طيبة شكره الأب شكراً جزيلاً، وعده بأن يكون أول المشتري بأعلى الأسعار ثم جاءت أفواج وأفواج..

عملاق الضاحية

.. بعد تشكيل ادارة تهريب الآثار، ابلغت احدى

وريات الأمن عن ظهور رجل هائل، ضخيم الحجم، ظهره أكثر من مترين، عريض الصدر، ثم توالى البلاغات تتناوب في وصف ملامحه، لكنها تتفق على حجمه غير العادي، لم يعرف انه من اهالي الضاحية، كما لم يسجل بين من عبروا الميدان، امكن رصده، ثم تتبعه لمدة اربع ساعات، لكنه اختفى فجأة، خلال مراقبته لوحظ انه لم يكسر لقمة خبز، لم يتذوق طعاماً، ولم يشرب جرعة ماء سرعان ما بدأ البحث، ان ما يربك الادارة ظهور شخصيات غير مدرجة في الملفات، راجعوا سجلات الخطط، وملاحم الذين عبروا الميدان، والمرابطين، والعجم، استعرضوا مرات الصور الملتقطة سرا للرجل الغريب، عملاق الضاحية كما اطلقوا عليه، استمعوا الى تسجيلات متنوعة لوقع خطواته، واخيرا امكن تحديد شخصية قريبة الشبه به، عاشت في الاسوار صاحبها المعلم الياس، لكن اختفاؤه في النهر القى ظلالاً، لكن ثمة شواهد تؤكد ان المعلم الياس عبر الميدان الكبير واجتاز المشارف، جرت محاولة لاغتياله، مر بجواره طلق طائش، تفادى سيارة مسرعة كادت تدهمه، دفعها بيده فتحطم جانبيها الايمن. ثم تصدى له اربعة اشداء من الادارة ومعهم امر باعتقاله، لكنه صرعهم جميعاً وأورثهم هذا عاهات ومصائب وعد ذلك الحادث بداية مرحلة لها شأنها، اثبتت الملاحظة انه يجتني في

نفس اللحظة التي يتلاشى فيها كل أثر للمجوز صاحب الخيزرانة، حير ذلك الادارة، واربك رجالها. مما دعا العناني الى تشكيل فريق عمل خاص لاغتيال عملاق الضاحية، او القبض عليه، ورصد جائزة ثمينة، ولم يتم ذلك بمزلة عن الناس، اذ بات معروفا للداني والقاصي، للكبير والصغير، المغن الصعدي، وعملاق الضاحية.

المغارة

« .. ادارة تهريب الآثار، شروط خاصة يجب توافرها في المهربين، ضرورة تخصص المهرب، لا يجوز لشخص واحد الاتجار في آثار تمت الى عصرين مختلفين »، لكن الامور لم تمض كما شاء قادة الخطط، ولم تلن لهم، اصبح من المؤكد للادارة ان ثمة شيئا خفيا يجري في العتمة، ويبدو ان ما جرى بخصوص الآثار حرّك الروح في اوصال الخطط، وطبقا لتقارير الادارة يبدو ان عددا من الاهالي الاصليين نظموا محاولات غير مشروعة للحفاظ على الآثار، الحصول على القطع النادرة وترحيلها الى موضع خفي بالخطط وذلك بدافع من افكار بالية روجها عتاة العجم تقول بضرورة الحفاظ على التراث القديم، واعادة تاريخ الخطط الملقى، واقصاء الاجانب، وتحرير المقدرات، قام الاهالي الاصليين بتدبير

محكم لانقاذ تماثيل، وتيجان، ولوحات، وقلادات، ومومياءات، واطعمة محنطة، وسيوف، وآلات حرب، وسرى هسس بأن مئات القطع جرى انقاذها، وتم ترحيلها الى مكان امين، يقع في بطن الصحراء الشرقية الوعرة، الشاسعة، بالقرب من الجلاوي، مغارة كبيرة لا يمكن اكتشاف مدخلها إلا للعالم به، انه حفرة في وسط واد مليء بالحفر، لا بد من النفاذ خلالها ثم دخول نفق مظلم يمتد سبعة كيلومترات، ثم يتفرع الى ثلاثة فروع، وكل فرع يتشعب الى ست ممرات مربعة، وكل ممر ينقسم الى سبعة دهاليز اسطوانية، احد الدهاليز يقود الى بطن المغارة المضاء بواسطة نور خفي المصدر، تمتد اقسامها الى عدة كيلومترات ومن المستحيل الوقوف على وصف دقيق لأن الآراء تضاربت وتناقضت، ويقال انه عند نقطة معينة يجف الهواء فجأة، ويصاب الكائن الحي باختناق، لا يمكن التقدم خطوة، واي انسان يضل الطريق الى بطن المغارة لا يرجع، ويقول المعمرون في القرى الواقعة قرب الجلاوي، ان سر هذه المغارة يورث في عائلة من الرعاية، وان أحدهم افضى به الى طفل تبناه، بعد ان سلمه ابوه اليه في احد الاسوار لحوف غامض، ولم تعرف حتى الآن تفاصيل دقيقة، لقد عرفت اقسام الخطط مغارات ضخمة، امكن التوصل الى اعماق عدد منها، خاصة في العهد الملكي

عندما استخدمت كمخازن للجيش، بل مد داخلها سكك حديدية، لكن هذه المغارة، استعصت على الكشف، ولم تظهر في خرائط الاستشعار عن بعد، والوحدات، والاقمار الصناعية، والاشعة تحت الحمراء واشعة جاما..

حارس الخطط

.. اول ما تم نقله الى المغارة تمثال من الديوريت الأخضر لطائر ابداع الفنان تصويره حتى ليوشك الناظر اليه على الظن بأنه سيقلع طائرا، العجيب ان عينيه مائعتان، متحركتان وقيل أن اصله الحي موجود، يظهر في سماء الخطط من حين الى آخر، وقيل أن المغارة ظلت شاغرة لفترة طويلة باستثناء هذا الصقر، عرف التمثال بأنه حارس الخطط، وان القدماء أحاطوه بطقوس غامضة أدت الى اعتقاد فيه، خلاصته ان الطائر هو حارس الخطط، وان ضررا لن يلحقها بسببه، وانه ما دام موجودا فيها فستزول أية غمة مها طالت، ثم بدأ توالي القطع، وامكن تجميع توابيت الملوك القدامى للخطط وكنوزهم كاد الهلالي يجن، أشرف بنفسه على محاولات محومة للوصول الى غبا الآثار، أو الامساك ببداية الخيط، لكن هذه الجهود ضاعت عبثا، ولم تستطع قوات امن الخطط، او المخابرات المركزية، كذا

مخابرات الناتو، التوصل الى أية معلومات تشير الى حقيقة الموضوع، ولوحظ انها المرة الاولى في تاريخ الخطط التي ينعدم فيها ظهور الوشاة، وأثار هذا دهشة علماء الآثار خاصة ان العقوبات الموضوعة رادعة وقاسية، خاصة بالنسبة لمن يأتي تصرفا مباشرا من شأنه عرقلة تهريب الآثار، أدهش اختفاء الوشاة اهالي الخطط أنفسهم، حتى ان البعض صار يقول: لم تخل الخطط من الرجال، ولم يقتصر ذلك على موضع المغارة، ولكن لم تستطع الاجهزة المعينة التوصل الى شخصية المغني الصعيدي، او تحديد الظروف التي اختفى فيها عملاق الضاحية مصطحبا الرجل العجوز ذو الخيزرانة، تزايدت حركة تصدير القطع النادرة، وصلت بعثة اجنبية لتفكيك معبد الخصوبة الذي اشتراه مصمم ازياء عالمي، قرر ان يعيد بناءه في حديقة قصره داخل خيمة من زجاج شفاف اتجهت البعثة الى جنوب الخطط، فوجئوا، المعبد اختفى، لم يروه في موقعه المحدد بالخرائط الأثرية، ومراجع البحث، وكتب الرحالة، نساء القرية وقفن يحملن اطفالهن، صمتن صوافي، وعيونهن التي تجاوز فيها الانتظار والحزن والخوف لا تفصح ولا ترشد..

أزمة الهلالي

.. سرت اشاعات مجهولة المصدر بأن عمر الهلالي اصبح قصيرا في الخطط، وانه سيعزل، والسبب تعاظم حجم الآثار الهامة التي نجح الاهالي في اخفائها والحفاظ عليها، وفشله في تحديد موقع الخبأ المبهم الذي احتوى كل ثمين، وعجزه عن ايقاف الغناء الذي بدأ يتردد في اوقات متعددة، وقال آخرون انه أدى دورا مرسوما، وسيصبح وجوده عبئا وعائقا، وانه لا بد من تقدم شخصية اخرى كي تحل مكانه، وهكذا سنة الحياة في تلك الخطط، وكأن الهلالي أراد أن يثبت كذب الاشاعات وانه لا زال في الصورة، فوجه تحية هي الاولى من نوعها، اذ حيا الراسبين في امتحان الشهادة المتوسطة، وعدهم بمستقبل مظلم، وأشار الى مصادر الرزق غير المشروعة، والى اساليب النفاق التي استوعبها النوابغ منهم، لاحظ بعض المهتمين بمراقبة الملامح، ان الهلالي بدا عصبيا اثناء حديثه، وتحت عينيه هالتين معتمتين، لكن.. اذا عرف السبب بطل المعجب، الحقيقة ان الهلالي يمر بضيق عظيم، والسبب ما وقع في الحفلة، والحكاية ان عددا من اثرياء الدول المشتركة قرروا الحضور الى الخطط، وتردد ان ثمة مشروعا هائلا سيتم وله علاقة بتاريخ الخطط، لكن لم تعرف

طبيعته، وان توجس الناس، وتوقعوا شرا مهولا، وقد كان!!، وسيوضح ذلك في موضعه، جاء الاثرياء لبحث الامر خفية وأدرج في برنامجهم مشاهدة حفل يتضمن عروضاً فولكلورية من الفنون المحرمة الآن، أقيم الحفل حول مقبرة اثرية من الفترة القديمة رصت الحشايا فوق الصحراء، وذبحت الخراف، وازدحمت الاسمطة الحافلة بالحمام ولحم الغنم وانواع السمك، وسائر اصناف المشموم والفواكه والخمور من مختلف الانواع، ويسكي اسكوتلندي قديم، وشمبانيا فرنسية، وفودكا روسية، واشنبص سويدي، وما لا يحصى... رقصوا، وأثار الليل الغميق والصحراء والمقبرة الأثرية شهوة غامضة جامحة، وعندئذ فجروا فجرا شنيعا، وظهروا ما لا يصدقه عقل من ألوان المعاصي والفسوق.

وحدث ان تعلق فتاة كطبق البنور بالهلالي، تأجج جسدها، وتأود تحت اضواء النجوم، ابتلع الهلالي ريقه، استعاد أمنيات المراهقة البعيدة، والرغبات، ها هي امامه، في مستقبل العمر، الصدر صلب، والبطن ناهضة، تدنو منه، لكنه اكتشف فجأة انه نسي ذلك، وان جسده بارد كبطن الحية، ولا أمل يرجى، لم يقترب من امرأة منذ مجيئه الى الضاحية، عمل، عمل، أصدر خطط، لكنه لم يبص الى نفسه، بصقت في وجهه قام يعدو عاريا، ابتعد عن موقع الحفل

حتى قابله خفير من الحراس القدامى، فقدم اليه ما ستره،
اثناء عودته تطلع الى ما حوله، الى كل مكان حوله، ارض
خراب، او موقف سيارات، المرحاض الحديث الذي يجتلي
مكان الكونسرفتوار، تضائل عدد المباني الى حد كبير،
اختفت المتاحف كأنها لم تكن، وقاعات الموسيقى والعرض،
والمسارح، ودور السينما، انتابه غمٌ، كان في الشوارع يفخر بخلو
دماغه من أية فكرة، لم يضايقه الا بيت الشمر القديم الذي لا
يدري متى علق به...، شهبوا رأسه بالبلاطة، ونجح في تحويل
الضاحية الى ما يشبهها، حتى ان فكرته بتحويلها الى موقف
دولي للسيارات لاقت زواجا وقبولا، استحق الثناء من سكان
الضاحية النائية الذين اتخذوا قرارا بالأ تقام اية مباني
ضخمة في الضاحية خوفا من تحويلها الى متاحف او مكتبات
فيها بعد، مع انهم تلقوا عروضاً من شركات انشائية، استحق
الثناء، لكونه طرد نفسه من نفسه، في الشوارع ارتدى الأقنعة
حتى نسي ملامحه، وفي الضاحية عمل بلا كلل خوفاً، خاف
فاندفع وابدى ما لم يتوقعه احد، وها هو ينسى ما يمكن
للرجل ان يمارسه بالفريزة، لفته خواطر سوداء، ان يعتزل،
ان يعلن انه سيتلقى دروساً في مبادئ القراءة والكتابة كي
يستعيد الهلالي القديم، ان يردد بعض الامثلة الممنوع تداولها.
بل فكر في الاشنع، ان يقتني كتاباً، هو الذي طارد الكتب

ونفى رجلاً ضبطت لديه طبعة قديم من دائرة المعارف،
وشارك في اعدام زميله قنديل، كيف تعايش مع مجدي
رمزي؟ كيف تحمل تواجده الاملس؟ وصوته الدهني، وجهه
البارد، منذ فترة يتخطاه عند الاتصال بالضاحية البعيدة
تجواله ازداد في الضاحية لكن أسهم مجدي رمزي ارتفعت بعد
ما أشيع عن زوجته..

خلوة موقوتة

.. ظهرت ايثار عدة مرات في هذه الضاحية، وتفوهت
بجمل مثل «لم اعد اطيع»، «حياتي معه صارت كابوساً»،
إنها لم تعرف يوماً سعيداً، سافرت اليه عطلتها، وأوقف
مشاريعها، عملت في التدريس من اجله، لتسلمه كل ما يصل
الى يدها، ثم يعطيها ما تحتاج اليه في تنقلاتها فقط، كانت
تعمل لمدة ثمانية عشر ساعة يومياً، تحملت المشاق لأنه عبقرى
ولأنها تؤدي رسالة، اقتنعت بما قاله عن جهوده التي يبذلها
لاكتشاف ما حير العلماء قروناً عديدة، تحويل الحديد
والرصاص والصفائح الى ذهب، تحملت ساعات صمته
وحلقته الى المحيط، بينما تقمع ساكنة، تخشى الحركة، تكتم
انفاسها وتحصر بولها، وتعلل النفس بأنه يوم تسلم جائزة نوبل
ستقف الى جواره، ستكتب الصحف عن اول عالم من

الخطا ، يحصل على جائزة نوبل ، ما قهرها ، اصراره على مضاجعة صديقاته امامها ، ظنت انه سيكف بعد ارتباطها بوثاق الزواج ، لكنه افحش وزاد ، وعندما بكت ورجته ان يحترمها امامهن قال ان ذلك ضروري لتجديد فكره وشحن طاقاته حتى يتوصل الى السر ، لم تستطع الشكوى في الغربية ، كثيرا ما ضاق صدرها ، لكنها خافت البوح حرصا على صفاء تفكيره ، وعندما زاد الامر ، فكرت ان ترد عليه ، ليس في البيت ، في اي مكان ، مع اي شخص لكن الامر لم يكن سهلا ، اذ اعتاد معظم رجال البلدة ان يقتصب النساء ، أما الطلبة الاجانب فعددهم قليل ومعظمهم من جنسيات غربية ، لم تستطع ذلك طوال مدة اقامتها في البلدة الجامعية ، بعد عودتها الى الخطط فوجئت بصديقاتها وزميلاتها يقلن لها ان وزنها نقص وان ثمة شيئا داخلها قد انطفأ أما انها فتتظر مشفقة ثم تلعن الغربية وبلاد الغربية ، وترد ايثار بأن مجدي شركها في كل كبيرة وصغيرة ، وانها تحمل هموم بحثه العلمي العظيم ، وانه بعد حصوله على الجائزة ستعيش ايامها من جديد ، بعد عودتها ظنت انه سيكف ، خاصة وان الامور اصعب في الخطط ، لكنها فوجئت بعكس ذلك ، دأب على اصطحاب فتيات مجهولات ، وكثيرا ما صاح يطلب كوب ماء ، أو عصير ، او فوطة صغيرة ، وتضطر الى تلبية طلبه ، ثم

تنزوي بعيدا ، تبكي ، لاحظت توقفه عن البحث ، ودهشت ، ما علاقة المهام التي يقوم بها هنا والدكتوراه التي يحملها او البحث العويص الذي يعدُّ له ، غير انه شرح لها الامر ، قال انها مرحلة لا بد من التوقف عندها ثم يليها انطلاق عظيم ، لكن الشك تسلل اليها ، وفي نفس الوقت ازداد اصرارها ، لا بد .. لكن من ؟ كيف ؟ حتى فوجئت يوما بخالد الذي هام بها قبل سفرها ، وافضت الى مجدي بما قاله وما صرح به ، لعله يغير ، لعله يدرك ان لها عشاقا ومحبين ، لكنه لم يبد انفعالا ، انها في حضور خالد تصبح ذات دلال ، تتكلم بطريقة مختلفة ، وتقسو وتلين ولا تخاف لم تحبه لكنها حرصت على رؤيته والجلوس اليه ، وترديد بعض العبارات المبهمة التي يتفوه بها مجدي فجأة ، ثم تجيب خالد بأنها تعني اشياء خاصة جدا ، واذا صمت هو ، ترق وترنو وتزيح شعره حتى يعبر عن مشاعره بكلمة او نظرة عندئذ تجف لهجتها وتستدير مثل مجدي وتومئ مثل مجدي وتهز اصبعها بلا مبالاة كما يفعل ، رحبت بخالد وابدت شوقا وقالت ان الكلام كثير ولا بد ان يقال ، حددت ميعادا في العاشرة بعد انصراف مجدي بساعة ، جاء خالد ، بدا مهموما ، متعبا ، تحدثا في امور الخطط العامة ، وقال ان قلبه مشغل ، وخلال تدفق حديثها توقفا مرات ، ادرك كل منها ان ما ينبغي قوله لا يقال ، مع مضي الوقت

طالت فترات التوقف، والتفت خلالها النظرات بعد ان
تعمدت التبعاد، عندما سألها عن شؤونها، تحدثت عن آلام
الغربة، وصبرها من اجل اتمام مجدي للبحث، لكن لعبقريته
تصاريف غريبة، تصور.. انه ياتي بهن الى هنا...، نظر خالد
اليها، كان مترددا في البداية، يخشى ان يقدم على تصرف
فيلقى صده، لكن لم يعد لديه شك، نظراتها التي تواجهها بها
ثم ابتعاد عينيها، يداها المدسوستان بين ساقيها، تغييرها لوضع
جلوسها بما يتيح له ان يرى مساحة اكبر، هكذا نساء الخطط،
تذوب الواحدة منهن رغبة، لكن الخطوة الاولى يجب ان
يقدم عليها الرجل، اطرق مقدار خمس دقائق، لفهما الصمت،
يفكر في الحركة التي تنقل علاقتهما من مجرى الى مجرى، ومن
تاريخ الى تاريخ، كانت الغرفة ملونة بالفسق الشتوي وهي
قابعة تنتظر، فجأة قال: تعالي هنا.. اشار الى المساحة الضيقة
بجواره، اندفعت، كطائر ينتقل من غصن الى غصن، حطت
بين ذراعيه، برك بشفتيه فوق شفتيها، اولج لسانه داخل
فمها، مصت شفته، بينا جسدها ينتفض محموا، تسارعت
انفاسها وكأن قلبها سيكف، اختزل السنوات في لحظة، ودبت
الرغبة المدخرة في اوصاله، احتوت جسده بنظراتها،
تساءلت، لماذا يبدو خجولا.. ان جسمه جيل، خال من
العيوب، امسكت اصابعه، قالت انها منبسطة مناسبة، مليئة

بالحيوية، أثاره ايقاع صوتها، تأملاتها فيه، كلام لم يسمعه من
امرأة، لا وقت عند العاهرات للمناجاة، والتأمل ضاجعها
للمرة الثالثة، حبق في عينيها المتألتين، المغمضتين، واطراف
اسنانها التي بدت تغوص في شفتها السفلى وساقها يحكمان
التفافها حول جسده، بعد اسبوع من التردد قالت لمجدي ان
ثمة موضوعا تود مصارحته فيه، سكنت.. ثم قالت بهدوء انها
خائنه، لم يتحرك لم يبد أي رد فعل توقعته حتى انها حارت..
ماذا ستقول في اللحظات التالية؟ عندما تأهبت الاستكمال
الحديث أشار بيده، رجاها ألا تقاطعه مرة أخرى عندما
يبدو مستغرقاً، ان ذلك يعطله عن الوصول الى لب فكرته،
تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب، بعد خروجه شدت
شعرها، لطمت، رطنت بالفرنسية، والانجليزية، ورثت نفسها
بالألمانية، بدأت تتكلم، اتصلت بمعارفها، واصدقاء مجدي،
وادارت قرص التليفون، تطلب ناسا لا تعرفهم، تختار اي نمر
من الدليل، اخبرت الكل عن فظاعة مجدي، وقسوته عليها،
ودفعه اياها الى الجنون لانه يصحب من تعرفهن ومن لا
تعرفهن، وانها خائنه مرة واحدة، لكن عند عودته الى البيت
تمشي على اطراف اصابعها، وتبتسم أثناء صمته حتى لا
تكدره، ومن ثم تعوقه عن الوصول الى الفكرة وازاء لا
مبالاته اتخذت قرارا خطيرا، بعد ان يصل الى السر بعد

وقوفها الى جواره لحظة، تسلم الجائزة، وبعد نشر صورتها، ستطلب الطلاق، نعم.. الطلاق، وستزوي في صمت، مؤثرة البعد عن الاضواء بعد ان رافقته خلال اصعب المراحل التي سبقت الاكتشاف ستقول انها ادت دورها، وانها تفضل قضاء بقية ايامها في الظل، ستكتب مذكراتها، لكنها سترفض عروض دور النشر المغربية، لانها لا تريد ان تسبب له أية مضايقة واذا ما انتجوا فيلماً عن حياته فسترجوهم ان يحدفوا دورها، لم تسترسل ايثار طويلاً مع افكارها واحزانها، فوجئت بانقطاع الارسال التليفزيوني للضاحية، والمذيع يعلن ان ثمة خبراً هاماً، ظهر زوجها، فرحت ظنت انه سيعلم الفكرة، لكن يا فرحة ما تمت، طلب مجدي من اهالي الخطط عدم مناداته بلقب الدكتور، ان هذا لا يثير الفخر في نفسه بعد الانجازات التي تمت، انه يشعر بخجل لانه سافر على نفقته الخاصة، واضاع سنوات من عمره لحصوله على الدكتوراه، انه يتذكر بحسرة ايام المذاكرة، والخوف من الحصول على درجة الاستاذية، والتجارب والمعادلات، انه يسأل نفسه، لماذا؟ لماذا؟ انه يتخلى عن هذه السبة، هذه الدكتوراه الملعونة، ولهذا فانه عرضها للبيع، كل ما يرغبه مشتري جيد يدفع بالعملة الصعبة.

القذف المستمر..

.. يذكر عدد قليل من الخطط أحوال الهلالي في ايامه الأخيرة بالضاحية، حبس نفسه في غرفته، أجاب على اتصال واحد تم مع أحد المسؤولين في الضاحية النائية، كان يستفسر عن حقيقة وجود بعض المشبهين، قال الهلالي متعباً ان ذلك مستحيل، لا يوجد شاعر أو روائي أو رسام إلا ومعه ترخيص بمزاولة المهنة، عندئذ قال المسؤول: ولكن اين انفعال الفنون المختلفة بالحدث الخطير الذي تم اخيراً، بيع مجدي رمزي للدكتوراه، أين الشعر؟ أين الرواية؟، أعلن الهلالي حالة الطوارئ، نزلت قوات أمن الخطط، راحوا يستفسرون من كل حامل للترخيص عن سر عدم انفعاله؟ لماذا لم يعبر عن هذه المناسبة السعيدة، ابدى حلة تراخيص الروايات متعددة الأجزاء أسفهم، وقالوا انهم لو سمح لهم بكتابة رواية من جزء واحد لأظهروا العجب العجيب، لكن استيعاب مثل هذا الحدث يحتاج الى وقت، ان الروايات متعددة الأجزاء لا يمكنها ان تعكس الواقع إلا بعد شهر كامل غير منقوص، وقال الشعراء المسجلون انهم انفعلوا وكتبوا، لكن عتاة العجم يشوشون ويسببون ربكة ويمنعون انتاجهم من الوصول الى القاعدة العريضة في الخطط، لكن الهلالي لم يصغ الى هذه الحجج، اصدر تعميماً مكتوباً، ويقال إن مجدي رمزي هو

الذي سماه - بان الأديب الذي لن يستجيب للحدث لحظة وقوعه سوف تسحب رخصته، في هذه الفترة سرت اشاعات بأن عدداً من الكتاب الموهوبين يعيشون ويكتبون خفية، ولم يتقدموا للحصول على تصاريح، وجرى استفسار حول خالد حسين، وحامت شكوك قوية حوله، وقال الهلالي منهكاً لحدثه انه يعرف هذا الولد، التحق بالدار ثم عمل أولاً مع البلش في الاستعلامات، على أية حال سيرصده وسيوليه عنايته، لكن الهلالي لم يعد قادراً على الاستمرار في عمله، وسبب ذلك اضطراب نفسه وحدث شروء دائم في عقله، وظهور هذيان غريب، اذ كان يردد في اليوم الواحد عدة أسئلة، من هو الهلالي الحقيقي؟ هلالي الشوارع؟ أم هلالي الأسوار، أم هلالي الضاحية، وكلما تذكر البنت الأجنبية حصل له خلط، ورجفة ثم سلسل في المرض، أصيب بداء القذف المستمر، اذ صار يبلغ أوج اللذة وهو جالس بمفرده أو أثناء نومه أو تناوله الطعام، ثم عظم الأمر واستفحل المرض، وضاعت الفواصل الزمنية، حتى نقص وزنه في يوم واحد، وانكمش حجمه الى الثلث، ثم الى السدس، ثم الى الثمن...

الجعران...

.. بعد ان صرح مجدي رمزي بوقوع اخطاء في الفترة

السابقة ثم وعد باصلاحها فوراً بمعاونة مساعده الجديد الذي يظهر في الضاحية لأول مرة، زكريا أبوستة، وقع أول حادث في المرحلة الجديدة، وتفصيل ذلك ان عاملاً متوسط القامة، مكتنز البدن مبتور الذراع، اقترب من مدخل الضاحية الشرقي، أبرز بطاقة تثبت الكشف عليه وخلوه من الموهبة، أوقفه ضابط من قوات أمن الخطط..

ماذا تفعل لو رأيت موكباً رسمياً؟

أقف، واهتف، وأصفق..

الاجابة في حدود المسموح به، لكن حدث شيء غامض، لم يستطع العامل أن يتذكره فيما بعد، شيء جعل الضابط يتقدم منه، يفتشه، يخرج محفظته الجلدية، نقود قليلة، وأوراق قديمة، ومظروف فارغ، وقطعة من خيط، بدأ الضابط أسئلته، لماذا جاء الى الضاحية؟ لماذا يغادرها؟ أين مكان الميلاد؟ ما اسم الأم؟ هل يخفي كتباً؟ اسطوانات؟ أقلام؟ أوراق مطبوعة؟ طوابع بريد قديمة، كروت، هل يحفظ الأماكن المندثرة؟ والأغاني؟ هل يردد الأغاني القديمة؟ والأمثال الشعبية هل يستشهد في أقواله بالحكم والمواعظ؟ ظلت ملامح العامل مقطوع الذراع جامدة، أعاد الضابط نقيشه، فجأة، انتفض، راح ينظر كالمسوع الى جعران أزرق من حجر الشب النادر، جعران دقيق الملامح، عليه نقش

بالقلم القريب، جمران لا يعرفه الآن، أو يحفظ ملامحه، إلا أولئك الذين أفنوا أعمارهم في حب الخطط، والتغني بايامها، وبذل الغالي من أجل معاني مرتبطة بها لا ترى بعين ولا تلمس بيد، ذلك ان الخطط لا زالت عزيزة، قابضة في قلوب كثيرين، لا حصر لهم ولا عد، وإن بدا الأمر غير ذلك، وسبحان محي العظام وهي رميم، جرت اتصالات، وتبدلت عبارات، وجاء أبو ستة وخلفه المخبر الذي لا يرى في الخطط إلا مصحوبا به، أصر على بقاءه برغم زوال الخطر عنه، وإبادة الجماعة المعارضة التي هددته، لكنه رجا العناني ان يدع المخبر يصحبه لأن الناس اعتادت رؤيته خلفه، وسحبه فيه اقلال لقيمته، ربت أبو ستة على كنف العامل مقطوع الذراع، بدا افراز عينيه كئيفاً، ولهفته بطيئة، تهته طالبا من العامل ان يعترف، لكن العامل لم ينطق، حتى انهم لم يعرفوا مهنته على وجه الدقة، وأخيراً اقتادوه الى مكان ما، واعلن ابو ستة عقب خروجه من المقر أن ادارة أمن الخطط وضعت على أول خيط سيقود الى التنظيم الأعجمي الارهابي الذي دأب على انتاذا آثار الخطط، وتعطيل أعمال مصلحة التهريب، وان ثمة تفاصيل خطيرة سيعلمها مجدي رمزي قريباً، وستكشف أبعاد الخطط الاجرامي، خارج المدخل الشرقي، عند أول المسافة المؤدية الى الحي السابع ظهر شخص

هائل الحجم، يرتدي ثياباً متعددة فوق بعضها، قمصان وجلاليس وبالطو، لم يتغير برتق، لكنه ازداد ضخامة، تفرطحت قدماء حتى أصبحتا أضاعف حجم خف الجمل، لم يتخلل المشيب شعره، يتطلع الى ما يبدو من الضاحية الأولى، مساحات الاسفلت الشاسعة، الضاحية التي كانت زهرة الخطط، تحنو على القريب، وتريح المكدود، وتهدي لظى الهجر، وتحبي الموات من جميل الذكريات، ظلال أشجارها كانت ترقق الأفئدة الجامدة، يلوح برتق بيديه، يتأيل، يبدو كأنه يقوم بطقوس غامضة، أو رقصة غريبة، لم تعرفها طقوس الخطط، فجأة زعق زعقة أرجفت عدداً من الناس تصادف وقوفهم عند المداخل، جئير غاضب، مثقل باللوم والأسى:

يا ناس.. يا ناس.. يا ناس...

الحي السابع ..

.. مساحاته شاسعة، ومناطقه عديدة، وخيراته بلا حصر فيه أكبر كثافة سكانية في الخطط، يتخلله النهر الرئيسي يحفه الجبل الشرقي أعلى مرتفعات الخطط، في الزمن القديم كان لونه أحمر بسبب ما يبطنه من خام الحديد، بعد بيعه الى شركة استثمارية أجنبية، تغير، أصبح حائلا، لا يمكن تحديده أهو بني يميل الى قتامة؟ أو أصفر به شوائب بنفسجية؟ استغرق نهب الشركة له سبع سنوات، في آخر يوم منها انتهى آخر جرام يحتويه من الخام، نفذ ما تبقى من ذهب المناجم العتيقة وفيروز العصور الخوالي، والمصدر الوحيد للحجر الشب. حدث تغير في مواضع معينة، لكن لوحظ ان أعلى القمم ارتفاعا راحت تدنو يوميا من الأرض، وعلل البعض هذه الظاهرة بسبب تحويل جزء كبير من الصحراء القريبة الى مستودع هائل للنفايات الذرية الأوروبية، والأمريكية، لم يتأكد صحة ذلك، لكن المؤكد ان هذه الصحراء خلت تماما من كل حي، أنسي، أو حيواني، أبعدت ثلاث قبائل تمت الى

أصول عرقية غامضة من أهالي الخطط في العصر العتيق، ولم تفارق الصحراء طوال آلاف السنين يضم الحي السابع الأرض المزروعة والتي ضاقت رقعتها الى أقل حد ممكن، جرى اضمحلال الزرع بإشراف مباشر من التنوخي واستحق لذلك وسام الفشل من الطبقة الأولى. وهو من أرفع الأوسمة المستحدثة، يضم الحي أيضاً السواقي، والشوادي، وآلات الري القديمة والحديثة، ويضم قصور الضيافة، والممر الجوي الخاص برؤساء الدول الذين يعبرون سماء الخطط، كما يحوي سائر المصالح، والمقرات، والقلاع القديمة، ومواقع خروج الحملات الحربية في الأزمنة المندثرة، والميدان المخصص لاصطفاف موكب رؤية الهلال الرمضاني، وأهلة الشهور الهجرية، ومنصة الاحتفالات، وأكشاك توزيع الخبز، والمواد الغذائية الاستثنائية. ومجموعة الوثائق والملفات..

الشجرة..

.. أول الأحداث التي جرت بعد تولي التنوخي مباشرة جز الأشجار النادرة، شكلت مجموعة من العمال المزودين بالآلات الكهربائية، اجتثوا الباسقات المورقات، ثم ذلك بسهولة في المناطق المتطرفة، والطرق الفرعية، ثم اتجهوا الى مجموعة أشجار يعز وجودها في الدنيا، تم غرسها في العصر

السلطاني الثاني منذ ستمائة عام. العجيب ان اللون الأخضر لا يغيب عنها أبدا. تظل وارقة طوال الفصول الأربعة تلك الحضرة الدائمة حيرت علماء النبات، لكن ما ظل لغزا مستعصيا، شجرة العين، انها تتوسط المجموعة، ضخمة الجذع، معروقة، عند النقطة التي يبدأ منها تفرع الفصون يتدفق ماء صاف، عذب، لا مثيل لمذاقه، ينبع من قلب الشجرة، مجهول المصدر، لا يدري انسان من أين يتدفق، أو كيف، أدرك أهالي الخطط مزاياه، وقدراته العجيبة على شفاء الأمراض وتخفيف الأوجاع خاصة حصوات الكلى، تشابك الفروع وتداخل الأغصان، وزعم البعض أن جذع شجرة العين يضم حلقات يصعب احصائها، وأن مجموعها يشكل العمر الحقيقي للخطط، في نهاية كل قرن زمني مئوي تتشكل دائرة جديدة، الفروع مسكونة بطيور دقيقة الحجم، طويلة المنقار، متعددة الألوان، امكن احصاء مائة وعشرين درجة من اللون الأحمر فقط في جناحي كل منها، يقال إن هذه الطيور جاءت مع الأشجار من موطنها الأصلي المجهول اذ لا نظير لها في العالم. الطيور لا تفارق الأشجار أبدا، واذا تصادف خروج أحد صفارها أثناء تعلمه الطيران فانه يسقط ميتا، اذا شط أحد كبارها وابتمد لا تقوى جناحاه على حمله، او الضرب في الفراغ، واذا لامس الأرض يرق حجمه ويبهت منظره حتى

يستحيل تحنيطه أو الاحتفاظ به، أحد أثرياء الأغراب أبدى
رغبة في الحصول على بعضها، دفع رشاوى هينة لتمكينه من
صيدها، جاء بشباك نادرة ومعدات ملونة. لكن راحت
جهوده سدى، إذ بمجرد اقتناص أحدها يجري ما فصلناه
سابقاً، وهذا عجيب!

شيء مشابه جرى بالنسبة لماء العين، إذ طمع أحدهم في
تحليلها، ومعرفة خواصها، وتعبئتها في زجاجات، وبيعها، قيل
أن العين كفت عن التدفق عند الشروع في أخذ العينات،
وأفسد ذلك المشروع، وهذا عجيب أيضاً..

في الشتاء تجيء إلى الخطط أنواع لا حصر لها من البط،
والعصافير وسائر أنواع الطيور، بعضها يجيء من القطب
الشمالي. وآخر يجيء من القطب الجنوبي، تنتشر في أماكن
الدفء لكنها لا تأوي أبداً إلى مجموعة الأشجار النادرة، ثم
حكايات قديمة عن طائر أخضر اللون جميل الطلعة، له عينا
إنسان، يقبع فوق غصن معين متفرع عن شجرة العين، أنه
الوحيد من نوعه في الكوكب كله، تختص بظهوره الخطط
دون غيرها، ويقال أنه لا يفارقها قط، إنما يظهر في أوقات
معلومة مع بداية الفصول الأربعة، من يقدر له سماع شجوه
الغامض فإنه يأمن التيه في البر والبحر طوال عمره، ولا يضل
طريقه أبداً، ولو كان أخرساً لنطق لتوه ولو عنده صرع لشفي

فوراً، يقول عجائز الخطط إن هذا الطائر الفريد بلونه
الأخضر وعينه الآدميتين باق مع الخطط منذ ظهورها في
الدنيا، وإلى يوم معلوم عنده وحده في علاه، وإن سكن
للخطط فيه خير وبركة يسمع صوته في الليالي القمرية والليالي
الممطرة، وقد يرى ظله منعكساً على النجوم، جرت أربع
محاولات لجزء هذه الأشجار ولسبب ما لم تنجح أحيطت بسياج
حديدي، وشدت الحراسات، أرجى أمر المجموعة النادرة
إلى حين، وبدأوا بالحديقة القديمة..، إنها أقدم حدائق
الخطط، أنشأها أمير في العصر الذهبي البعيد، أجرى الماء في
قنوات متشابكة، ورتب مصادره ترتيباً محكماً بحيث تتدفق
المياه وفقاً لحيل خفية طوال ساعات الليل والنهار، ويشعر
الماشي في ممراتها كأنه يخطو فوق الماء، فيما تلى ذلك من عهود
جرى تقليد، بمجرد تولي السلاطين مقاليد الحكم يسارعون
بإضافة منشأ جديد إلى الحديقة، بطل ذلك مع زوال العصر
السلطاني، ثم بدأ تدهور الحديقة في العهد الجمهوري الأول،
عندما أزيلت أكشاك الموسيقى التي اعتاد الناس التوجه إليها
صباح الجمع والآحاد، للاستماع إلى موسيقى البوليس،
والمطافئ، والفرق الزائرة، ولما هذا وراح كأنه لم يكن،
وأصبح ذكريات مبهم، بعد أن كان ملاً العيون والمهج،
وسبحان مغير كل شيء، ومعني كل جديد، له الأول وله

الآخر، وهو من قبل ومن بعد، وما عداه عدم، الرحمة يا عالما
 بسر الزمن، من أين يأتي؟ وإلى أين يمضي؟ ولماذا كان
 الأمس؟ ولماذا سيولد الغد؟ ولماذا تقبى اللحظة الجميلة؟ يا
 مالكاً توحد، ولت أيام الخطط الجميلة، لنا التمني، ولك
 المشيئة والنفاذ. شطرت الحديقة بعد أن مدت خطوط الترام،
 ثم أزيلت في العهد الجمهوري الثاني، ثم أعيد الترام مع الحركة
 التصحيحية التي تخللت العهد الثالث، ثم اختفى تماماً منذ
 عهد ليس ببعيد، وصاحب هذا كله هدم، وتشويه للحديقة
 أحاطها التلويح بسور حجري، ردم قنوات المياه المتبقية، لم
 تستطع أنواع الزهور النادرة البقاء. ثم ظهرت أنواع أكثر
 غلظة، تشبه الزهور التي تنمو فوق المقابر، وقيل إن الحديقة
 ترثي نفسها، وتلد ورود العزاء، ثم جاء رجل متمدن
 الجنسيات، بدأ مشروعاً لتجريف الحديقة، استمر العمل ليلاً
 ونهاراً لمدة أربعة وعشرين شهراً. تم نقل طين خصب يكفي
 لزراعة مائة ألف فدان صحراوية، وقيل إن عمق التربة
 الخصبة بلغ سبعة كيلو مترات، مما أدهش هذا المستثمر متعدد
 الجنسيات، وعد هذه الصفقة فرصة عمره. وتمنى التلويح لو
 أنه طلب عمولة أكثر مما حصل عليها لكن القضاء نفذ، تحول
 الطين إلى طوب أحمر، وطوب أبيض، وطوب عازل
 للحرارة، وإلى مواد أخرى، ونقل جزء عظيم منه إلى بلاد

بعيدة لزراعة أرضها الجرداء. بعد الفراغ من الحديقة عادوا
 مرة أخرى إلى مجموعة الأشجار النادرة مع الضربة الأولى
 سمع العمال صوتاً شاكياً، مجهول المصدر، يحوي الألم الثاقب،
 يخرج من بين الصلب والترائب، ألم ليس بأرضي أو سماوي،
 مألوف لكنه غريب، أنثوي الشجن لكنه خشن، تذكر العمال
 ما جرى لبعض زملائهم في الضاحية الأولى، أشيع بينهم أن
 الطائر الأخضر من طيور الجنة، وأنه مبعوث ليتصم ظهور كل
 من أرادوا الخطط بشر، وتردد أن الطائر يسح دمعا من
 مقتلبيه الأدميتين، وأن ماء العين أدركته ملوحة، أدى هذا
 كله إلى ابتعاد العمال الخططين، برغم احتياجهم، وضيق
 أموالهم، حتى رجال العناني ارتبكوا، مع أنهم يحملون أقسى
 القلوب وأغلظ الأكباد، ويتقاضون مكافآت تشجيعية تعرف
 بمكافآت القسوة، أدى ذلك إلى الاستعانة بعمال آسيويين. كان
 اجتثاث الأشجار النادرة وعراً، بدت جذوعها وكأنها قدت
 من صوان أو حديد، جرى اقتلاع شجرة كل أسبوع، تزايد
 الأنين، في الليل تردد عبر الحي السابع كله. ثم تجاوزته إلى
 سائر الخطط، ثم تردد في الفراغ الكوفي خارج الكوكب،
 ورصدت اصداؤه بين الجبرات، قيل أنه غضب الطائر
 الأخضر، أنها أرواح الموتى الذين يستظلون برائحة الأشجار
 همس العجائز: إنه باطن الأرض يتوجع إذ يبتسر، ينادي وما

من مغيث، وقلن، ليقعن في الخطط هول عظيم، تذكرن
الأطفال اثناء لعبهم، اذ يقع احدهم يقلن له، اسم الله عليك،
وعلى اختك الأحسن منك لكل انسان في الخطط شقيقة
تعيش تحت الأرض اذ يقوم تغفو اذ يغفو، تتألم لحظة الألم،
تفرح لحظة الفرح، لم تمض أيام عديدة حتى جرى العجب
الذي لم يسمع بمثيله ابدا. امكن إزالة كافة الأشجار النادرة،
عدا شجرة العين، حدث تطور عجيب استطالت الى حد لا
يمكن معه رؤية شواشيها، أو أطرافها، أو ذوائبها. كان الجذع
يخترق السحب المنخفضة والمرتفعة فشلت المعاول الكهربائية في
النيل منها، وعندما نجح سلاح آلي في الفوص عدة سنتيمترات
شعر العاملون بشيء خارق، كانت الشجرة تمتد، تنمو الى
اعلى، توقفت مياه العين عن التدفق تماما. لكن الشجرة
تجاوزت مدى الرؤية أصبح أصلها ثابتاً وفرعها في السماء..

منطقة التنوخي..

.. لم تكن عزيمته، لم يتردد عند أي فسوق، أو كذب، لم
يرث لأي زمن جميل مضى، ولم يأس للحظة حلوة ولت، ولم
يرعشه نغم، ولم ترد صورة واحد من أهله على مخيلته، قدت
ملاحه من صخر، اجتثت الأشجار المتفرقة، انهي وجود
النخيل، أجهز على الحب والنوى، أباد الصفصافات،

والجازورينا، والاكاسيا، والكافور، والجميز، محا الظلال،
والسواقي، والشواذيف، وباعها جميعها بأجنس الاثمان إلى
متحف متخصص في تاريخ الآلات الزراعية، قطع جاذرة
الحماثل، والتعريشات، في زمنه شح الريف الجميل، وقل بيض
الدجاج الى النصف، وأصببت المباشي بعقم أصيل، لم يتخمر
أي عجين، صار الناس يأكلون الخبز عجينا مسلوفاً، لم تتأجج
نيران، ولم يتكون وش اللبن، قاسى الفلاحون ما لا خير فيه،
وعانوا هجاءاً فظيماً، وطفشوا خارج الخطط، اهملت
القناطر والسدود، وسنفضل ذلك عند الحديث عما جرى
للخزان الكبير، عرف عنه حبه وولعه بتقويض الجسور،
الصغيرة المصنوعة من جذوع النخيل، أو المحمولة فوق دعائم
الإسمنت والحديد، اتخذ مقره في قارب الحلي، استقر في
الغرفة الدائرية الشهيرة، طريقه اليها طويل، وعمر، مر
بمراحل عديدة، أثبت خلالها انحطاطه وتدنيه. برهن على
خساسته وضعة أصله، وعدم اخلاصه لأي إنسان، صحيح أن
هناك شخصيات في الخطط أشد قسوة، وأكثر قدرة على
ارتكاب المعاصي لكن لدى كل منها جانب هين، لين، في
النادر يبدو، ومعظم الوقت يختفي، خلا التنوخي من أية
بارقة، لهذا.. يقال إن الأستاذ كان مبهورا به، اعتبره البذرة
المناسبة للسبخة العطنة، لم تسجل سيرته أية لمحة تعاطف مع

إنسان أو حيوان، لم تطوه لحظة-حانية، حتى الجنس إن لم يقترن بشر كيف فلا لذة تصحبه أو متعة. بعد سيطرته على الحي السابع المكتظ لم ينقطع عن عاداته، كأن يدير أرقام التليفون كيفما اتفق، يحدث اصواتا فاضحة أو يتفوه بالفاظ قبيحة جدا، أو يمشي في الطرقات النائية، الهادئة، عند اقتراب امرأة أو طفل يكشف ما خفي منه، لم يكن بمنأى عن الشذوذ، كاد أن يقتل عندما صاحب عدداً من العاطلين والبلطجية وأرباب السوابق، منهم من تولى مناصب هامة فيما بعد، من وقائعه التي لا تنسى ما قام به عقب اختفاء الأستاذ في الشوارع والاسوار، نشر الاشاعات المتقنة ضده، بل قدم أدلة تثبت تعامل الأستاذ مع الأعداء، وتؤكد أنه سلم اليهم اسرار المواقع الدفاعية البحرية، وكان التعامل معهم يدفع الى المشنقة وقتئذ، وهذا بعكس ما صارت اليه الأحوال فيما بعد، وسبحان مبدل الأوضاع في تلك الخطط، أشيع يومئذ ان الأستاذ اعتقل، وان التنوخي حضر عمليات التعذيب بنفسه، بل شارك فيها، ولم يثبت صحة ذلك. في بداية العهد الجمهوري الرابع رد الاعتبار الى الأستاذ. حوكم من أدانه، ومن شنع ضده عدا التنوخي وطورد كل من ألحق الأذى بسمعته، عدا التنوخي، واعتبر المؤرخون الرسميون فترة الاتهام بالتجسس من مراحل الجهاد، وكتب الدكتور عبد

العظيم السوافيري مؤلفا صغيرا حول أيام المعتقل، مع انه لم يثبت بالدليل القاطع سجن الأستاذ أو تعذيبه. بل انه لم يظهر أبدا طوال حدوث هذه التقلبات، وقيل انه مقيم في الضاحية النائية، وانه يتجول سرا في الخطط، وتردد انه غير راض عما يجري، وانه كتب منشورا سريا يقول فيه انه لم يهدف الى حدوث ما حدث في الضواحي، لم يمنع ذلك الروائيون المعتمدون، - والحائزون على تراخيص من الضاحية الأولى، - من كتابة عدة روايات حول الأيام التي قضاها الأستاذ في السجن، درست سيرته لتلاميذ الصف الأول، واعتبر تجسسه مثالا يجب ان يحتذى. وحلل الأطباء النفسيون صورته، واعتبر اليوم الذي جند فيه الأستاذ جاسوسا من اعياد الخطط العامة، وقرر تعطيل المصالح والدوائر في الحي السابع، وفي أول احتفال بالعيد قال التنوخي في احتفال مهيب حلقت خلاله عدة طائرات عمودية، انه لم تعد هناك اسرار في الخطط، ارسى حجر الأساس لمؤسسة افشاء الأسرار، وأعلن ان العناني سيتولى ادارتها الى جانب مهامه الأخرى. ثم ازاح الستار عن تمثال نصفي للأستاذ..

اسرار الخطط ومكوناتها ..

.. جرى كل شيء بحسبان، وسبحان من ليس له ثان، جاءت هذه المؤسسة في وقت انكشفت فيه الخطط، وهتك زمامها، وجرح مكنونها، راقبت فيه الأحوال لأعدائها، ودنا تمكنهم منها، رخصت أيامها، ونأى ماضيها، وأغبر حاضرها، وأدلم مستقبلها الآتي، ألطف يا فارج الكرب، يا مبيد النقم، لنا أن نشكو، وعليك التدبير، لنا العمل ولك النتيجة وترتيب الصدف. تركز نشاط هذه المنشأة في بيع الأسرار العامة، والأسرار الخاصة. اختصت الوحدة الأولى بالأسرار السيادية وتشمل الأمور الدفاعية، وتنتهي بالصحية، تركز عملها باتجاه الخارج، استثنى عدد من أثرياء الخطط الجدد الذين رغبوا في الاطلاع على الأرقام الحقيقية لديون الخطط، والنبؤات العلمية التي تحدد استهلاك الأهالي من اللحوم والخبز في مطلع القرن. وعدد صواري الأعلام الرسمية والشعبية، وعدد الزوار الأجانب على امتداد خمسة أعوام مضت، وعدد اغطية البالوعات في جميع انحاء الخطط، ومقدار قناطير القطن المنتجة منذ دخول هذا النبات الى الخطط، أحصت المؤسسة كافة انواع الأسرار، اتضح ان ما

يخص الادارات والأجهزة سبعة مليارات، أما ما يتعلق بالخلق فلا حصر له، جرى التصنيف وترتيب الأرشيف والكشف عن القوائم، وخبايا الملفات، تم استثناء عدد من الأسرار الهامة وضعت تحت تصرف الشخصيات الرئيسية واهالي الضاحية النائية. استبعدت الأسرار التي لا معنى لها، والتي لن تباع بمال، انما تحتاج الى إنفاق لا طائل منه لكشف الحجب عنها، ومنها، سر تخنيط المومياءات، واحتفاظ المقابر بالألوان الزاهية بعد آلاف الأعوام، وسر تفتح الزهور في لحظة معينة، وسر حفاظ الطيور المهاجرة على اتجاهها منذ الأزل في زمان معلوم، وتوقيت مقدر، وسر الموت المفاجيء. وسر اللحظة التي يندفع فيها المولود الى خارج الرحم، وسر زرقة السماء بالنهار وسوادها في الليل. وسر تبدد الذكريات الجميلة، والذكريات الحزنة.

أما الوحدة الثانية فاختصت ببيع الأسرار المحلية، والخاصة، مثل الخيانات الزوجية، والفتن الصغيرة، وبدا إقبال الأجانب ضئيلا على هذا النوع، كما أنها لم تدر دخلا ذو قيمة لأن التعامل فيها جرى بالعملة المحلية للخطط التي فقدت قوتها بعد حروب المشارف، وجهد الدمياطي المنظم لمز هيبة الدينار الخططي. زعموا ان الأستاذ ارتاح الى نشاط المؤسسة، وأوصى بمطاردة أي انسان يحتفظ بأي سر عام، او

خاص كبير أو ضئيل، وطالب بسن قانون يعاقب على التفكير لصامت، أو الاستغراق في الوحدة إلا لمدة محددة، أو كتابة المذكرات الخاصة، أو الاحتفاظ برسائل الغرام في مكان أمين، أو إغلاق مطروف على وصية، عند هذه النقطة قال الأستاذ ايضا ان إعادة الأوضاع الى ما كانت عليه يقتضي سلسلة من خوارق الطبيعة، ومفارقات القدر، وقلب البناء كله، وطمس المعالم الثابتة، باختصار يحتاج الى خطط غير الخطط، غير أن ما جرى بعد حدوث الزلزال والسيول اذهل كل لبيب.. وتفصيل ذلك فيما يلي...

مطلب في الزلزال والسيول..

.. اعلم ان الخطط لم تعرف الكوارث الطبيعية على امتداد تاريخها لم ترسل سماءها الصواعق، او الأمطار الغزيرة، ولم تتعرض للزلازل المدمرة، وكان نهرها الوحيد حانيا فلم يأت إليها بالدمار أبدا، هل تتغير الطبيعة مع تبدل الظروف والأحوال؟ لا توجد اجابة قاطعة على مثل هذا السؤال لكن المعاش للواقع في مرحلة الضواحي يلحظ بلا شك ارتفاع حرارة الصيف، واشتداد القيظ، وحدة برد الشتاء، ونزول الثلج عدة مرات متعاقبة، ثم وقوع عدة هزات أرضية خفيفة سجلتها أجهزة المراسد قبل ان تعطل

وتصدأ ويبتل عملها، حتى وقع هذا الزلزال الكبير الذي لم يسمع بمثيله أبدا من قبل. حلت الكارثة بأحد أقسام الخطط الجنوبية، قعقع باطن الأرض، انفجارات مكتومة في الأعماق ماد كل شيء، انهارت البيوت، نفقت المواشي، جرفت الفلال، فسدت المحاصيل، طفت الثعابين والعقارب وحشرات سامة لم تعرف من قبل، نشرت أخبار الزلزال والسيول طبقا للأسلوب القديم الذي اتبع في المشارف المندثرة، رويت تفاصيل مؤثرة ونشرت صور اطفال غرقى، وعجائز بلا مأوى، ونخيل مقتلع الجذور يطفو فوق الأمواج، بثت الاذاعة بيانا اذيع عدة مرات، ملخصه ان الشخصيات الرئيسية بالخطط يتابعون الموقف ويبدون الاهتمام. اتصل العناني بمجدي رمزي وطلب ادراج اسمه بين الشخصيات المهمة بالكارثة، ثم طلب الدمياطي ضمه باعتباره مسئولا عن الشؤون الاقتصادية واغراق الخطط في الديون، ثم اتصل نجوم سينما، ولاعبو كرة، واصحاب صيدليات معقمة، والوكلاء الوحيدون، وكاتب معتمد مرخص له بمزاولة المهنة وعند هذا الحد طلب مجدي رمزي دفع رسم معين مقابل اضافة أو اعلان اسم أي شخص يرغب في الظهور كفاعل خير أو مهم بمصائر الآخرين، ولم يخف التنوخي ضيقه، اتصل بالعناني وأشار الى غرابة الأجزاء، ان مجدي هذا يقلقه، لكن العناني

لم يبد تجاوبا، تحدد يوم لتحرك الوفد الأول، من ناحية أخرى لم يستجب أي انسان لحملة الحث على التبرعات، طرب التنوخي وهش وبش لذلك، ودلل به على قسوة القلوب وتحجرها وانعزال كل انسان عن الآخر، لكن مجدي رمزي اعتبر الظاهرة باعثة على القلق، ربما يخشى الناس اختلاس أموالهم صحيح ان ادارة الحي السابع حققت تدنيا لا مثيل له في مجال الرشوة، وطبقا للمعايير البالية، حسن ان يمتنع الخلق لكن الواقع الجديد يقتضي وصول الناس الى درجة يقدمون فيها نقودهم وهم يعلمون تماما انها لن تصل الى الضحايا، انما ستختلس عن طيب خاطر، ارسلت هيئات دولية معونات غذائية، وبطاطين، وملابس، وخيام، اشرف الدمياطي على استلامها وتخزينها، ثم تصنيفها، تمهيدا لبيعها للمستهلكين، سافر الوفد الى منطقة السيول، إلتقطت الصور، ثم وزعت على وكالات الأنباء الأجنبية، وازاء النجاح الذي حققه الفوج الأول تم ترتيب عدة رحلات أخرى، بعضها يشمل الاقامة الأولى في فنادق الخمسة نجوم القرية من موقع الكارثة، والبعض الآخر نصف اقامة فقط، افطار وعشاء، أو افطار وغداء، والتحرك الى منطقة الكارثة في سيارات مكيفة مريحة. ضاق التنوخي بترتيب مجدي رمزي. سعى الى العناية في مقره السري، عدد منجزات الهلالي. كيف اخضع

المواهب وحط من قدر الفنون وقضى على فرص الدراسة الجادة؟ ماذا فعل مجدي رمزي غير بيعه للدكتوراه، لكن هل يغفر له ذلك سفره يوما على نفقته للحصول عليها؟ صحيح انه تنكر لكل ما درسه. كما ان علاقته بزوجته مثالية في انحطاطها، لكن.. ماذا قدم ليطور الواقع الجديد في الخطط؟.. ضحك العناني متسائلا: هل تصور أي انسان قيام رحلات سياحية لزيارة منطقة كوارث؟.. اصبح وجهه جادا فجأة: ان مجدي يقوم بما لا يمكن لغيره القيام به. انه يعرف صفات غير معلنة، يكفي قدرته على مدّ يده واختلاسه لكل ما يقع تحت بصره، يسرق من زوجته، من امه، يتمنى الالتحاق بمعهد النشل الابتدائي الذي انشئ اخيرا، انه يتصيد الأدباء الذين يرغبون في ترخيص مواهبهم ويقرأ اعمالهم، ثم ينشر ما اعجبه موقعا باسمه، انه اول من نبه الى خالد حسين واشتباهه في ممارسته الكتابة سرا، وعدم تقدمه لترخيص قلمه مجدي شاب وامامه زمن طويل سيوغل خلاله في الانحطاط، صمت العناني، ثم قال ضاحكا.. انه لا يخشى على نفسه إلا من مجدي هذا. في هذا اليوم عاد التنوخي الى الغرفة الدائرية وبداخله كمد..

الحزان الكبير ..

.. منذ حين وهذا البناء الذي لا مثيل له قائم في الضواحي كالحازوق، انه يذكر الناس بأيام بعيدة كان الحال فيها غير الحال، أولاه الأستاذ اهتماما تقليديا. وحاول النيل منه لكنه لم يستطع لأن الزمان لم يكن مواتيا، غير أن التنوخي تفرغ له أوقاتا غير قليلة في الحي السابع، واعتبره هدفا رئيسيا، جرى تشكيك خفي في تاريخ بنائه. وزمن الشروع فيه، فقليل مرة إنه انجز في العهد الجمهوري الثاني، وذكرت الكتب المدرسية انه شيد في بداية الحركة التصحيحية، أما «الأنباء» فنسبته الى عدة تواريخ مختلفة وبعد ظهور عكارة في مياه الشرب نشر تحليل علمي يشير الى مسؤولية الحزان ولأن الأهالي يعتبرونه أضخم ما شيد في المخطط، دأبت الاذاعة على القول بانه سيتم تشييد فندق سياحي يعادل حجم الحزان خمس مرات، أو سيتم افتتاح سوق ضخمة ستستخدم فيها مواد تفوق المستخدمة في الحزان سبع عشرة مرة، ثم قورن بمباني تتكون من عشرين طابقا، ثم جرت المقارنة بكباري خرسانية، تعاظم حقد التنوخي ضد الحزان، لم ينس انه مدحه يوما ولا زال يذكر عبارة «البعد المستقبلي»، كلما لاحت له من ثنايا ذاكرته انتابته سخرية، وأرقه ضيق، وحتى يتخلص من تلك المشاعر الغامضة كان

يقوم ويصيغ بعض الأقاويل والاشاعات الموجهة ضد الحزان القائم اقصى جنوب الخطط، يؤكد الأجانب أنه أصبح جزءاً من تضاريس المنطقة، كأنه ولد في عرض النهر، من المستحيل هدمه أو الانتقاص من حجمه. بل ان أية محاولة للتغيير من وضعه ستؤدي الى اغراق الخطط بمن فيها، في احدى الليالي تزايد حقد التنوخي، سب الحزان بصوت مرتفع، حطم نموذجاً قديماً من الجبس والخشب، اتصل بالعناني، وقال إن الذين اشتركوا في بناء هذا الحزان ولا زالوا على قيد الحياة يشكلون خميرة كريهة يجب التخلص منها، أبدى العناني دهشته، الأمر مفاجيء، حملة كهذه لا بد من الإعداد لها جيداً، قال التنوخي إن بعضهم معروف، مثل المهندسين الكبار، والصغار، هناك الفنيون، والعمال الذين اشتركوا في البناء ثم عادوا الى قراهم، طلب العناني الموافقة من الضاحية النائية، أبلغها الى التنوخي، وفي نفس الليلة اتصل الممثل الشخصي للملك زوغو ملك البانيا المخلوع وقدم تبرعا من أجل الحملة، بدأ التخطيط بسرعة، تم حصر سجلات الشركات، قوائم الأجور، الايصالات، الكتب الاعلامية المطبوعة وقتئذ، الصحف تمت مراجعة الصور الملتقطة لمواقع العمل، وتحديد الشخصيات، استنفر فرع السطو المنظم بالادارة وخطب رئيسه محمد الزعفراني في رجاله منبها الى

الفنائم التي تنتظرهم، وان العاقل سيؤخذ بالباطل، ظلت
 أناس التنوخي مكروشة من الحقد لمدة سبعة ايام حتى تم
 اعتقال مائة ألف، إعترف منهم تسعون ألفا بالمشاركة في بناء
 الخزان أما بعض الذين رحلوا الى الخارج للعمل والمشاركة في
 بناء خزانات أخرى فقد تم ابلاغ الانتربول بأوصافهم، بدأ
 تنظيم حملة استنكار الخزان، لأن اقامته عادت على الخطط
 بمصائب، وقع البعض بدون تفكير ورقة تتضمن رغباتهم في
 العودة السريعة الى عيالهم، أما الذين أبدوا رفضا وترددا
 فأسمعهم رجال الادارة الألفاظ الغليظة، عزل الرافضون
 بعضهم مهندسين كانوا شبانا وقت بناء الخزان، وكانت
 مشاركتهم أول ما قاموا به بعد تخرجهم، وثمة رجال تجاوزوا
 الستين، أكتافهم عريضة، لا يمكن تقدير أعمارهم، معظمهم
 رؤساء مواقع عمل، أو ملاحظون، أو فواعلية، وبعض عمال
 يرتدون الجلابيب من منطقة تقع اقصى جنوب الخطط، وهي
 المنطقة الوحيدة المستثناة من قرار إلغاء الجلابيب باعتباره
 فولكورا لأن معظم السكان هناك لا يعرفون إلا الجلابيب
 والعمائم وهم اشداء، معروفون بضراوتهم، واخلاصهم لقيم
 الزمن القديم، منع دخولهم تماما الى الضواحي، وكانت قوات
 الادارة تقوم بغارات منتظمة على المناطق الجنوبية لأسر عدد
 من الرجال الأشداء، ثم ربطهم في الحبال وإلقائهم في مراكب

تقلع بهم الى بلاد قصية وهناك يرغمون على أداء اشق
 الأعمال، وهذا أمر يطول تفصيله وله موضعه، المؤكد ان ثمة
 مناطق جنوبية لم تستطع قوات الادارة أسر صبي واحد أو
 عجزوا منها، وقال العارفون بالتواريخ المنسية ان رجال هذه
 البقاع المجهولة والتي لا تظهر بالخرائط كانوا يشعلون نارا لا
 تنطفئ كلما ادلهمت الأمور بالخطط، وهذا ثابت، بعض
 منهم رفض توقيع الاستنكار. قال العناني إن هذه الحملة
 أظهرت أمورا خطيرة، ان التغيير لم يدرك المناطق النائية،
 انها تحتوي جذور الخطر، لا زال الناس هناك يقسمون
 بالشرف، يرفضون الجحود، ويأخذون العهد، ويعطفون على
 الفقير، ويفتحون ابواب بيوتهم للغرباء، ويتبادلون أطباق
 الطعام. ويوقظون بعضهم في الفجر لأداء الفريضة، أية
 مصائب أكثر من تلك؟ أوصى العناني بضرورة اتخاذ
 اجراءات سريعة لاحتواء هذه الجهات وتدمير قيمها البالية.
 في اليوم التالي وقعت مفاجأة، اختفى العمال من ابناء
 الأطراف الجنوبية، هربوا من اماكن تجميع بناء الخزان
 الكبير، لم يعثر لهم على أثر كأنهم فص ملح وذاب، قالت
 الشواهد انهم اتجهوا الى الممرات الجبلية والتي لم تعرف حتى
 الآن إلا للمهربي المخدرات القدامى، لكن هؤلاء لا يستخدمونها
 حاليا بعد تنظيم استيراد وزراعة الحشيش والأفيون، اقلعت

الميلوكبترات وحادث اقمار مناعية عن مداراتها، وصل وفد من قصاصي الأثر، وأطلقت كلاب مدربة لكنها لم تستطع الاستمرار لأن المدقات كانت مرشوشة بالفلفل الأسود، استدعى البلشي للبحث عن اية بقايا خلفوها لكنه عجز تماما وهو المعروف عنه هوايته للحفاظ على بقايا الأشياء أو تأملها، اضطرب العناني لأول مرة منذ زمن طويل، حاول التنوخي تخفيف الأمر لكن عبثا. اعلن الزعفراني انه اطلق عصابات السطو المسلحة التابعة له، وانه أباح امامهم جميع المناطق الجنوبية بلا أي استثناء لمدة ثلاثة ايام، لأول مرة تنتهك هذه الأنحاء، لم يجدوا إلا العجائز من النساء والرجال، حلقوا الشوارب واللحي، فضحوا المسنات الهرمات، لم يتركوا الطري أو اليباس، سطوا على الجبن القديم والخبز الجاف، والركائب، والمرابض، وصوامع القمح، أشعلوا النار في عيدان الخطب، وأقراص الجلة، وأجولة الخيش، والدوم الجاف والقصب، ومخطوطات قديمة بقلم غريب، وتمايح محنطة وتعاويد وأحجبة، وخمسة وخمسة، وأكواب شاي صغيرة، ومواقد فخارية، ومعاول، وفثوس، ومقاطف، وزنايل، سرت الأخبار في سائر أنحاء الخطط كالماء المتدفقة الى الشراقي، وبدا مجدي رمزي منزعجا، كيف جرى ذلك، مع انه لم يذكر كلمة واحدة بل ان التليفزيون بث فيلما قديما

حول السعادة التي يعيشها الأهالي هناك موحيا انه صور بالأمس، أرهف عتاة العجم حواسهم، ثمة شيء خفي لم تفصح عنه الخطط حتى الآن يوشك ان يتضح وينجلي هل يبدو هذا الكامن، الخفي، على أيدي هؤلاء الأشداء الأمين، ذوي الجلايب؟ افقدت جذوة الآمال الخبيثة المطمورة، أهى الخطط تفاجيء الدنيا بما لا يمكن توقعه؟ أهى الشرارة تندلع في وقت لا يمكن تصور أية صحوة فيه؟ ماذا يجري؟ كثيرون قالوا ان الخطط ماتت، دانت للشركلة، خلت من أي خير، وان كل شيء انقلب الى نقيضه، وما من امل يرجى الى أبد الآبدين. ونال من الخطط الوضع والرفيع، وتناول عليها من في قلوبهم مرض، ولم يروا فيها إلا كل قبيح. هل آن للزمان الجميل ان يعود؟. بعض عتاة العجم نصحوا بعدم التهويل في الأمور واعطاء كل شيء حجمه ما جرى حادث هروب سادي، لكن الشخصيات الرئيسية في الخطط والمسكة بمقاييد الأمور كانت اكثر تقديرا للدلالة والمغزى ابلغ مجدي رمزي ان الماربين يضمون بين فلولهم المغني الذي حير الضاحية الأولى طويلا، كما ان الأدلة تؤكد ان المولود الوحيد المتبقي على قيد الحياة من مواليد الشارع الخامس يصحبهم. لم يفصح مجدي رمزي عن مصدره، ثم سجلت دوريات القنلة المحترفين عدة بلاغات من غناء تردد في الليل الغويط، غناء لا ينبعث

من مدياع، غناء شجي حتى أن كل من سمعه هم بفتح
نوافذه، غناء يعتمر مراقد القلوب، ويحرك الأجنة، يرجف
الشاعر، يدر الندى الصافي، غناء نسيه الخلق منذ بداية
الضواحي يرثي الأيام الحلوة، وأيام الجهاد النائية، ويحن الى
مراضع البراءة في الخطط، حيث الصورة صورة، والأصل
أصل، الغروب غروب والشرق شروق، والسحب في
الأعالي، وشذا الطرقات البعيدة يفد الى النواصي. والظلال
المسائية التي تبعث الأسى الرقراق، وأطياف الأيام الحلوة
التي يحلم بها الخلق ولم يعيشوها. ثم بدأ همس يسري. ثم قائل
يقول ان احدهم دس في يده ورقة تحوي عبارة تمجد الخزان
الكبير، وآخر يقول بأنه عثر على خطاب دفع من تحت باب
بيته يعدد منافع الخزان، وفي نهايته يطلب كاتبه نسخه مائة
مرة وارسالة الى الأحياب والأصحاب، ومن يفعل له الثواب،
وترددت إشاعات عن وجود نماذج مصغرة للخزان، ثم شيء
خفي لا يبين يسري في أوصال الخطط، استمصى فهمه على
أصحاب الشأن، والمحبين، وحير قوات الادارة التي انتشرت
عند المنافذ والتقاسيم، خاصة منافذ الخطط المؤدية الى
الصحراء الجنوبية، سجلت الادارة اختفاء عدد من اهالي
الخطط بل ان منهم بعض الذين لعبوا دورا هاما في الشوارع
والاسوار وتبين من الاحصائيات المبدئية ان بينهم شعراء

وقصاصين ورسامين رفضوا التقدم للحصول على تراخيص.
وعدد من علماء الآثار القدامى الذين لم يلتحقوا بمصلحة
التحريب، بلغت ذروة الحملة ضد الخزان باعتقال كل من
تحمس له، وترددت نكتة تقول إنه سيجري اعتقال كل من
ولد زمن بناء الخزان، وأقلق ترديد ما مجدي رمزي اذ ان
النكت لم تتردد منذ زمن بعيد، وقيل ان الأستاذ ارسل
برقية الى العناني، والى التنوخي، من مكانه الخفي، يحذرهما
بما هو كائن، وما سيكون..

الخلاوي..

.. تنبىء الظروف السائدة كل ساع الى هذه البقاع بهلاك
مبين، وسبحان خالق الحياة من الجهاد، ومنبت البذرة من
الحجر، صحراء الخطط الجنوبية جهمة، تخلو من السراب،
الصحراء الواقعة غرب النهر بحر من رمال ناعمة، لا تتنوع
المشاهد فيها مثل الصحراء الجنوبية، في الغرب رمال كالدقيق
في مناطق عديدة تشبه البحر لا قرار ولا نهاية صلبة لعمقها،
في هذه الصحراء اختفى جيش بأكمله منذ ألف ألف سنة،
جيش اجني غزا الخطط واخضعها، ثم اقتنع قائده بنبؤة
ضارب رمل وقارىء للنجوم حول منجم بكر للذهب لم يعرف
أبدا، الذهب فيه لا يحتاج الى جهد لاستخراجه، ظاهر فوق

الأرض بهيب بالناس أن يأخذوه، اتجه الجيش عبر مناطق البدو والحضر، اتبع الطريق الذي رسمه العراف، ولم يرجع جندي واحد، ولم يقف لهم حي على أثر تبدد الجيش كأنه لم يكن، انطائرات لا تحلق فوق هذه الصحراء، لأن معالمها الأرضية معدومة، وما من جهة علمية قامت بدراسة التيارات الهوائية والعواصف التي تهب في أوقات متفاوتة، خلال الحرب الرابعة التي دارت بين الأعداء والخطط اقلعت عشر طائرات مقاتلة للإغارة على المحي السابع، شوهدت الطائرات على شاشات الرادار، واتجهت الى المجال الجوي لـصحراء. اختفت النقاط البيضاء من شاشات الرادار المستديرة وعبثا حاولت وسائل الرصد اكتشافها، وهذا عجيب، اثناء الحرب الثالثة خرجت دوريات من أهالي الخطط المسلحين لاقامة نقاط انذار متقدمة لكنهم لم يستطيعوا التوغل في الصحراء الجنوبية أو الشرقية لوعورة الصخر، وبروز أسنة حادة، وتكوينات متتالية من حجارة صلبة سوداء أكد المقاتلون ان المنطقة تشكل حصنا طبيعيا نادرا بقي الخطط أي خطر قادم من جهة البحر، أكد علماء الجيولوجيا الذين درسوا صخور القمر والمريخ وحددوا أماكن هبوط المركبات الفضائية استحالة صلاحية الصحراء للحياة، أو لأية أعمال عسكرية، وقالوا ان هذه المنطقة لا مثيل لها في

الكون، وان الخطط انفردت بها دون غيرها، وطلبت الادارة مشورة اكبر مهربي المخدرات القدامى سنا، والذي يعمل حاليا مستشارا لزراعة الأفيون الرسمي، أكد انه طوال عمره لم يسمع عن مهرب اخترق هذا الجزء الجنوبي، ليس لوعورة الخلاوى، انما لوجود حيوانات ضارية اخطرها القط الأرقط، والكباش الضخمة التي يبلغ حجم الواحد منها كالجمال. أما الثعابين فمن اخطر الأنواع، لا.. مستحيل استخدام هذه الصحراء لأي غرض..، لكن تردد ان الأستاذ بعث رسولا الى من يعينهم الأمر ينبههم ويحذرهم. بدأ الخروج الى الخلاوى فانتبهوا..

« أول من خرج .. وآوى الى كهوف التقيّة .. »

.. يا خطط، يا جنة خضراء في الزمان القديم، يا رباط الخيل، أدق أبوابك، فلا تنهريني يا خطط، دمعي جرى حتى بلل الأجفان، قسا زمانك على سكانك، وضاعت بهم الأيام والليالي، لكن لك احكام تدور، دموعي ذوارف، وهواي متصدع، ضج بي الرمل والحصى، تعبت من الوجد، فيا عيني جودي بالدموع السفاح، وأملّي فيمن رفع السماء بغير عمد، أوقاتك تجيء احيانا بيضاء مزخرفة، وأحيانا تبدو في مثل

عكارة الليل، في ايامك اكلنا الزاد مع السرور والهنا، وفي
ايامك عُفنا الزاد ولو كان حاضرا، آه.. لو تنزاح الشدائد،
لكن لكل امر حسابان، بدأ زمن الخروج، والحقيقة ان
شواهد لاحت منذ زمن عندما اضر بعض اشداء العزم،
واتفقوا على انقاذ الآثار القديمة من مخازن مصلحة تهريب
الآثار والأماكن المعدة للتجار فيها، وجرى الأمر وفقا لترتيب
دقيق، لا داعي للكشف عنها حتى لا نضيف عقبة الى
العوائق التي تعطل عودة الزمن الجميل، وضعت الآثار في
مغارة قديمة تقع في بطن الصحراء الجنوبية، مدخلها يقع على
بعد عشرات الأميال، يقع بين شجيرات كثيفة في بقعة نائية،
وقال آخرون ان المدخل عبارة عن فوهة فرن، لكن هذا
خروج مؤقت، تعقبه عودة، اما الاختفاء من معارك التخلي
عن البيت، والمقهى، والأصحاب فله شأن آخر، أول من
خرج صاحب الفندق القديم، وزع محتويات سيارته على جهات
لا حصر لها. لم يتبق معه إلا لوحة أصلية لتولوز لوتريك، تمثل
ثلاث نساء هرمات متقاربات الرؤس في مقهى افرنجي،
ساحبات، صامسات، وعلى ملاحظهن حزن عظيم لم يصحب إلا
هذه اللوحة، وثيابه التي تغطي جسمه، وحذاء قديم، ومقدار
هائلا من الذكريات، تمكن من الوصول الى نقطة لم يخط أي
إنسان بعدها، اذا شرد عندها الجمل لا يشرع صاحبه في

البحث عنه، لم يصنع الى أية تحذيرات كأنه لم يلتق ببشر، نأى
عن كل عامر، عزم أمره وأوغل في البعد.

كان مطلوبا فيك يا خطط يا من تبدلت احوالك، ولم
تعودي آمنة له في مدنك، فلجأ الى خلواتك، عزَّ عليه الخروج
من اسوارك وشوارعك، وضواحيك، لكن إذا ضاق الحال
ففيك منأى من الأذى، وفي ترامي أطرافك دار هجرة عز
عليه أن يقاسي هجاءا وهو يدنو من الستين، ظن طوال
مراحل عمره انه سيلقى في شيخوخته الهدوء وراحة البال،
ظن انه عندما يصل اليه سيرمي الحمول الثقيلة يأوي الى
دفع صالة الفندق الشتوية، جلوسه المستكن يصفي الى
احاديث النزلاء، بعينيه يودع الراحلين ويستقبل القادمين،
ولَّت ليالي الهنا والعز يا أسفي، راحت ايام السرور والنشوة
الغامضة والفرحة بمجيء صباح جديد، يتبدل كل شيء فيك
يا خطط، وما من أمر يبقى على حاله، لن يرى دقيقة
اللامح. عندما تجيئه، كان يقبع في مواجهة عذوبتها، يصفي
الى رفات رموشها، الى همس عينيها، وتألق انساني عينيها
الخضراوين، يتل قلبه بالرضى تنصرف مجللة بالحنين. لكن
لا شيء يخفى أو يضيع فيك يا خطط، هجرته لك لم تبق
سرا، رويت سرا حكايات مجهولة المصدر عن خروجه،
حكاها من لم يره قط، واصفى اليها من لم يسمع بهم، قيل انه

لم يعرف الخلاوى، أو وعورتها، وقسوتها، وحدة صخورها، وتنوع وحوشها وأنه أسلم نفسه الى المقادير، وقيل أنه درس كل شبر فيها، وإلا كيف اتجه اليها ولم يول وجهه شطر ناحية اخرى، كيف أوغل بأيامه ولوحة تولوز لوتريك؟. لكن لم يعرف الكثيرون لوقت طويل ان سليمان صحبه، مشى معه رافقه ولحقه الندى أمامه، وعلمه مضغ الحشائش والرقاد فوق الصخر والتفاهم مع النجوم وتحديد الأيام وفسر له أصوات الرياح والديب الذي يسري، وكيف يقصي وحوش الخلاوى، ويتعرف على آثار الزواحف السامة فوق الصخور الملاء. ثم يصحبه حتى آوى الى أحد كهوف التقية، ثم انصرف عنه، بقي صاحب الفندق وحيدا، خلق الى السماء البادية. في البدء استعاد ايامك الجميلة والزمن المولي وتمنى بصوت عال ان يعود منذ زمن وقلبه يرصد ما يجري، كان إذ يرى أحد الأجانب يردد، غريب.. غريب، كلهم أغراب عن الخطط، خلق الساعات الطوال الى اللوحة التي صيغت ألوانها من أطيايف الضوء المتبقي بعد المطر، عاد اليه سليمان، علمه أنهم يخزن ريقه، كيف يعتاد وحشة المكان ثم انصرف مرة ثانية. في كهف التقية استعاد تفاصيل لوحات عشقها حتى اصبح قلبه صالة عرض غير مرئية صيغت من الوهم والذكريات والارتجافات المباغطة، اثتنس بالنساء الثلاث.

صار يومىء اليهن، يشكو ويناجي ويبدو الوحشة، غاب سليمان مقداراً ليس بالهين، لم تغب عنه احوالك، وكان عليه ان يمضي سنتين وحيدا قبل ان يرى الذين هاجروا منك، وإليك، آه يا خطط، يا من تفتح فيك أبواب وفرجات في وقت يظن سائر الخلق ان المنافذ كلها اغلقت...

كهف التقية الثاني..

.. عجيب أمر الخطط، لا يمضي فيها مصير كما قرر صاحبه، أو كما توقعت النبوءات، لا تتوالى الخطوات كما شاء من يخطو، قالوا فيها ما لا يحصى، قالوا أنها غرورة تبدو لمن فيها عروس بارزة النهود، حلوة الشفتين، وعند الدنو تلوح عجوزا بشعة، فاعرة الفم، قالوا انها كالغازية، ترقص تتفنن وتأسر وبعد أن تنال تولي وتهجر مخلفة الخيبة والأسى، لعنها البنفسج واتهمها بأن من شأنها الغدر، وانها تبدل الأوضاع فمن يقف في الخلف تدفع به الى الأمام، ومن يقبع في الأعالي تهوي به. سبحانك أنت يا من توزع كؤوس المرارة. والفرج، لا شيء يمضي ابدا كما قدر الانسان، وقعت طيور بعد أن خلقت، وامتلات قلعوع بالرياح ثم ابتلعها البحار الزواجر، غلفت الحيتان وتألقت ثم صادفتها الأسنة والحرايب. لو أنبأ عظم المرافين عوف الوتيدي أن مضجعه سيصير هنا لقال!

كذب المنجمون ولو صدقوا. لكن هذا ما صار، وذلك ما جرى، عندما خلف وراءه الضواحي، لم يثق أنه سيمش حتى يرى اليوم التالي. الأرض التي يقدم على ارتيادها مجهولة، لم يسمع بها الناس الا كإسم على الخريطة، لكن ماذا تضم هذه الصحراء، كيف يبدو ليها، كيف يمضي نهارها؟ لم يعد أمامه ملاذ، سائر المنافذ في الخطط أحكم اغلاقها، ورصد المارين بها، كان الأمر أسهل في الشوارع، من الممكن تهريب أية شخصية الى الخارج، أصبح ذلك مستحيلا الآن بعد ان اعتقلوا ابنه الوحيد ارسل العناني في طلبه ضحك له. ثم خط بقلم أحمر خطوطا ودوائر فوق ورقة بيضاء، ثم قال أنه يتحدث الى زميل عزيز، وقديم: للأسف ان ابنه الوحيد من عتاة المعجم، ومن اشد المقاومين للحملة الجارية ضد الخزان... توقف العناني ليرى وقع المفاجأة، صمت الوتيدي، احتدت نظرات العناني ولهجته، قال انه لا يظهر امام أية شخصية، لكن الأمر يختلف مع زميل قديم أنقذ الدار من مخاطر لا حصر لها، لن ينسى يوم ان رمى بنفسه في النيران ليطفىء الحريق الذي اشتعل فيها، انه لا يطلب منه إلا ممارسة سلطان الأب على الولد. الولد شرس جدا، مجهل الظروف انه معاد للخطط، ينتمي الى جيل جديد من المعجم، المطلوب أن يذكر بنفسه، بلسانه، اسماء الثلاثة الذين

كان يلتقي بهم في الحي السابع، ان اسماءهم معروفة للإدارة بل سيقول أكثر من ذلك انهم مجاورون له في الزنانات الأخرى، لكن شرط الافراج عنه. واجتيازه السجن المركزي للخطط الى الحرية هو نطقه باسمائهم. قام الوتيدي متهدل الكتفين نظر الى ابنه وكأنه يراه لأول مرة كان حليقا، مجزوز الشعر، للمرة الأولى داخل الزنزانة الصماء يلحظ الوتيدي ان عيني ابنه نسخة رجولية من عيني اثيل التي ذهبت في الخطط الواسعة، بعد أن افضى بما عنده، نظر اليه ابنه، قال بهدوء...

عيب يا بابا...

عندما فارق السجن ادرك انهم لن يدعوه في حاله، وان حياته لن تمضي كما كانت، ومنذ متى سارت حياته كما يرجو ويتمنى؟ طوال عمره في الخطط ملطشة، كان يخاف العودة الى الملعب، وجريه وراء الرزق لكنه تحمل ما هو ألين، الزواج لم يذق له طعما، طوال عيشها معه كانت تدير ظهرها. تبدو جامدة اذا واجهته، واذا تشاجرا تقول له انه قبض ألف جنيه، كم اتخذ من القرارات ولم ينفذ؟ كم مرة اشتهى ولم يفعل؟ بعد تخرج الولد من المرحلة المتوسطة قالت اثناء تناولها الشاي انها ستذهب وضعت امامه مفاتيح الشقة والدولاب وآخر ايصال ايجار وبوليصة تأمين على حياة ابنها وبعض

المظاريف، قالت أنها لا تريد منه أي شيء، فيما بعد كان يردد في حديثه «بعد ان ذهبت عملت لابني أب وأم»، تذكر كثيراً الجعدي وترحم عليه، مات لحظة ان رأى ابنته في نفس السرير الذي رقدت عليه امها. وكان الرجلان في كل المرتين غريبين عنه. لم ترهقه إلا أيام الاجازات، كان يصحب الولد ويلوذ به الى أي متحف أو حديقة أو مقهى، مع تقلب العهود وتوالي المسافات، لم يعبأ به أحد في الدار، في المشارف نشبت الحرب الرابعة، وهاجم الأعداء بضراوة، قالوا فلنرسل الوتيدي، أوصاهم بالولد، وذهب ببساطة، طوال حياته لم يسمع طلقة مدفع، أو انقراض طائرة، لم ير الدم لحظة تفجيره، لكنه قام بالواجب، وصف ما لم يصفه احد، تعاقبت الرؤس على الدار، وتولى الهلالي ضاحية بأكملها واصبح ذكر اسم العناني يبعث الرهبة ولم يسأل انسان عنه، ولم يعبأ أحد به، ولم يستدعه مسئول الى اجتماع ظهرت شخصيات جديدة في الخطط، تقدمته وأصبحت أهم منه، وتوارى بعيداً تحمل من أجل الولد، لكن أن ينهره ابنه هكذا، ان يسدد اليه طلقه متفجرة، تتناثر شظاياها داخله، ناءت الخطط كلها فوقه، لأول مرة يشعر بأن الولد يقلت منه، يعتمد عنه، بل ان ما بينها بتر، أفاق الى ما يدور حوله، ليس هناك من يصني اليه، أما قلبه الذي ظل حتى الآن جلوداً

على البلايا فخف وأدركه وهن، حن الى امه، الى اصغائها، الى قصصها أخبار البيت، من تزوج، من تشاجر، من رحل، بدت أمه بعيدة، كأنها لم توجد أبداً، ضاق بافتقاده لها، بما يقرأه، بما يسمعه ضاق بلافتات الحملات المتوالية، بالاحاديث المتكررة عن نسيان ما جرى في الماضي من حروب، ضرورة التخلي عن العقد القديمة، خطب احدهم في الضاحية الأولى قائلاً ان الخطط لا تحوي الماضي بالمعنى المفهوم، انه يتشكل في أية لحظة طبقاً للمرحلة الآتية، والفائدة المرتجاة ضاق بالأغراب منذ خروجه من السجن المركزي بعد مقابلة الولد، لم يذهب الى الأبناء، لف طويلاً لم يجد مكاناً يأوي اليه، ولى زمان المقاهي بعد تطهير الخطط منها، ومحو البارات، وأي مكان يأتس فيه الانسان بالانسان، شنت حملات ضد الونسة، والإلفة، والدعة، وأية خلوة بين اثنين، واعتبر ذلك خطوة في سبيل خفقي الطموحات، انتبه الى حملات التشهير التي لا تتوقف. رجل اسمر تجاوز الستين كان عاملاً في بار قديم مبني من الخشب، مناضده مثبتة الى الأرض، كان يسمى بين الرواد باسم العينين، يسامرهم حتى يوغل الليل، يطبطب على هذا، ويكفكف دموع ذاك ويصني الى الشكوى، كان افضل من يستمع الى الآخرين في الخطط كلها، وتلك جريمته، أشهروه فوق عربة جيب، جرسوه في الضاحية الأولى، والحي

السابع، واتهم بانه يشغل الخلق، العجيب ان الرجل لم يتغل
عن بشاشته وكأن ملامحه صيغت من ابتسامة، أبدية، «عيب
يا بابا»، كان يريد لابنه ان ينخ كما مال هو، لا.. لم تعد
الضواحي ملائمة له، ضاق عليه جلده، امتلأ قلبه من كثوس
المرارة، تبدد عمره في الخطط، نضح ماعون الزاد بما يحتويه
وفرغ، قيده البين بسبعة قيود، ثلاثة للولد، واثنان لآثيل،
وواحد للأحباب، وآخر للزمن المر، لكنه برغم هذه القيود
حمل، جلود، مالت عليه الخطط، يا ضيعة أيامه التي لن
تعود، انتفض على رأسه، لم يعبأ بما تركه خلفه، قطع الحمي
السابع كله على قدميه في ستة وعشرين يوماً، حتى وصل الى
درب غير مطروق عند الأطراف الجنوبية، رأى السحالي
والحيات، أوغل في الجبل، مضى يوم، وثاني، وثالث، ورابع،
اجتاز صخرا موجعاً، في صباح اليوم السادس عثر على نبع ماء
غريب عجيب، بروز خفيف في الجبل ينتهي بثقب مستدير
يتدفق منه ماء صافٍ كأنه الواحة، شرب، ارتوى، تتبع مسار
الماء، آوى الى مربع غائر في الصخر، استعاد قوته القديمة. بل
ان عضلاته تصلبت ونمت غمواً عجيباً، انتابه كره تجاه
الأستاذ. التنوخي والعناني، حدث نفسه بصوت مسموع، اين
كنت واين كانوا؟ في العصارى الموحشة يزيد به الحنين الى
الولد، بل انه يحن الى آثيل، كانت طيبة على اية حال، يرجو

لها التوفيق، وهدوء البال، والبعد عن الصعاب اينما كانت
يتساءل: أما من وسيلة لتبدل هذه الخطط ليعيش فيها كل
حي كما يشاء، لماذا فعلوا به ما فعلوا؟ لماذا دفعوه يوماً الى
ايذاء عجوز عرف فيما بعد انها أم الخضر الذي زجوا به الى
السجن، لماذا لا يمضي كل شيء الى الأحسن مع ان الفرصة في
الخطط لا تتكرر؟ ارتاح الى وحدته، لأول مرة يخلو الى
روحه، الى نفسه، بعد ان راوغها وحاد عنها وحجبها عن
وجوده وتجاهل انات ضميره، ان قواه تتزايد يوماً إثر الآخر
حتى اصبح قادراً على تحريك صخرة ثقيلة قريبة ليسد بها
مدخل الكهف اذ ينام، تمنى ألا يدلي نادر بأسماء أصحابه
الثلاثة أبداً، حتى لو انقطع امتداده الوحيد في هذه الخطط
الى الأبد..

كهف التقية الثالث بمنطقة الخلاوي...

.. هل تتبدل الخطط وتصبح خلاف الخطط؟ صحيح ان
كل شيء يجري بحسبان، ولكن تؤكد كافة الشواهد، كل
شموس الأدلة ان ذلك ممكن لو شاء الانسان، سبحانه يا من
تحض خلقك على السعي، واذا بدأوا فانت تعضدهم
وتساعدهم، عندما وصل خالد إلى كهف التقية الثالث رأى
صخوراً سوداء، ذات أشكال آدمية، أوضاع التأمل التي

تسبق الحركة، آخرون سبقوه الى الخلاوي، لكنهم سخطوا
انفسهم الى حجارة، حتى تعود الأحوال الى روتها القديم
عندئذ يرجعون الى هيتهم الآدمية. تبطيء الرياح وتسرع،
تحتك بجواف الصخور، تنفذ عبر الفجوات، في الليالي السوداء
تردد انفجارات مكتومة كونية الأصداء، في الليل يأوي الى
باطن الكهف محتمياً من الصيرورة والتوالي، وأطياف الأيام
البعيدة التي لا يمكن استرجاعها، في الصباح تسرع دقائق قلبه
وكأنه أفلت من خطر، يتجول، يرى، ينزح الماء المتجمع في
النقر، أما أوعر ساعات التقية فتجيب مع المصاري حيث
تتوالى الصور والروائح وشظايا عبارات قيلت منذ زمن،
وملمس الهواء البارد عند نواصي بعينها، ومرور نساء لا
يعرفهن، كان وقتئذ لا يستطيع دفع الأوجاع، والحنين
الموجع، جاءته تفاصيل مرت به منذ زمن ولم يكتشفها إلا
هنا، استعاد ملامح امه، وصبرها الدؤب على الأيام. قعدتها
عند إعداد الغداء، تقلي البصل وعلى ملامحها جدية وراحة
لأنها تعد الزفر لولديها وللرجل الذي سيرجع متعباً، متابعته
للون البصل الذي يميل الى احمرار، على الطبلية ينتظر أبوه
عندما يوزع اللحم، يرقب اسماعيل بطرف عينه، هل سيأخذ
مقداراً أكثر منه؟ أي أمان في الليالي التي يكتمل فيها
العشاء، يتمدد بجوار اسماعيل، يصغيان الى همهمات الأب

والأم، ثم يغفوان، طمأنينة راح زمانها الى أبد الآبدين، تبرق
ذكرى نائية مستخلصة، جدته لأمه، وشم جبهتها الأخضر،
والرداء الأسود الفضفاض، مشيها خلال حقول الذرة، هو
يمسك يدها، فجأة تضع في الفضاء المبعق برائحة التين
العسلية وتدلي عناقيد العنب ومذاق الدقيق الأبيض وصوت
ماكينات الطحين الحزين المنبئ القاسي، كانت امه فوق سطح
البيت تشم الهواء عندما جاء والده على غير عادته، بدا
مكروباً، لا يجيد اخفاء السر، حاول ان يخفف لكنها أدركت
ما جرى. لم تصرخ، ولم تتلق عزاء لأنها لم تخبر احد
الجيران، صبغت وجهها بالنيلة الزرقاء، وجلست القرفصاء في
ركن السطح تحت ظل الخشبة التي تشد اليها حبال الفسيل، لم
تتحرك لمدة ثلاثة أيام لم تكف خلالها عن مسح الدمع ولم تشع
لحظة واحدة. يعاوده اهتزاز جسدها المكتوم ونحيبها الخافت
الملتاع الملوغ، ثم قامت في الصباح الرابع نفضت البيت
وطبخت وغسلت، عندما سافر اسماعيل الى خارج الخطط
للمرة الثانية، وازداد صداها، وجفاف ريقها وتضاعف
الأسى في عينها وارتفعت نسبة التحليل قالت ان ما جرى
سيجري، ماتت امي وأنا بعيدة، لم أر اغماضتها الأخيرة ولم
أسبل جفنيها، وها هو اسماعيل موغل في بعاذه وانا موغلة في
المرض، انا في النازل، سأموت ولن أراه، وهذا ما كان، اين

هي الآن؟، وأي معنى لهذه الخطط إذا كان الأحبة يرحلون ولا يمكن استعادة حتى مذاق صوتهم، لا يتبقى منهم إلا الثوى، ينقبض قلبه، يطبق الكهف على أنفاسه، حتى يود لو جاب الخطط املا في رؤيتها، من يدري، ربما يوجد مكان في هذه الخلاوي يتجمع فيه من رحلوا الى أبد الآبدين، ربما يوجد فراغ تأوي إليه كل الأصوات المفلوطة، يمكنه استعادة نبرات الأحبة، بعد خروجه من السجن للمرة الثانية عبثاً حاول الاستفسار عن والده، كان التحول قد بدأ، والجار يخشى تقديم المساعدة الى جاره، كل انسان صار يخشى على نفسه، بصعوبة عرف ان والده شوهد يتسول حول ضريح ولي من أولياء الخطط السبعة، كان مهذلاً في ثيابه، كليل البصر، مرتجفاً بعد ان فصلوه لانتفاء أحد ولديه الى المعجم، تلاشى في الخطط، هذه الخطط الفسيحة، الشاسعة، التي تبتلع كل عزيز وغال، سمع عن رجل عجوز كان يركب قطار الجنوب المزدحم، يعدد الأولياء الذين تبرك بهم الخطط، ويذكر ترتيب زيارتهم طبقاً لأهميتهم، وما يتميز به كل منهم، أهو؟.. من يدري؟ لو ان اسماعيل يتنفس هواء الخطط حتى الآن. يتمنى لو ان الخطط اتاحت لها الطفولة من جديد، لم يعرف شقيقه إلا بعد تقدم المسافات وعبور الميدان، وابتعاد كل منها عن الآخر، كانا شقيقين بلا صداقة، لكل منها

أصحابه واحبابه، اختلفت المصائر، واتخذت الرغبات مقاصد غير المقاصد، إلتحق بالأنباء، ضيق البلشي عليه، استقصى التنوخي احواله، محاولته النفاذ إلى ما يبطنه، ألحقه بعدة أقسام، ضبط عليه، كان يعمل في اليوم الواحد عشرين ساعة، يخرج من الدار مرتجف الساقين، كان يحاول اقتناص نصف ساعة أو ساعة ليقرأ، استجوبه التنوخي مراراً، هل يكتب الشعر؟ هل يكتب القصة؟ هل يهوى الأدب؟. في هذه الفترة أتم اسماعيل دراسته العليا، كان متفوقاً باستمرار، كان هادئاً وذو جلد، ينكب الساعات الطوال حتى يهوى دماغه على صدره فترجوه امه ان يقوم لينام. متى بدءا يقتربان من بعضهما؟ ربما قبل إلغاء الدراسات العليا من الجامعة؟ في هذه السنة استدعي اسماعيل الى الادارة، سأله احدهم عن جدوى الاستمرار في بحثه؟ هل سيكفيه المرتب؟ واذا وجد الجامعة التي ترعى انجائه فماذا سيعود عليه والأوضاع كلها ماضية الى انقلاب، الا جانب الذين عرفوا اصول العلم الحقيقية هم الذين سيقومون ويشيدون. أما الأهالي فينفذون، قال اسماعيل كلاماً قديماً عن الدواء الذي أصبح على وشك الوصول إليه، والذي سيقضي تماماً على البلهارسيا، لكن الرجل سأل متهمكماً، ومن قال اننا نريد القضاء على البلهارسيا؟ عاد اسماعيل مفزوعاً، كان الاستدعاء مباغتاً، في المرة الثالثة ضربوا له

مثلا بمجدي رمزي الذي تخلى راضياً عن الدرجة العلمية التي حصل عليها، في هذه الفترة اعتقل خالد. حبسوه في زنزانة ضيقة، لم ير من الخلق إلا رجل اصلع، حليق الحاجبين، يطل عليه اربع مئات يومياً، اما الطعام فيدفع من فتحة في الباب سرعان ما تغلق، في ظهيرة يوم حار سمع أقداماً، اطل من الثقب المستدير في الباب المصمت، رأى ذراعين ولم يكن ممكناً ان يرى الوجه، لسبب ما ظنه اسماعيل. اخترقه رعب نافذ، خاف ان يعذبه امامه، ربما نالوا منه ما استعصى عليهم رغم الضرب وعصب العينين ولسع الأطراف بأسلاك الكهرباء، كان يخشى عليه ان يتعرض للتعذيب وان يعرف ممرات السجن، ودورات المياه المكشوفة. وجرادل البول، وغرف التعذيب، والاستجابات التي لا تبدأ إلا بعد منتصف الليل وتستمر اسبوعاً متواصلاً يتبدل خلاله المحققون، كان اسماعيل محدود الأصحاب، همه ان يحو البلهارسيا من الخطط، يخصص كل جمعة للطواف على أولياء الخطط وتوزيع النقود على الفقراء، كان في حاله، لم يؤذ انساناً، ولم يخض مشاجرة، احياناً يفيض بحركة، يبدو منفعلًا، متوهجاً، يقول إنه سيسافر الى البحر، سيعوم، سيأكل السمك المشوي، ويعيش في الشارع المحاذي للأمواج تحت أضواء النيون، عندئذ تطلب منه امه ان يقسم على مصحف مفتوح،

ألا يوغل في البحر، الا يركب العربات المسرعة، حتى يهدأ بالها في غيابه، لم يتحدث عن أي فتاة، حتى رآه يمشي بجوار فتاة ممشوقة، طويلة الشعر، ظن أن البصر يخدعه، لكنه اسماعيل، باطرقته الهادئة، وابتسامته التي يواجه بها الغرباء، كأنه لا يرغب في اغضاب أي إنسان، اختلفت حياة اسماعيل، انتظم خروجه في اوقات معلومة، بدا مرحاً، منتشياً. خرج عصر يوم ولم يرجع، كادت الأم أن تجن، جلس الأب عاجزاً عن التصرف، كل المعارف اختفوا، ولم يعد ينفع الانسان ان يكون قريباً لهذا أو جاراً لذلك، صارت الأوضاع عكس الزمان القديم، لم يستوعب الأب ذلك، فتوقف وعيه عند الميدان الكبير، يخيل لخالد في كهف التقية ان اقصى ما عرفه طوال حياته لحظات اختفاء شقيقه، في مساء اليوم الرابع رجع، عاد منكوش الشعر، يرتدي حذاء بلا جورب، متسخ، لم يلفظ حرفاً، ظل صامتاً لمدة سبع ليالٍ، هاجمه كابوس في ساعة محددة كل ليلة، كان يقوم مفزوعاً، يكتسح كل شيء في طريقه، حروفه معجونة، لا يوقفه إلا باب البيت المفلق، يبدأ بالدق عليه، بعد ان يفیق تنتحب امه، يا بني قل لنا ما جرى لك؟، في بداية اليوم الثامن حكى لخالد. حاصره في الطريق المضاء أربعة من الادارة، طلبوا منه ابراز بطاقته، سأل عن السبب، فقالوا: بلا سبب. قال اذا كان لا بد من ذهابه معهم

فلماذا يصرون على اصطحاب الآنسة؟ انها خطيبته وهي ابنة
استاذ جامعي كبير، ضحكوا، قهقهوا، لعبوا حواجبهم، في
حجرة مصمتة اجلسوه فوق مقعد بعد ان قيدوا ابهام اليد
اليمنى الى ابهام اليد اليسرى بقيد دقيق، جاء العناني بنفسه،
ضحك.. ما هي اخبار البلهارسيا؟ اذن انت مصر...
احضروا مرتبة محشوة بالقش، فردوها امامه، ادخلوا سعاد،
استنجدت به، صرخت باسمه، اثناء تخرج انفاسها
واضطرابها كانت تقول: الحقني يا اسماعيل.. بدأ الضابط، ثم
تعاقب مجهولون لا يعرفهم، وعلى فترات يدخل طبيب اجنبي
يرتدي نظارة طبية، يصغي الى نبضها عبر الساعة، يتأمل ما
بين فخذيه، يهر رأسه: لا تزال سالحة، وهكذا تعاقب عليها
ثلاثمائة وخمسة وستين جندياً، صارحه اسماعيل، لم تعد الخطط
مناسبة له، استيقظوا صباح الاثنين، لم يجدوه في غرفته
الصغيرة، لطمت أمه وجهها، تنام فوق خشية أمام الباب خوفاً
من قيامه صارخاً مفزوعاً في الليل، لحظة اكتشاف اختفائه
مخيفة، تبدو الايام التالية مصبوغة بها، لم يأخذ إلا مفكرة
صغيرة، بنية اللون، وقلم حبر أسود حصل عليه كجائزة تفوق
عند انتقاله من الصف الثاني الى الثالث، وصور ملتقطة خلال
رحلاته المدرسية الأولية، في كهف التقية اعتصر خالد حنين
معذب الى شقيقه، فوق أي أرض يسمى الآن؟، لم يصحب

معه أية صور او علامات مادية، استبقت ذاكرته بقايا روائح
بعيدة. ولحظة الدخول الى السجن لأول مرة، وارتداء ايثار
نفسان اخضر اللون، ثم جلوسها عارية ونظراتها إليه،
وقولها: لماذا تخجل من جسمك.. ان جسمك جميل ومفرد
تجوله في البيت، لهجتها وهي تخبره انها اطلعت مجدي رمزي
زوجها على كل شيء، ماذا تبقى في كهف التقية؟، استدعوه
مرات، أبدوا رغبتهم في مساعدته اذا رغب الهجرة خارج
الخطط، لكن هذا ما لن يقدر عليه، انه يأمل في عودة
اسماعيل يوماً، وظهور والده فجأة، مجيئه الى منطقة الخلاوي
أمر موقوت، عندما لجأ إلى هذا الكهف كانوا يتحدثون عن
خطة لخفض الطموحات، أية طموحات؟ الم تصبح محدودة
فعلا اذا ما قيس الأمر بما كان عليه في الشوارع والأسوار؟
لكنهم يعلنون عما تم وكأنه سيتم، كان كل شيء يبدو مستحيلا
في البداية، حتى العجم قالوا باستحالة النتائج التي تنبئ بها
الشواهد، لكنهم في الجانب الآخر أدركوا جوهر الزمن،
عرفوا من واقع مصالحهم ما دون في الصحف الأول، وان
أبعد الأمور عن العقل يمكن ان تصبح اقربها، وان الحقائق
يمكن تحويرها، ان خالداً يتوحد بالصخر وجدران الكهف
المحفورة في الجبل وأصوات الرياح وشدة الحال، حتى لو قدر
للأوضاع ان تعود الى ما كانت عليه، لو رحل الأجانب عن

الخطط، لو شيد خزان أكبر، لو اطلقت الملكات، لو قدر للشرف ان يعود شرفاً وللخير ان يعود خيراً، لو قدر للخطط ان تستقيم فلن تنجو من آثار ما جرى، فقدت المباهج البسيطة رونقها، وتلاشت البواعث الكامنة، وعلقت المرارة في الخلق، قبل خروجه الى الخلاوي واعتصامه بكهف التقية زاد به الحال. كانت عودته الى حجرته تخيفه، يغلق الباب ثم يبقى حتى صباح اليوم التالي مجرداً من الرفقة، والأمن، والشعور بالمشاركة، بعد انقسام العجم، وخروج العتاة من الخطط قال في البداية بضرورة الحفاظ على الجوهر، لم يتبع ما قاله آخرون بضرورة مسايرة الوضع في الظاهر فقط والحفاظ على مكنون القلب بهدف التقية، تجربة البعض خيبت أصحاب القول: بدء ممارسة الدور تمهيداً للاندماج فيه، التماهي مع الزمن ينسى الإنسان منطقته الأصلي، يوهن الروابط، كان همه الحفاظ على الجوهر نقياً، بنأى عن كل الشوائب، حتى إذا ما ادلهمت الأمور ولم يتبق إلا كائن واحد يكون هو النواة والبذرة، بدأ يقرأ سراً، يدون بعض ما ينوء به ويخفيه عن الأعين، أبى التقديم بأي طلب الى سلطات الضاحية الأولى، كان يتخذ الموقف وينفذه ويظل أول وآخر من يعلم به، أو يعانف بسببه، لا أحد بالقرب، ولا رفقة تسند، ولا صحبة تعزي، اطال التأمل داخل ذاته،

رصد ديب هذه القوة التي لا ترد ولا تصد، التي لا تنفص عن نفسها إلا في علامات مفاجئة، مباغته، كدوائر الأشجار أو تجاعيد الوجه أو الاصداء الغريبة لانعكاس اشعة الكربون، او تغير المعالم، كان يعي سريان الزمن داخله، يصفي الى الديمومة، وهذا ما عذبه، خاصة بعد تجاوزه الثلاثين، بعد ان سجن سبع مرات، وبعد ان انقسم العجم، ورحيل امه، وذهاب ابيه، واختفاء اسماعيل، افاق فجأة فوجد نفسه في الخامسة والثلاثين مع ان توالي الأيام والليالي لم يغب عنه أبداً، بسط يده كل البسط في سنوات عمره فتبخرت وأصبح استرجاع يوم واحد من الحال، ردد ساخراً: انه من الظلم ان يحاسب على عمره المنقضي في الخطط، وانه من العدل ان تتاح الفرصة مرة اخرى، لم يعرف هو واصحابه العيش كما يجب ان يعرفه المخلوق، من حيرة الى حروب الى سجون الى تعذيب الى قلب لكل ما عرفوه، أمن العدل ان تنقضي اعمارهم هكذا في الخطط؟ عزى روحه بما رده ونفذه، الحفاظ على الجوهر، في البداية كان يعيش اليوم كله من أجل الساعة التي يمضي فيها الى مخبأه في الخطط، يقرأ لمدة ساعة. ساعة فقط كل ما تبقى له، لكنه لاحظ بعد مسافة معينة انه يفتح الصفحات فيثاءب، وحل النوم كخلوة بديلة، تجربة الموت النهائي، وطليعة الغياب عن الخطط، كثرت

المشاريع المؤجلة، غداً أعوض ما فاتني الليلة، كان يتأكل، فيما مضى، قرأ هذا التعبير، سخر منه، كيف يمكن ل انسان ان يتأكل وفيه نفس يتردد؟ لكن جاءت اللحظة التي يمش فيها اللفظ، اللحظة التي أصيب فيها بالجذام الروحي، ثم ثقل عليه هاجس الموت، صار يفكر فيه، يخشى اقترابه، صارع الوسن ليالي بأكملها خوفاً من اغماض عينيه الى الأبد، تحدى خوفه، سعى الى منطقة المقابر، دون ما كسب على الشواهد الرخامية والجصية، اصفى الى رغبات الموتى، مناجاتهم للآحياء ان يذكروهم، ان يترحموا عليهم، وتنبههم ان كل حي في هذه الخطط مصيره الى زوال، الى هذه الرقدة، استجاب لرجاء رجل مجهول مات منذ ثلاثة قرون، اشعل له سعة ليونس وحشته في ليالي الخطط الخالكة، تردد على المقابر لمدة شهر، لم يرهبه الموت فيما تلى ذلك، لكن شعوره بضرورة الابتعاد وإلقاء كل الأتعة والعودة الى البدييات، استيعاب الأبجدية، ما سطر في الصحف الأولى وكشف مطاء والتوسل بالبصر الجديد لعله يرى يوماً تنفير فيه الاحوال حتى وان لم يعشه، دفعه الى النأي الى حين..

العقبات

.. من الثابت ان الهجرة الى منطقة الخلاوي، لم تتم أبداً طبقاً لاتفاق بين شخصين، لكن كيف جرى الخروج من عمار الخطط في وقت واحد، كيف ولد الخاطر لدى هذا أو ذاك؟ ذلك ما لم يحيط به انسان علماً، ومن يبدى خلاف ذلك كاذب، انه سر عجيب من أسرار الخطط التي حيرت القاصي والداني، لم يظهر اي انسان من أولئك الذين آووا الى الخلاوي، نشرت صور البعض في جريدة الأنباء، ثم منع النشر بعد تزايد حالات الاختفاء. وزعت صورهم على عصابات السطو التابعة للإدارة، اصفى ذلك على الحي السابغ المزدهم جواً بغيضاً من الترقب، وجرت كبسات مفاجئة، وعانى الناس هوجات فظيعة، ثم جرت أول هجرة جماعية عندما خرج العمال الجنوبيون الذين رفضوا استنكار الخزان الكبير، ثم تابعت الجماعات، وبدأ الأمر شبيهاً بمجيء الطيور من الاصقاع الشمالية الى مواضع معينة في الخطط في شتاء كل عام، ثم جرت الهجرة الثانية الكبرى بعد أن قويت الاشاعات بوقوع الصلح بين الخطط والأعداء، شق ذلك على المحاربين القدماء والجدد وأهالي الشهداء، خاصة وان ما جرى في المشارف لا زال طرياً لم ينس بعد، فخرجوا جماعات جماعات، وازعج هذا العناني، وأصدر سلسلة طويلة من الاوامر، لكن

المهجاج لم يكف، وقالت كل الشواهد ان اللجوء الى الخلاوي معناه الهلاك المبين، ثم سبعت عقبات، حزام من الصخور النارية، وجداول مياه مغلقة، وبراكين قديمة لم تثر منذ زمن لكنها لم تخمد بعد مما يرفع درجة حرارة الأرض الى حد لا يحتمله بشر، وتشعب الطرق، وافاعي طائفة شديدة الفتك، وغيلان مبهمة، ومهاوي لا حصر لها، والحقيقة التي لم يعرفها إلا من وصل حياً الى الخلاوي هي ان شخصية غامضة من شخصيات الخطط سهلت عبور الجماعات الى الخلاوي الدفينة، انه رجل قصير، مدكوك البدن، غليظ الرقبة، ظهر من قبل ظهوراً عابراً عندما حمله ابوه الى اقصى الجنوب هرباً من الحملة التي ابادت مواليد الشارع الخامس. وعندما ارشد الوتيدي الى كهف التقية انه الوحيد الذي نجا، ساعد صاحب الفندق القديم، اسمه سليمان، وحوله دارت حكايات عديدة، لكن من الثابت انه يحفظ كل شبر في الخلاوي، وما من مخلوق آخر قادر على معرفة دروها وخبايها مثله، يقال انه اتم رضاعته بها، وانه عاشر كافة حيواناتها وطيورها وهوامها، خبرها وعرف حركاتها وسكناتها ومتى تشرع في الهجوم والاشارات المتبادلة فيما بينها، انه الوحيد في الخطط الذي كان على علم بالحياة التي تموج بها الخلاوي، وانها ليست خراباً كما تبدو للآخرين، العامة والمتخصصين كما انه قوي على

صعابها، يتحمل اشق الظروف برغم حجمه الضئيل، قيلت عنه امور عجيبة منها استطاعته الطيران في أوقات معلومة، وانه تعلم ذلك من فصيلة نسور نادرة انقرضت من الدنيا ولم يتبق منها إلا زوج وحيد، قاد سليمان مجموعات العمال الذين رفضوا استنكار الخزان الكبير عبر طريق خفي يتفادى كل العقبات المحيطة بالخلاوي، ارشدهم الى مكان امين، والمحاربين الأشداء، وعدد من المنشدين القدامي للمواويل والملاحم، وحفظة السيرة، وكتاب الأحجية الحافظة، والعارفين بانساب الخيول، وصناع السعف والخوص والفخار، وجمع كبير لم يعد له عيش في عمار الخطط، ارشدهم الى منطقة بها نبع بمحول الصدر، ونخلة صغيرة، متوارية، مثقلة بالبلح، العجيب انها تطرح سبعين نوعاً مختلفاً، قبل وصولهم كان البلح ينمو، تنضج ويسقط ويتعفن فوق الأرض الصخرية، وقبل ان سليمان هو الذي يحمل حبوب اللقاح الى هذه النخلة الوحيدة من نخيل الأطراف البعيدة، ولكن عرف فيما بعد انه أقام صلة بالمناطق المأهولة وانه حمل براميل التمر المجفف، والخبز الجاف الى اهالي الخلاوي، لم يمض وقت طويل حتى انتشرت شائعات عن هجرات خفية تتم داخل الخطط، وان كثيرين خرجوا الى مناطق الخلاوي، وقيل أيضاً بعض الجزر الصغيرة الواقعة في البحر الشرقي المحاذي

للخلاوي، تحركت آمال مبهمّة وأعدة في صدور الذين غاب
 اقاربهم او من يمتون إليهم بصلة، عرف التنوخي قلقاً حقيقياً،
 نشر مجدي رمزي سلسلة من التحقيقات عن وعورة وخطورة
 الخلاوي، وتنبؤات العلماء الاجانب المتخصصين، لكن الفأر
 لعب في عب العناني، لم يهدأ ولم يقتنع، طلب تزويد
 العصابات بطائرات هيلوكبتر، هكذا حلت الطائرات لأول
 مرة فوق أوعر مناطق الخطط. الطيارون الأمريكيون أبدوا
 انزعاجهم لغرابة التيارات الهوائية، وتداخل الانعكاسات
 المنبعثة من الصخور، وهذا يجعل الرؤية بالعين صعبة، ويضع
 تعقيدات من نوع جديد أمام أجهزة التصوير الحديثة، طلب
 اتحاد المستثمرين الاجانب لسائر عموم الخطط توجيه قمر
 صناعي، ولم تثبت الخرائط الالكترونية والصور الملتقطة من
 علو شاهق وجود أي شيء، غير الفوهات والشقوق، لكن فأر
 الشك لم يهدأ لدى العناني امر بتشكيل دورية من ثلاثين مجرماً
 عاتياً، قضاوا نصف اعمارهم في حقول القصب، والنصف
 الآخر في المغارات الدفينة، ابدى بعضهم حذراً، قالوا ان
 هذه المنطقة لم تطأها قدم من قبل. وعدهم العناني بمكافآت
 مجزية، فقبلوا وعندهم ضيق، في هذه الفترة بلغت الهجرات
 الجماعية ذروتها، خاصة بعد وصول وفود من أعداء الخطط،
 وأدلائهم بالتصريحات واستقبال مجدي رمزي لهم، وإقامته

المآذب، واعلان واحد من الأعداء ان الخططين هم أقرب
 الناس إليه، وهذا ما لم يتحملة الكثيرون، فسارعوا بالهجاج،
 ومنهم من خلف امواله، وأسباب رزقه، وفارق عياله، ولم
 يفكر معظمهم فيما سينتظرهم، وهل ستكتب لهم السلامة أم
 لا؟ هلك كثيرون لا حصر لهم، حتى أولئك الذين ارشدهم
 سليمان، احتاج الامر الى جلد عجيب، وقوة نفس، وصبر،
 واحتمال، لهذا عد من وصل آمناً الى قلب الخلاوي من
 خلاصة أهالي الخطط، اما وعورة المنطقة فقد اكسبتهم
 مهارات وخبرات لم تخطر لهم على بال يوماً، ولم تطراً على
 أفئدتهم في الأيام الآمنة..

المرابطون..

.. لا يدري انسان متى ظهر الخضر على وجه التحديد،
 لكن تفيد الحكايات المتناقلة انه هو الذي انهى مرحلة
 الخلوات الفردية في كهوف التقية، وأقام التجمعات، والحياة
 الجماعية للمهاجرين الأوائل، ومن المؤكد انه عرف سليمان
 وصاحبه وزامله، وقال له في أول لقاء: «أنت لي مثل
 الولد..»، قال له سليمان انه سيصحبه الى شقوق الخلاوي
 لكن عليه ألا يستفسر عن بعض الأمور التي قد تبدو له غريبة
 وإلا فان العهد سينتهي بينهما، صحبة عبر كافة الدروب،

ارشده الى العلامات المميزة، والاشارات الدالة، عرفه الكهوف الآمنة، والكهوف التي لا أمان لها، والمغارات التي لا يبدو لها آخر، اطلعه على مناطق النيران الأزلية، ثلاث شعلات نحيلة زرقاء اللون، ملتهبة، تضيء في النهار والليل، ولا يمكن الاقتراب منها لمسافة سبعمائة متر، سأل الخضر، لماذا سبعمائة متر بالتحديد؟ نظر اليه سليمان عاتبا، قال: ألم أقل لك ان اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أشرح لك، قال الخضر: لا تؤاخذني قد نسيت. انطلقا فمشيا حتى تقاط ~~معده يمكن من خلالها~~ رصد نجوم السماء، ورؤية النيازك المارقة، والمعجب ان رصد النجوم كان ممكناً في الليل والنهار من هذا الموضع، وفي الليل الماتم يمكنه الحركة في الليل بدون ان يضل طريقه، لف معه على مصادر المياه في الخلاوي. الماء المتدفق والماء المتقطع والماء الذي لا يظهر إلا مع اكتمال القمر، لماذا لا يظهر إلا مع اكتمال القمر؟ نظر اليه سليمان متضايقاً، قال: ألم أقل ان اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أشرحه لك، قال الخضر: لا تؤاخذني.. قد نسيت. ثم انطلقا فمشيا الى مناطق الأعشاب، ومواضع الحيوانات المسالمة، والتي يمكن صيدها، وطهي لحمها اذا قدح الحجر بالحجر فيندفع الشرر، توقفا عند النخلة الوحيدة التي يمكنها اطعام مدينة تعدادها ألف ألف بالتمر، ليفها يصلح لصناعة

الأحذية، أو نسج أثواب تقي صقيع الشتاء، ولكن الحذر كل الحذر من ذبحها أو قطعها عندئذ تكون المصيبة الكبرى. لماذا. لماذا تكون المصيبة الكبرى؟، هنا بدا وجه سليمان حزيناً، اسيانا، قال بهدوء ان قدره في هذه الخطط العيش بمعزل عن سائر الناس.. لكم كان يود أن يصحب أهالي الخلاوي في حياتهم اليومية، ان يأتس بضجيجهم، أن يرقب العلاقات بين الأشقاء وهو المحروم من الأخوة، أن يشم رائحة الاناث، وان يرقب مشيهن: لكن هذا فراق بيني وبينك لأنك لم تستطع معي صبراً. في هذه اللحظة أوشك الخضر على ابداء العذر ادركه خوف غامض، فوجيء سليمان يستعد، ينأى، يخطو فوق الفراغ الذي يفصل قمتين صخريتين متباعدتين، اتخذ الخضر وضع القرفصاء لمدة ثلاثة أيام، حتى تيبست مفاصله، وعندما اغفى متعباً حزيناً ايقظه الهاتف الحفي، زعقة نفضت جسده، قام واقفاً، منذ هذه اللحظة لم يكف عن الحركة، التنقل من كهف الى كهف، من ذروة الى قاع، ومن قمة الى سفح، تحدث الى المهاجرين، خفف عن بعضهم، طلب من عدد لا بأس به استعادة ايامهم النائية، ان يتذكروا التفاصيل، قال ان الانسان كلما أوغل في العمر ازداد اكتشافاً لحياته الماضية، ورأى ما لم يره أثناء معاشته لها، طلب من بعضهم التفكير في الحياة المقبلة، وما ستكون

عليه، عندما انتظمت عمليات التموين، وعرف أهالي الخلاوي طعم المرق الساخن، وصفار البيض، عمّ تفاؤل، وقال الخضر... ان الخطط عامرة، والخير لم ينفذ منها، ورقص عجز تجاوز الستين، قادم من مدينة دمرها الأعداء ومحوها تماماً، قفر. بخفة، واستدار بحموية، تدفق بالعطاء، قلد لهم الصيادين، والبحارة، والقباطنة، والشحاذين في الموانئ، والشباب عند النواصي، والمعجز المتصالي، ثم انشد فاطرب، اضحك فأبهج، كان قد قلب في مهن بحرية عديدة، لم يدرس في أكاديمية، لكنه خبر البحرين، وعرف مواطىء السير، وأين يهتدي، وأين يضل؟ كان لا ينظر الى النجوم ليعرف طريقه، انما يتطلع الى البحر. ومن انعكاس البريق، وما يردده القاع يعرف الموضع والمكان، قال البحار المعجز ان خبرا جاءه من الأوائل الطيبين، يقول بأن الخطط ستقوم من جديد، وان الاعداء سيرحلون، ليس عن الخطط، انما عن تخوم الخطط، وجيران الخطط، طلب الخضر منه ان يلقي أهالي الخلاوي ما لديه من علم، أن يردد على مسامعهم أناشيد البحر، كذلك طلب من رواة السيرة والمنشدين الجنوبيين، وعندما اكتشف كهف مدير الفندق هياً مغارة بأكملها رخامية الجدران، ضوءها عجيب، ليصون لوحة تولوز لوتريك، وعين افراداً يسهرون عليها، أصبح صاحب الفندق مثولاً، لا يمكنه إلا

النطق والتطلع الى اللوحة. طلب الخضر من كل انسان ان يحدث الآخرين عن ثلاثة أشياء، ما يتقنه من عمل، والناحية التي جاء منها، أوصافها، وناسها، وطرقاتها وعن نفسه وما يتمناه للخطط، عرف الخضر الطريق الى خالد، عانقه، وذكره بنفسه، وجريدة الأنباء، وعنابر السجن، ضمه الى خلاوي المنطقة الأولى، وطلب منه قص الأحداث التي مرت بالخطط، والتي بحيث تماماً من المدارس، واستعادة وقائع التاريخ الملقى، أما الوتيدي فانضم الى منطقة الخلاوي المتقدمة والتي يسكنها المحاربون القدماء. أحبه أهالي الخطط بالخضر، حتى معارفه القدامى نسوا مهنته، عامل الطباعة، وصاروا ينادونه بالخضر فقط، تعلق به سائر الناس، لا يذكر انسان انه رآه متعمداً، أو نائماً، أو متعباً، كان يظهر عند الحاجة والوتيدي على مقربة منه، عقد عليه أهالي الخلاوي آمالاً كباراً، سرت أخباره في الضواحي والأنحاء قيل انه قادر على قطع مسافات شاسعة بدون توقف، وانه محصن ضد سم العقرب والأفاعي، حتى الطائر منها، شوهه بخرج حية ضخمة من شق عميق، حرك يديه في مواجهتها، والحية تقبل عليه ثم تتراجع وترتد عنه، في النهاية لفها حول ذراعه، وضع يده فوق رأس فهد أسود أرقط وهو من أشد الحيوانات شراسة، انه يرتدي تحت الجلد حجاباً صغيراً مستديراً في

حجم رأس الدبوس، بحميه من الرصاص والشظايا، والطلقة اذا ما وجهت اليه من أدق المصوبين تصطدم به وترتد عنه، اكدوا ان أمه ولدته وهي في الستين، وانه تكلم في اليوم السابع، وانه يعرف اسماء أهالي الخطط كلهم، الذين أحبهم، والذين أساءوا اليه، وأكد البعض ان ثمة علاقة قديمة تربطه بالوتيدي، هذا الوتيدي المملاق الذي يزلزل الصخر جثا أمامه، ونكس رأسه ويطلب منه ان يسامحه، قالوا ان الخضر عرف الشقاء طوال عمره. ومارس كافة المهن والحرف، تقلب في طوائف عديدة حتى استقر عاملاً للطباعة، ثم صار من عتاة العجم، وعندما جاء الى الخلاوي التقى بسلیمان الذي علمه كل شيء عن الخلاوي وما فيها، كان الخضر اذ يصغي الى هذه الحكاية ينقبض قلبه لأن سليمان انصرف عنه ولديه الكثير مما لم يقله. في أحد الأيام ظهر المعلم الياس، وجهه شاقق البياض، عيناه حادتان، لا يذكره أحد منذ اختفائه في احد الأسوار، عانقه الخضر، بطر كل منهما الى الآخر وبقيا صامتين ساعة زمن، بعدها قال الخضر: جاء الى الخلاوي احد الخلق سمعا، فيما بعد عرف بين أهالي الخلاوي ان الياس من أبناء الخطط القدامى، وانه لم يخرج منها الى أية جهة، عاش عمره كله بها، انه يجيد اثنتي عشرة لغة مع انه لا يعرف القراءة أو الكتابة، وسبب ذلك نشأته في منطقة يتردد عليها

الأجانب لشراء التحف النادرة المصنوعة برسم الآثار القديمة. امكنه أيضاً اتقان اللغات القديمة المنقوشة، إكتسب خبرة نادرة بمعرفة الآثار، اذا تحس الحجر المنحوت وهو مغمض العينين أمكنه ان يدرك، الى أي عصر ينتمي. وما اذا كان زائفاً أم حقيقياً. انه يعلم موضع كل اثر دفن لم يتم الكشف عنه في أنحاء الخطط، قام بعمليات كبيرة قبل طلوعه الى الخلاوي موه بها أماكن الآثار التي لم تكتشف بعد وأخفاها. بحيث تعجز أية امكانيات حديثة عن الوصول اليها، كما انه اعد خريطة تفصيلية بهذه المواضع لا يدري أحد أين وضعها، أو المادة التي استخدمها في رسمها، من الأمور الثابتة ان الياس هو الذي جاب صحارى الخطط الوعرة حتى اكتشف المغارة الخفية والتي بدأ نقل الآثار القديمة اليها عبر تنظيم هائل الاحكام انقاداً لها من مصلحة تهريب الآثار، وقد عمل في الخطط سبعمائة من أجهزة المخابرات العالمية لاكتشاف المغارة، وعجزوا عن الوصول الى مجرد خيط يؤدي أو يوحى بمكانها. وقيل بين المعمرين وقتئذ، انها الخطط عندما تصمت فلا ينطقها إلا القدير في علاه، لم يكن جهد الياس سهلاً، حتى يعثر على المغارة اختفى عن أصحابه هو الذي يعيش الصحبة الجميلة والأنس والسر، ابتعد عن عائلته، عمل في مهن متعددة، تجول في كل الصحارى، خبر الجبال، كان يهتدي الى

الأماكن الصالحة من خلال اصغائه الى صدى الرياح ومرورها عبر الشقوق، أو صدى اصطدام ذرات الرمل بالصخور في الليالي العاصفة، كان حاد السمع الى درجة لا يمكن تصورها، باستطاعته ان يصغي الى أدق الأصوات بعدا، وان يفرز الأصوات في الليالي العاصفة الممطرة، كان بإمكانه أن يصغي الى سريان عقرب فوق الرمال على بعد مائة مسافة، أو اصطفاك جناحي نسر في الأعالي، كثيراً ما قبع هادئاً عند منطقة الخلاوي المتقدمة، يبدو مستغرقاً بعمق، حتى لتردع هيئة أي انسان يفكر في مناداته، عرف انه يصغي في مثل هذه اللحظات الى ما يجري في أقسام الخطط النائية، ثم يفضي بما سمعه الى الخضر، بل انه رصد كل اقتراب جرى حول الخلاوي، وعرف القادمين الجدد. ومن قبل مجيئه كان الخضر يطوف الخلاوي بحثاً عن الذين هجوا عن عمار الخطط، أكد الياس انه أحاط المغارة بضمانات هي محصلة قرون ولو استطاع أي جهاز مخبرات الامساك بطرف الخيط الحقيقي فانه يحتاج الى جهد سبعين عاما متصلة كي يصل الى المغارة، وعند موته سيظهر في الخطط من هو عالم بالسر، واذا رحل الثاني فهناك ثالث، ان المغارة مجهولة الأوصاف، لكن درجة الحرارة بها ثابتة، مناخها صحي، لو دفنت بها جثة بدون وسائل تحنيط لعثروا عليها بعد مئات السنين على حالها، أما

الذين تولوا عمليات انقاذ الآثار فلا يعرف عنهم أي شيء، الحالة الوحيدة التي ضبط فيها احدهم عندما القت العصابات القبض على عامل مبتور الذراع، عرضوه لكافة وسائل الاستجواب على أيدي خبراء من البلدان المختلفة، واتخذت الاحتياطات لمنع من الانتحار، ثم عذب، صبوا الزيت المغلي في إسته، ومرروا الكهرباء عبر اعضائه، ولم ينطق حرفاً، في اليوم الثالث عثروا عليه صامتاً الى الأبد في زنزانه المكيفة، لم يطلب الخضر أية معلومات من الياس، أدركه خاطر غامض، لو تملكه الفضول كما جرى مع سليمان سيختفي الياس، وما أشد الحاجة اليه، في فجر خريفي رصد الياس باذنيه اقتراب مجموعات عديدة، اخترقوا الناحية الغربية، أصعب الجهات، سقط منهم عديدون، جلس آخرون وطلبوا من رفاقهم ان يمضوا بدونهم، آخرون لم يقدرُوا على عبور الماء المغلي، جاء كبيرهم، انه شيخ عجوز، ساقاه نجيلتان كالخيزران، ضلوعه تبدو تحت جلده. استطاع عبور الموانع السبعة. عندما التقى بالخضر، قال الشيخ المجوز الذي نبتت أسنانه الخضراء: لا ندري ان كنت أنت، أنت لا تدري ان كنت أعلم الخلق بالكائن من الأمور الماضية، والكائن منها الذي لم يكن بعد، لكن الشواهد تنبئ وتبشر.. أنا نبأيك حتى تنزاح الغمة الكبرى، معك المرابطون الصابرون..

المؤن ..

.. جرى نقل المؤن الى الخلاوي وفق ترتيب مرتب
أشرف الوتيدي على نقل الاجولة والصناديق، تفجرت قواه
الهائلة في الخلاوي، أصبح باستطاعته ان يزيح ثقلاً مقداره
الف وزن، تباعدت اطرافه، واعتدلت قامته، وفارقه الخناء
العنق الذي ظل ملازماً له طوال الشوارع والأسوار
والضواحي، وازدادت قدرته على الابصار الى حد عجيب،
حتى انه كان باستطاعته في الليالي الصافية رؤية ما يجري في
المدن النائية، وداخل المقرات، اختص الوتيدي برصد ما
يدور، وتوزيع المؤن، تسربت قطع السلاح أيضاً، بعضها من
مخازن عصابات الادارة، بل ان عدداً من المدافع الامريكية
وصل الى الخلاوي بزيته وشحمه، هذا بخلاف السلاح المحلي
الذي رتب خضر طرق الحصول عليه، جاء المدد من خارج
حدود الخطط، أطباء وصحفيون ومهندسون هاجروا منذ
أمد، وطلبة يعملون في مزارع العنب، وغسيل الاطباق،
ارسل كل منهم ما يقدر عليه، بعضهم حار في كيفية ارسال
النقود ولفائف الدواء والطعام المحفوظ، تكونت لجان عديدة
باسم «أنصار الخطط»، كثيراً ما اغرورقت عينا خالد عند
وصول طرد من جهة نائية، تحولت فترة تقيته عن أهدافه

المبدئية، لم يعد يخلو الى نفسه إلا لحظات ما قبل النوم، في
أيامه الأولى رتب أوضاعه على البقاء بمفرده مقداراً مجهولاً،
الآن .. مع الرفقة والعمل لا تكفيه ساعات النهار، في الجزء
الأخير من المشارف وفي الضاحية الأولى مرت به الأيام
السود، كان قد نأى عن العجم بعد ديبب الفرقة، والشتات،
بعضهم عمل مع التنوخي نفسه، لم يجهروا بالردة، انما برروا ما
قاموا به، وصموا ما عداهم بالغفلة والجهل وسوء النية، ثم
كان من أمرهم ما كان، فقد خالد وقتئذ حميته واندفاعه
وقدرته على الانفعال، بعد اغلاق المقاهي تاه في الطرقات،
زمان في الشوارع كان يهرع الى مكتبة الخطط المركزية.
ينتظر فتح أبوابها، تخف روحه وتشف اذ يقرأ الساعات
الطوال، بعد انقضاء المسافات لم يكن باستطاعته اتمام قراءة
عشر صفحات، يشرد، يستدعي ذهنه صوراً بعيدة، تبدل
الحال بين أهالي الخلاوي، استعاد الحميمة المفقدة والدفا
الأسر، حتى دقائق قلبه المتعبة كفت عن لهاثها، بل انه
استطاع القفز فوق الصخور الوعرة، وتسلق مرتفعات لم يتصور
 يوماً انه سيرتقي مثلها، تترقرق عواطفه اذ يفرغ مع بعض
اهالي الخلاوي شحنة وصلت من بعيد، يذكر أحياءه والأيام
الآمنة، حتى ايثار يستدعي طينها بدشة وعتاب، ألم يبذل
عواطفه من أجلها سنوات، كأنه احتفظ بجمهرة ثمينة ثم

اكتشف زيفها. عندما وصلت الأخبار باستعداد أول دورية
لمهاجمة الخلاوي بعد دوريات الاستكشاف التي ارسلت من
قبل استدعاه الخضر الى المنطقة المتقدمة حيث المحاربين
القدماء.. بعد الشروح العديدة، طلب منه الخضر أن يتخيل
الخطّة المناسبة، ان يطلق العنان لخيالته الخصبة، استعداد أيام
الخطر عندما تطوع للقتال ضد الأعداء قبل نشوب الحرب
الثالثة، عاش الاقتراب الانساني الذي لا مثيل له بين المقاتلين
في مناطق الخطر، الذين يمكن ان يموتوا معاً، أو يشهد احدهم
موت الآخر، أو يتبادلون الذكريات بعد سنوات وكأن ما
جرى أمر عادي. تغيرت أحوال اهالي الخلاوي، تبدل
الغرض من هجرتهم الداخلية، بعضهم جاء بدون أن يدري
شيئاً عن المصير، بل ان الأوائل الذين ولوا وجوههم الى
المنطقة المهجورة كانوا يسعون الى ما يشبه انتحار مستتر، آلان
أورق الأمل، التطلع الى أيام يمكنهم فيها الجري وراء
أرزاقهم بدون أن يزاحمهم أجنبي، ان يساعد الابن امه
العجوز بدون توجيه اتهام اليه، ان يحدقوا الى مياه النهر، ان
يجدوا البقعة الهادئة التي يمكن الانفراد فيها بدون خوف من
عصابات السطو، في هذه الأثناء جاءت الأخبار باختفاء
الدورية المسلحة فابهج هذا اهالي الخلاوي أجمعين..

.. المناطق المضطربة..

.. ظن كثيرون ان الخطط راقّت لهم، وانهم لن يشعروا
ابداً بمرارة اللعاب بين الاسنان، لكن الحروف لا تتشابه،
منها من يستقيم ومن يرتد، وسبحانه هو مغير الأحوال، ويجري
الزمان القريب العجيب، لا يدري انسان من أين جاء
الأمس، أو الى أين سيمضي الغد؟ كل شيء يتغير، كل
الموجودات تتحول، عند هذا الموضع من الخطط بدأ
الاضطراب يسري، والواقع الذي أرادوا له ان يكون يهتز
ويرتجف، تردد ان العناني اجتمع ببعض الأعداء المتخصصين
في أعمال معينة لها صلة بما يجري في الخلاوي، طلب منهم
العون والنجدة لاستكشاف ما يجري في تلك المنطقة الغامضة، التي
لم تذكر في مراجع علمية، أو أية دائرة معارف، لم يصدق
البعض اجتماع العناني بالاعداء، لكن لم يمض وقت طويل حتى
نشرت الصور في بعض المجلات التي تصدر خارج الخطط، مع
ان العناني معروف عنه كرهه لنشر صورته، أو أخباره، ورغم
اشتغاله بالصحافة زمناً لا بأس به، انزعج عدد قليل، ولكن
لم يعباً بانزعاجهم أحد، ولم يسبب اضطراباً، منذ فترة غير
قليلة تم تفريغ المصطلحات والكلمات بحيث اصبحت لا تدل
على ما تعنيه. كما تم الانتهاء من تنفيذ خطة فوضى

المصطلحات، سمح باستخدام أية كلمة للتعبير عن أي موضع.
من ذلك استخدام رموز الطب في المجال الهندسي، أو
تعبيرات العجم.

للتعبير عما يناقص العجم، والحديث عن الأصدقاء
بأوصاف كان يحتص بها الأعداء، والاشادة بالأعداء لأنهم
أعداء، جرى ذلك طبقاً لترتيب دقيق، بدأ الأمر من
الصحف اليومية، ثم جرى على ألسنة الناس في حياتهم
ومعاملاتهم، واستحق العناني ثناء سكان الضاحية النائية،
لهذا عندما نددت قلة بما عرف ونشر عن الاجتماع بالأعداء لم
يعبأ بهم أحد، كما ان البعض وقع في حيرة، هل المقصود من
الاعتراض المدح، أم الذم؟ لم يتأثر العناني، ولم يكن بوسع
أي شخص من الذين ظهروا في الخطط حتى الآن أن يؤثر
فيه، اعتاد العمل في كتمان شديد، مع عتاة الهرمين، لم يكن
ينمض عينيه قبل أن يصغي الى اجمالي ما تم تليفقه من تهم
للأبرياء، وعدد مرات الاغتصاب، وخطف الأطفال لبيعهم
خارج الخطط، لو حدث تقصير ما في السرقة أو النشل يبدي
عندئذ غضباً، عرف العناني الانزعاج بعد اختفاء الدورية
المسلحة التي أرسلها الى الخلاوي، لم يكرر الأمر، انما سعى
الى أعداء الخطط، لم يصغ الى الحاح التنوخي بضرورة
المجوم على الخلاوي. أمر بتشديد اليقظة في سائر أنحاء

الخطط، ومراجعة ماضي كافة الشخصيات، والتدقيق على
مخارج الضواحي، ونبه على مضاعفة دخول المنازل خلصة،
والبحث في الأدراج الخاصة، ومعاينة أي مسئول عن وصول
مظروف خطاب مغلق الى صاحبه، ان العناني لا يستهين بأتفه
الأمور، عندما اتصل به التنوخي مستفسراً عما يقال حول
اجتماعه بالأعداء؟ أبدى العناني دهشة، تساءل: ألم يحدث
هذا أية ردود فعل؟ لا بد أن التنوخي يقعد على أذنيه ولا
يدري شيئاً عما يجري - يا تنوخي ان أي شيء يمكن أن يقع
في الخطط الآن - أي شيء، ولن يقابل برد الفعل الطبيعي
يبدو ان الهرم أدرك كبار الشخصيات، وانهم يجب ان
يتقاعدوا ليفسحوا الطريق أمام مجدي رمزي وأمثاله. ان
التنوخي يتولى مسئولية الحي السابع ذو المساحات الشاسعة،
والذي يضم اهم المؤسسات، والميناء الوحيد، لكنه منذ مجيء
مجدي رمزي الى الضاحية الأولى وداخله كدمة سوداء، انه
يقترّب من الخمسين، وبعد عمر طويل من الانحطاط يفاجأ بأنه
يجب ان ينافس شاباً لم يتجاوز الثلاثين، ندم لأنه بطش
بالاستاذ عندما تعمد توجيه الشكر تلو الشكر اليه، والاشادة
بمحاسنه وخلقه، وكان هذا أقصى ما يمكن قوله في حقه وأشده
ألماً، المهم الآن ان يثبت للجميع انهم في حاجة اليه، وان
الخطط لا يمكن أن تمضي بدونه، للأسف قدر عليه أن ينافس

شاباً صغيراً، يبدو مترفعاً، باهتاً، نحيل الشارب، يوحى جسده بأنه لم ينضج بعد، أثناء تولي الهلالي لم يشعر بخطورة الضاحية بل اعتبرها تابعة له على الرغم من المعجزة الزائدة التي أبداه الهلالي من حين إلى آخر. برغم ما يشعر به اتصل مراراً بالضاحية الأولى، يستفسر عن صحة مجدي رمزي، أو يدعوه إلى تناول العشاء، ولكنه لم يستطع الاتصال به ابداً، وفي كل مرة لا يجده أو يشعر بتجاهله له، تتزايد الكدمة السوداء داخله، كاد يطق من الغيظ، دارت أحوال الخطط حتى جاءوا بطفل يسير الأمور، لا بد أن يثبت لهم أن إخراجهم مستحيل، أن وجوده ضروري، لم يعبأ بما تردد عن أحداث الخلاوي، ما شغله وزحم عقله، البقاء، يا لتدهور الحال، كان يأمل في الترقى، والتقدم، للسيطرة على كافة أنحاء الخطط وها هو يسمى إلى مجرد البقاء، إلى القيام بسلسلة أعمال تذهل الكل..

مشارف محدودة تقع بين الضاحية

الأولى والحي السابع..

.. جاء التنوخي إلى هنا في هيئة لم يعرف بها من قبل، كانت هذه المشارف أراضي زراعية تون الحي السابع بالخضروات، ثم تقلصت الزراعة مع تحديد مساحات الخضرة،

تبقى خط حديدي ضيق لترولي كان يدفع باليد، يقال أن مالكا قديما قد شيده في بداية هذا القرن، كان يجلس فوقه مع ولديه الصغيرين، ثم يدفعهم ثلاثة من العبيد السود. جاء التنوخي بمفرده، يرتدي عباءة سوداء، ازاحها فجأة عن كتفيه، بدا مرتدياً زياً غريباً، شديد الشبه بحلة راقصة من العهد الفولكلوري المندثر، لف خصره حزام محلى بالترتر المفضض، حلق حاجبيه، وشاربه، ثم صبغ شفتيه بأحمر قان، أمسك باطراف أصابعه صاجات نحاسية، بدأ يوقع بها على مهل، ثم تزايدت سرعة إيقاعه، تلوى وتكسر، تشنى وتقصع، لم يتوقف أحد من المارة على الرغم من ظهور بعض مراسلي الصحف الأجنبية، ومراسل محطة التلفزيون الأمريكية، أن بي. اس، أعلن تأييده بدون أن يوضح الجهة التي يبرق إليها بالتأييد، أشار إلى الناس الذين لازالوا يعيشون في الماضي، ويتجاهلون الحاضر الرائع للخطط التي تعيش أجد أيامها بالمفهوم القديم، ثم قال أنه سيقدم الدليل من خلال مؤامرة تم اكتشافها، سيقدم الدليل، أشار بيده، ظهر ثلاثة رجال أشداء ينتمون إلى إحدى عصابات السطو، يدفعون شاباً في العشرينات، برغم الهواء البارد الذي جاء إلى الخطط من شمال أوربا نتيجة لوجود منخفض جوي فانه يرتدي قميصاً قصير الأكمام، أشار إليه التنوخي، إلى الدليل الحي، إلى أحد

الذين يحاولون تعويق المسيرة، قطب الشاب حاجبيه وكأنه يواجه شمساً حادة. ظلت ذراع التنوخي تشير الى جهة ما تطاير اللعاب من فمه. انه لن يسمح ببقاء مثل هذا الشاب في الخطط، انه يروج لبدع قديمة ابطلتها الفتاوى والآراء، انه يدعو لضلالات، انه يحاول زعزعة الأسس المتينة للخطط، توقف التنوخي ليقوم بأداء مقطوعة متواصلة من الدق بالصاجات، احتفظ وجه الشاب بنفس التعبير، ستصادر النقود التي ضبطت معه ولن تصل الى امه أبداً، ارتدى التنوخي العباءة في حركة مفاجئة، احدث ما قام به ارتياحاً عميقاً في الضاحية النائية. هنا العناني على ما قام به، اعتبر ذلك حدثاً هاماً وبارزاً، لأول مرة تعلق القرارات الهامة من خلال شكل جديد يتنافى تماماً مع المظاهر القديمة، اعتبر خلق الحاجبين والشارب وارتداء بدلة الرقص من علامات البطولة، أما توجيه الاتهام الى الشاب الذي حاول مساعدة امه الضريرة فخطوة واسعة نحو اباداة القيم البالية. كما اتضح أمر هام وهو عدم مبالاة الناس، اذ استمروا في سيرهم بدون التوقف للفرجة، حتى الفضول مات فيهم وزيادة، أكدت هذه البلادة التي جرى التمهيد لها طويلاً ان ما يجري في الخلاوي لن يؤثر على الأوضاع العامة في الخطط. علا نجم التنوخي، وضع ان الجيل هو القادر على الأمور الصعاب، لم يفكر

التنوخي، وضع ان الجيل الأول هو القادر على الأمور الصعاب، لم يفكر التنوخي في مجدي رمزي لمدة يومين متصلين. لكن حيرة أدركته عندما نما اليه ظهور مجدي رمزي في هذه المنطقة أربع مرات متعاقبة. لم يتحدث، لم يتكلم الى مخلوق، انما حلق بعينيه، وعلى أثر هذه الوقفات استنفرت سائر الجهات وهذا لم يحدث عندما كشف التنوخي عن مؤامرة الشاب الوفي لأمه، أدرك أن الأحداث لا تمضي كما يتمنى.

.. امتدادات الضاحية الأولى ..

.. قبل الدخول إلى هذه الامتدادات التي أحدثها مجدي رمزي لا بد من التنبيه الى نشاط حركة البيع العظمى. شمل البيع كل شيء حتى اعضاء البدن. أصبح العثور عليها ميسوراً بدءاً من الكلى واطقم الاسنان حتى اعضاء الذكورة المعقولة الحجم، جرى تسهيل بيع الفتيات الصغيرات إلى خارج الخطط، ثم الأطفال الصغار بعد خصيمهم. ثم تقدمت إحدى المؤسسات الامريكية المتخصصة في تربية فئران التجارب بمشروع سرعان ما وافق عليه المسئولون في الخطط، جرى توريد عدد من الذكور والأنثى صحاح البنية إلى معامل الأبحاث. وهكذا ظهر انسان التجارب، أو العينة البشرية. انتشرت مكاتب لاختيار بعض الأهالي الأصليين

الذين تتوافر فيهم الشروط المطلوبة لاجراء التجارب، في مجالات الأدوية، والعقاقير السامة، او التعرض للاشاعات، او اطلاق مركبات فضائية في أغوار الكون السحيقة بدون أي احتمال لعودتها. قيل انها خدمة جديدة تقدمها الخطط إلى العالم المتحضر، وان الآلاف يتزاحمون اما لبيع اعضائهم أو للتقدم الى مكاتب الحصول على انسان التجارب. غير ان صوت أهالي الخلاوي سمع خارج الخطط وداخلها، كشف عن عمليات الاختطاف التي تقوم بها عصابات العناني، وناشد الأمم المتحدة التدخل لأن تجارة الرقيق عادت. عند هذه النقطة وبعد تردد مجدي رمزي أربع مرات على المنطقة الفاصلة اتصل بالعناني، قال إن كل محسوس يباع لكنه سيعرض للبيع ما لا يرى ولا يمك يد. انشأ مكتباً لتصدير التاريخ. وهذا ما لم يخطر ببال انسان من قبل. صحيح ان تصدير الآثار وبيعها مستمران. لكن بيع التاريخ. هذا ما لم يفكر فيه مسئول، ولم يستطع أحد أن يتصور امكانية تحقيقه. لم تر اثار زوجها هاديء البال مطمئناً كما تراه الآن، تعجبت، لان اضطرابات وقعت بسبب شحة الخبز، وقلة وجوده، وتكالب الناس عليه. لاحظت قلة شروده. ومداعباته لها التي تكررت، كان يحتضنها مقبلاً، أو اصراره على مضاجعتها بعد ارتدائها ملابس الخروج، صاحت محتجة

لكنها تفجرت فرحاً لانه لا زال يشتهيها ثم عاد إليه شروده. لكنها لم تفقد الأمل في استعادته من حين إلى حين، ستظهر معه في الصورة حقاً، ستحتل حيزاً الى جواره. ستدلى بمحديث الى مجلة أو صحيفة أو محطة تليفزيون عن علاقتها به، كيف بدأت، كيف تعلم، وعاشا معاً، ستحدث عن عاداته، وعن املها في حصوله على جائزة نوبل، واقتناعها إن ما قدمه الى الخطط اهم بكثير من تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب. المهم ان تظهر في الصورة. فجأة دبت الحركة في البيت، جاء إليه عدد من المواطنين الذين وفدوا من بلاد اجنبية. في هذه الفترة سحبت الجنسية الخططية من سائر الأمالي الأصليين، وصار من الضروري تجديد اقامتهم كل خمس عشرة اسبوعاً، اما الاجني فيمنح الجنسية فور وصوله الى الخطط، واستثنى من ذلك ابناء دول العجم أو من يتعاطف بهم وينتمي الى القارة الاوروبية او القارة الامريكية اللاتينية. ما أذهلها ان مجدي يتحدث اكثر من عشر لغات مجهولة، غير منتشرة. تكتشف انها تجهله في الوقت الذي تظن احاطتها بكل شيء عنه، لكن فضولها لم يضعف ازاء ما يجري. أقام زوجها مريضاً ضخماً للحضارات التي عرفت الخطط، وغاذج متقنة لكل ما تخلف عنها، وقسم خاص يضم كافة المعلومات المتاحة، الشخصيات. الممارك، الهزائم، الانتصارات، الفتوحات،

الجيش، الديانات، الحياة اليومية، الزراعة، الصناعة، التجارة، علوم السحر، المرافئ المندثرة، العملات النقدية المتبقية والأزياء الرسمية والأغاني، النصوص الموسيقية، المتن الدينية، كتب الموتى، التعاويذ، في الخارج نشر كتيب صغير قال فيه مجدي رمزي إن التاريخ أمر مشكوك فيه. أحداثه لا تلمس ولا ترى، التاريخ الحقيقي هو اللحظة الآنية المعاشة، أي انه يولد ويفنى معاً، اذن فلا وجود له، انه وهم يتعلق بأخيلة الناس، تستخدمه بعض الأنظمة لاغراض معينة. ان هذه النظرة نضجت تماماً في الخطط، وسوف يمضي وقت طويل حتى يقتنع العالم بما تم التوصل إليه. من هذا المنطلق ستطرح الخطط تاريخها للبيع. تم انشاء توكيلات في العواصم الرئيسية. توكيل للحقبة الحجرية والبرونزية والجلدية الأولى والجلدية الثانية في بروكسل. وتوكيل للحقبة الفرعونية في شيكاغو، وتوكيل للحقبة الرومانية والاعريقية والفينيقية في كولومبيا. وتوكيل للحقبة البيزنطية والبابلية والآشورية والهند وأوروية في مينيسوتا. وتوكيل للفترة العربية في بوسطن، قام كل توكيل باعداد كتالوجات حوت كل ما يتعلق بالعصر. انتشر ساسة لا حصر لهم في الدول المستقلة حديثاً. والدول محدثة الثراء، وحملوا قوائم الاسعار والعمولات، وسمح للأفراد بالتقدم. وفي البداية

جرى إقبال لا حد له على التوكيل المختص بالمرحلة الفرعونية وذلك لثراء مخلفاته وآثاره. أبدت عدة دول كبرى رغبتها في شراء الفترات المنتمة الى هذا العصر، سري حماس شعبي هائل في الولايات المتحدة عندما أعلن رئيسها عن مشروع سوف يتقدم به إلى الكونغرس لشراء الأجزاء الممتازة من الزمن الفرعوني العتيق. سجلت اجهزة الرأي العام ارتفاع شعبية الرئيس بعد اتخاذ هذه المبادرة، كما ازدادت فرص فوزه في انتخابات الرئاسة المقبلة. ولوحظ ارتفاع سعر الدولار في مواجهة الين الياباني. تقدمت فرنسا لشراء عهود الرعامسة بأكملها، وعرضت أعلى نسبة عمولة ممكنة، اضطر التوكيل التجاري المختص الى الزام الدول الراغبة في شراء الفترات الزاهية الى شراء بعض الأجزاء الأقل أهمية. خوفاً من انعدام المشترين لتلك المراحل. لكن ماذا يعني بيع فترة أو عصر أو عدة سنوات أو عهد أو يوم معين وقع فيه حدث بارز كانتصار هائل، أو مجد عظيم، أو اكتشاف مؤثر هز العلوم أو ابداع فني أو عمراني؟ كيف يمكن ذلك وهذا ما لم يسمع انسان بمثله ولم يعرف من قبل؟ كيف جرى ذلك في الخطط كيف؟ ان البيع يعني - يا اسفي وحرقتي ولوعة ايامي - اسقاط المرحلة المباعة من تاريخ الخطط الغالية، الخطط الدرية، الخطط ذات العباد التي لم يخلق مثلها في

البلاد، الى الأبد تحذف تفاصيلها من الكتب المتخصصة،
والمناهج المدرسية، ويمنع التباهي بها. او تذكرها، او الإشارة
إليها. تنقل كافة الآثار المنتمية الى الزمن المباع لتصبح ملكية
شرعية للجهة التي دفعت الثمن واجزلت العمولة، ويصير من
حقها الحصول على أية آثار أخرى يتم اكتشافها فيما بعد مع
مراعاة الفروق في السوق العالمي. هكذا جرى، تم تفكيك
مجموعة الاهرامات النادرة التي تقع على مسافات متفاوتة في
الخطط. والمعابد ذات الاعمدة والواجهات والأسرار
المكنونة، والتماثيل التي عجزت الرياح الموسمية والتقلبات
الجوية والهزات الأرضية عن تشويه ملامحها، او النيل منها،
والكنائس الخشبية المنمنمة، والايقونات، والمآجد الهائلة
الراسخة المشيدة في عهد السلاطين، نفذ المعروض من الزمن
الفرعوني في فترة سريعة، ساعد ذلك على ترويع العصور
الأخرى. وجرى اهتمام بالزمن العربي، وطالب الكنيست
بسرعة اغتنام الفرصة بواسطة الجماعات الموالية. في هذه
الايام التي تضاعفت فيها الاحزان وصل الى الضاحية الاولى
ثري نيوزيلندي وطلب شراء الاعمال الشعرية الكاملة لمحمود
سامي البارودي. اعتذر مجدي رمزي لانه من الضروري
شراء الفترة الزمنية كلها. لكن الثري النيوزيلندي اعترض
لأن الشاعر عاش في عصر حديث نسبياً، وهذه الفترة لا يمكن

بيعها. نفى مجدي ذلك. كل شيء معروض للبيع حتى صباح
اليوم، وحتى أصيل الشمس التي لم تغرب بعد. والذي لن يباع
الآن سيباع في اللحظة التالية. طلب مهلة للتفكير، وحقيقة
الحال ان الثري النيوزيلندي أوحى إليه بمشروع جديد. هو
انشاء توكيل لبيع الأعمال الأدبية والفنية البارزة بمعزل عن
العصر، واتخذ حجة بدت وجيهة. وهي ان الشاعر او الرسام
او الموسيقي ربما عاش فترتين متصلتين، متعاقبتين، هذا
سيخلق منازعات ربما تتطور الى حروب اذا بيعت الحقبتين
إلى جهتين مختلفتين. واستثنيت سائر الاعمال الاثرية والفنية
التي لا يعرف خالقها. وهكذا بدأ التوكيل الجديد نشاطه،
ويعني بيع اعمال شاعر او رسام أو مؤرخ انتقال تبعيتها الى
المشتري الذي دفع. والعجيب ان المتقدمين لهذا التوكيل جاء
معظمهم من داخل الخطط نفسها، ان الاعمال المعروضة للبيع
لا تدر عائداً مالياً ضخماً، ولكنها تمنح وجهة خاصة. تقدم
التنوخي لشراء لوحات الفنان الراحل محمود سعيد، وثلاثية
نجيب محفوظ، واشعار كفافيس، وشوقي..

اقام حفلاً دعياً إليه عدد من الشخصيات الرئيسية، وفيه
تم كشط اسم محمود سعيد من اللوحات، ثم وقع اسمه، وتحدث
عن المعاناة التي مر بها عندما كتب الثلاثية، واهدى نسخة من
الطبعة الجديدة الموحدة، بين القصرين بقلم التنوخي، وكذا

قصر الشوق والسكرية. وقال مجدي رمزي ان الخلود وهم. لهذا امر بالاستيلاء على كافة الآثار الفنية التي ظهرت خلال القرن الأخير وبيعها لمن يرغب. ماذا يضير صاحبها الأصلي بعد رحيله عن الخطط إلى الأبد؟ حروف تحل مكان حروف، ما من خلود مطلق، انتاب التنوخي كمد. ظن انه اضاف الى هيئته مقداراً بعد ان اصبح رساماً وروائياً بفלוته وما هو مجدي يصرح بأفكار جديدة تلقى ترحيباً. ليت اصغى الى عرض الهلالي عندما طلب منه ان يكتب رواية. لم يفعل، لماذا؟ لا يدري الآن. لم يقتصر الأمر على الراحلين. بل شمل الأحياء الذين حققوا شهرة تعدت الخطط. جرى ضغط ثقيل عليهم. ذهب مجدي رمزي بنفسه الى روائي كبير من مواليد الخطط معروف في العالم العربي، لكن الرجل الذي يقترب من السبعين أبى واستنكر. عاد إليه مرة أخرى ومعه اغراء كبير. بيت من طابقين بأجل مناطق الحي السابع، وراتب شهري من اللحم. لكن المعجوز شخط فيه، انصرف مجدي رمزي. بدأ التليفون يدق في بيت الروائي الكبير الذي يعيش في عزلة منذ عيوره الميدان الكبير، متكلمون مجهولون، يسبونه، يهددونه، يزجرونه، في صباح كل يوم يجد أحدهم قضى حاجته امام باب بيته. انطلقت رصاصة مجهولة بجوار اذنه. جاء يوم بدا فيه البيت

هادئاً، رن التليفون بلا انقطاع، اختفى الرجل، ابدى مجدي ضيقاً، وطلب العون من العناني. بعد اسابيع نشرت صحيفة اجنبية خطاباً، قال الروائي المعجوز انه لجأ الى الخلاوي بمعونة زينة شباب الخطط سليمان، انه يقاسي المشاق. لكنه لن يبيع أي عمل من أعماله أبداً، على العكس من موقف الروائي الكبير تقدم بعض الذين لم يحوزوا شهرة، وعرضوا انتاجهم مقابل اثمان بخسة، لكن سوقهم كانت كاسدة، اضطر مجدي رمزي الى تخصيص مساحة محدودة من امتداد الضاحية، امر بوضع دكة عالية، خصص يوماً من كل اسبوع يجيء فيه الكتاب الراغبين في عرض انفسهم للبيع، يقفون فوق هذه الدكة، يتلون بصوت عال نماذج من كتاباتهم، يبرزون قدرتهم على التبرير، أو المديح، أو النفاق، أو التأييد التام، ثم يقدم احد المثمنين بتعديد المزايا، وابرار الخصائص. جاء الى الدكة بعض الفنانين التشكيليين، واساتذة الجامعات الراغبين في بيع بحوثهم القديمة. لكن منتجاتهم لم تلق رواجاً، لم يقبل عليها أحد، عانت الخطط في الأثمان. لهذا عرف المكان بدكة الكتاب.

المعبد الليلي..

.. يقولون ان الخطط عمية بابنائها المخلصين، وبروحها الخفية التي تسري. وان من ارادها بسوء قصمه الله. تناقل الخلق احداثاً وحكايات مجهولة المصدر، مفتقدة لليقين، لكنها، لكنها كثرت. قيل ان رجلاً رفض ان يحى مواطن خططي جديد من الذين جاءوا عبر البحار، وان عمال المخابز اضربوا بسبب ما يشاع عن قرب الغاء اللغة العربية المتداولة منذ ألف الف عام. وان العجم توحدوا بعد طول انقسام، ولحقوا بالخلاوي، وان طائفة عمودية استقطت، ثم تداول الناس اخبار المعبد، معبد صغير، عظيم القيمة، يقع قرب الصحراء الغربية، شيد منذ ثمانية وأربعين الف شهر ميلادي، عند نهاية أفول الزمن الفرعوني العتيق. اثناء بداية الزمن الروماني الوثني، وقتئذ قام الأجداد المندثرون بالتوجه الى هذه المنطقة الوعرة وبدأوا في بنائه شيدوه في الليل. كانوا يحتفون في النهار ثم يمشون إليه ويعملون حتى الفجر، بني المعبد كله في ضوء النجوم الواهن، ونقلوا إليه تماثلاً لطائر غريب من الزمرد الأخضر، حارس الخطط، هذا التمثال استقر في فترة مبكرة من العصر الحالي بمغارة حفظ الآثار، انه طائر مجهول الجنس، ليس بمجدأة، وليس بصقر، وليس بنسر، يصدر التمثال عند شروق كل شمس اصواتاً هامة اما

الأصل الحي فلا زال يعيش في الخطط، كان عشه فوق الشجرة النادرة، ثم طار منها، وظل محوماً في السماء، مجهداً، حتى أكدت الروايات المتناقلة انه شوهد فوق الخلاوي، وانه حط فوق صخرة مدبية في أعاليها. انه اول مخلوق سكن الخطط وآخر من سيفارقها ولا يدري انسان ما مأكله أو مشربه، أو كيفية تناسله، اهو زوج أو فرد؟، تفاعل الناس بظهوره، اختفى المعبد، ولم يستطع شرح ذلك المفسرون والقائلون. قيلت أسباب، منها هبوب عاصفة رملية غطته، وانه لا زال في مكانه، قيل ان الطائر الأخضر نقله حجراً حجراً، وان المعبد في موضع امين، قيل لمجدي رمزي ان مصلحة تهريب الآثار عجزت عن حمايته فثار ثورة عظيمة لان بيع المعبد شرع فيه فعلاً، رفض كل الحجج، ان تفكيكه كما تقول الدراسات الكومبيوترية يحتاج الى شهر كامل، كيف يحتفي في ليلة؟ اما نقله إلى منطقة الخلاوي فمستحيل لانها تقع على مسافة نائية، اتهم عصابات السطو المسلح بالتهاون، وانها بدأت تستعيد ملامح البوليس القديم. ذلك يعني تهديد الأسس التي قامت عليها الخطط، رد العناني بسرعة، اعلن في بيان مكتوب، ان القاعدة العريضة من الخطط منحرفة، ونظرة واحدة الى الشارع تبين مدى الاستهانة، والبلادة، وانقراض كافة القيم البالية، أكد ازدهار الأنانية، وتطور

الاستهتار، وتعاظم الدعارة، وفساد الأسباب، كل ما في الأمر ان ثمة قلة شريفة تمسك بالاخلاق، وتتعلق بالتاريخ، وتدعو سراً إلى الشرف والأمانة، ان هذه القلة جارى مطارتها، وهذه القلة من الضالة بحيث لن تعطل أبداً التدهور الذي يمضي بمعدلات عجيبة اذهلت العدو قبل الصديق، ونفى تسرب خصائص الشرطة الى عصابات السطو، ودلل بارتفاع نسبة الجرائم، القتل، والاغتصاب، والتزوير، ما من ساكن للخطط يمكن ان يأمن على نفسه الآن، وهذا انجاز يجب عدم تجاهله بسهولة، وانهى العناني بيانه بدعوة الأجيال الجديدة في الخطط الى التريث قبل اصدار الأحكام، عد هذا البيان اعترافاً علنياً بوجود من يناوئ الأحداث الأجسام. وانتهر التنوخي الفرصة فطلب من العناني التدخل لاقضاء مجدي رمزي بسرعة، لكن العناني كان مشغولاً بما وصله من معلومات عن هجوم كبير وقع على أطراف الحي السابع. قدم المهاجمون من نواحي مختلفة، واستخدموا تكتيكات حديثة، والحقوا خسائر، وسرعان ما دب القلق في الخطط بأسرها..

حروب الخلاوي..

.. من شهر بثونة انقضى خمسة أيام، اشتد الحر في سائر الخطط، جف الهواء، وتيبست الفصون، ثم هبت فجأة رياح لم يعهد مثلها في مثل هذا الوقت من العام، ولأن مرصد الخطط تم بيعه فلم تصدر نشرة، ولم يعلن ايضاح. وجفت قلوب الناس، ولهجت الألسنة، بوقوع حدث عظيم، استمر هبوب الرياح سبعة أيام ثم حلت معها غباراً أسود مما دعى بعض المعمرين الى القول بأنها الرياح السود. علامة من علامات القيامة، يا لطيف، يا الله. السلامة، يا مولاي خف الكرب، هانت الخطط على اهلها وناسها وشخصياتها فظهرت علامات النهاية. ومع بداية المطر الموحل نزل اهالي الخلاوي من أعالي الجبال كالجراد المنتشر، تفرقوا في مجموعات، عرايا، نحاف، حفايا ومع ذلك قطعوا المسافات فوق الصخر المدبب، والأراضي الساخنة سرعة عدوهم لا تقارن، وصبرهم لا يضاهي، خبروا كل أنواع الضيق، والبلايا، من قلة الراحة وقموا على الجفا، هجرهم من بعد العدو حبيب، تقدمهم

ثلاثة، الياس، والخضر، والوتيدي، الخضر قلبه على الخصوم جاحد، قبل نزولهم من الخلاوي طلب عدم الرأفة، وانقاذ ما يمكن انقاذه من الخطط، لا هودة ولا راحة بال إلا بعد استعادة زمان الخطط الحلو، الرائق، الخضر انهى انقسامات العجم، دعاهم من ساحة العجم الى الخلاوي. لحقوا به، وحذرهم من أي تفكير في انقسام حتى تعود الخطط كما كانت واحسن، انقسامات العجم أحدثت الحلل لزمن طويل، بلغت ذروتها بعد اجتياز الميدان الكبير، وقتئذ كانوا موزعين على فرقتين رئيسيتين. الأولى قالت ان ثمة شيئاً خفياً يجري في الخطط يستهدف العودة بها الى الوراء، وتقديمها وجبة جاهزة الى الأعداء. الى كل من أراد الشراء، أما الفرقة الثانية فقالت ان الأمور لم تعد كما هي وان الوضع اختلف بشكل جذري عن القسم الذي ضم الخطط والأسوار، لكن هذا لا يقتضي ردود فعل حادة كما تريد الفرقة الأولى. ثم شهدت ساحة العجم مناقشات عديدة داخل الفرقة الأولى وكان ذلك في زمن الهلالي عند بدء المتغيرات الكبرى في الضاحية الأولى. رأى البعض ان هذه المتغيرات ليست الا مقدمات للأخبار الطوال، زوال الضاحية يعني ان الأمور صارت صعبة، وقيل رأي آخر مضمونه ان الأمور لم تعد صعبة. صدر بيان من المجموعة الأولى وبيان من الثانية وجرى

الانقسام، ثم تبودلت اتهامات، ثم توالى الانقسامات داخل الفرقة الأولى حتى بلغت سبعين انقساماً، وداخل الفرقة الثانية وصلت الى أربعين، جرت اغتيالات، وتصفيات جسدية، ومجادلات عقلية، واتهامات بخيانة الخطط، والعمالة لجوهر العناني وللتنوشي، بل للأعداء. غير أن اغرب موقف ذلك الذي اتخذته مجموعة اعتقدت في مجدي رمزي، ورأت فيه امكانية لتغيير افضل، وانه يعمل بشكل غير مباشر لمصلحة القاعدة العريضة في الخطط. وفسروا تصرفاته تفسيرات عجيبة، ومن ذلك بيعه للدكتوراه، وقولهم ان ذلك مجرد خطوة من جانبه للتخفي، واظهار خلاف ما يبطنه. وقالوا بأن التشنجات لن تقيد. وان مجدي رمزي بقعة مضيئة، لا بد من الوقوف الى جوارها، بل ان أحد أفراد الجماعة عرض نفسه فوق دكة الكتاب وعدد فضائل مجدي وتغزل فيه، ودعا الى طاعته. وبعد ان تزايدت الانقسامات حتى وصل الأمر بالمجموعات الى الانقسام فرادى. صار كل فرد يمثل رأياً، واتجاهاً، واعتقاداً، ثم انقسم كل فرد على نفسه، حتى أن أحدهم أصدر ثلاثة بيانات في يوم واحد كل بيان يناقض الآخر ويرد عليه. استفحل البلاء. وهنا بدأت هجرة شباب العجم الى الخلاوي. ويقال ان الخضر، بذل مجهوداً غريباً في توحيد الكلمة، ابدى ليناً، واظهر قسوة، واخذ هذا منه مقداراً

هائلا حتى تمكن من ايجاد حد أدنى للاتفاق، وهكذا دخل
العجم فرادى وجماعات تحت اللواء الذي عقد له لقيادة
خلاوي الخطط، خلت ساحة العجم القديمة. زحف الخراب
اليها ونبت العشب ودبت السحالي وتناثرت الأحجار. ثم
زالت فيما بعد ما أزيل من الخطط. واستبدلت ساحة العجم
بفرقة العجم التي تبعت الخضر خلال عمليات الهجوم
الضارية. ازعج هذا العناني واهالي الضاحية النائية،
واستدعوا خبراء في مكافحة العجم. اشتركوا في الهجوم
الكبير على الحي السابع، وكان هجومهم مرا، قاسيا، جرت
فيه الأعاجيب، انطلق الخضر كنار حامية. صوبت نحوه
آلاف الطلقات الكاشفة والمعتمة، سددت بعضها من مسافات
ومن قرب، وبدا كأنه لم يندش، وتناقل الناس ما قيل عن
الحجاب الصغير المدسوس تحت جلده والذي يقبه الشظايا وسم
الأفعى ولسعة العقرب، وقدرته على الرؤية من بعد قصي.
هوجمت مراكز العصابات المسلحة، اخذوهم بضربات موجعة،
فتكوا بالاغراب، صار لهم ثقيلاً عند كبار الخطط. في كرمهم
على الحي السابع انقذوا آثاراً قديمة كانت معدة للبيع،
ومخطوطات نادرة، منها مصاحف بخط اليد العجيب،
وايقونات، وبحوث علمية، ومتون، وفي مرة أخرى حرروا
فتيات مستديرات الكعوب، ناهدات الصدور، كلهن في

الرابعة عشر، ابكار، خطفن واعدن للتصدير، يا عز اهالي
الخطط. في هجوم ثالث أوشكوا على الوصول الى المقر
الرئيسي لقيادة العصابات المسلحة في الجزء الشرقي من الحي
السابع، وتصادف وجود العناني هناك، يا سوء حظ أهالي
الخلاوي. بدا واضحاً ان هؤلاء المقاتلة ذوو قدرات تفوق
الطاقات المتوقعة. وبدا الأمر كالحلم، انهضي وقومي يا
خطط، لم يعد الوهم مستحيلاً، والأمني ليست بعيدة عن
التحقق، ما القول يا من تتابعون ما يجري منذ زمن؟. يا من
ظننتم ان كل شيء صار هامداً، لا روح فيه، لم يعد ممكناً
التمويه على السكان الأصليين، أو المواطنين الأجانب، أو
العالم الفسيح الممتد خارج الخطط.

عرف الكل ان الجبال الصخرية المهجورة منذ أن قيل
للأشياء، كوني فكانت، لم تعد خالية، وان أنفاس الانسان
تتردد فيها، وان حياة بأكملها تدب هناك، اختلف الرواة،
قالوا إن أهالي الخطط عاشوا هناك منذ الخليقة، إلا يعرفون
المسارب والدروب، الا يجتازون في كل ليلة العوائق السبعة.
انهم ادخروا أنفسهم ليوم كهذا، منهم اعلم خلق الله بالكائن
من الأمور الماضية، والكائن منها الذي لم يكن بعد، وأن ثمة
اخبارا جاءتهم من الأوائل، وكلهم ماضون الى حسن الختام.
محضون ضد الشظايا، الواحد منهم بألف، الحرب لهم وهم

لها، وقيل أيضاً عكس ذلك فكلهم من الذين عانوا
 الهم والنكد وقاسوا ما لا خير فيه. عاشوا في الشوارع
 والأسوار، ضاق بهم الحال، فهجروا إلى الخلاوي. مات
 كثير وبقي القليل. الذين قاموا بالمهجرات هم من اجتازوا
 العقبات الرئيسية، وشطف الرقاد، والحرمان، وقسوة الحال،
 وضراوة الحنين، يهون في نظرهم الموت، يا خطط...، لم
 تتوقف المهجرات خلال موسم المطر الكبير، وفي نهار ساطع
 هوجم المقر الرئيسي لجريدة الأنباء ودمر تماماً، واشتعلت فيه
 نيران حادة، ذات لهب غريب، وسمع لانهيارها قعقة من
 بعيد، وراحت كل الجهود التي حاولت اطفاء النيران، أو
 انقاذ المبنى، وهكذا زالت جريدة الأنباء كأنها لم تقم في
 الخطط، ولم يحدث فيها ما حدث، انقطع ذكرها تماماً، وخلت
 الخطط منها، لم يرثها مخلوق، ولم يبك عليها انسان، حول
 المبنى جرى الدم، الغريب ان جثة واحدة من قتلى الخلاوي
 لم تتبق. حتى ردد عجائز معمرين ان قوى خفية قامت
 بالمجوم، لكن دلت الشواهد أن أهالي الخلاوي لا يتركون
 قتيلاً أو جريحاً، وعدا ذلك من محاسنهم، ويبدو انهم انتشروا
 في الخطط، وانهم قبعوا أو كمنوا أو اختفوا في مواضع مجهولة
 يشنون منها في لحظات معلومة. «بدأ الجهاد يا خطط»، من
 ناحية أخرى اطلق رجال العناني النار في الخطط، راحوا

يكبسون الدور والخلق نيام. ويوقفون المارة، يرقبون
 ويفحصون، وينبشون التبن في الاجران، ويدقون الجدران،
 ويبقرون الحشايا، ويمعدون ذرات الكحل في العيون،
 وامتلات السجون الفرعية. وحدث ان هوجم مقر السجن
 المركزي، ومبنى جديد في الضاحية الأولى خصص لتاريخ
 الدعارة في الخطط واشهر العاهرات. وجرت محاولة لحرق
 دكة الكتاب. واختطف الدكتور عبد العظيم السوافيري،
 ووصلت رسائل بطرق مختلفة إلى الذين تأهبوا لعرض أنفسهم
 فوق الدكة. استعان العناني بأجهزة مخبرات اجنبية لم يعرف
 عددها، بعد مجهود امكن تحديد أحد الشخصيات الرئيسية
 الثلاث، انه أحد الذين لفهم الغموض في الأسوار واسمه
 الياس، ظهر في الميدان الكبير لثوان معدودة، ثم جاء من
 الخلاوي، لكنه كان جهماً، ممثلاً وليس مرحاً، ودوداً، كما بدا
 في الأسوار، عرفوا عنه حدة السمع واستطاعته الاصغاء
 لمسافات لا نهاية لها، وتأثيره على تابعيه لا يضاهي، يقود العمال
 الذين رفضوا استنكار الخزان الكبير، وأعداداً مجهولة من
 البنائين، والنقاشين، والمرخين، وصياغ الذهب والفضة،
 والسروجيه، وعمال الموانئ، والبحارة الذين انقطعت اسباب
 رزقهم بعد بيع وحدات الأسطول. ثم اتضحت شخصية

أخرى، وكاد العناني ألا يصدق نفسه عندما تبين له الاسم.
الوتيدي أقوى شخصيات الخطط، وامتنهم بنيانا، وأكثرهم
استكانة وخضوعاً.

كيف؟ لم يصدق العناني في البداية. وعندما تأكد من
النبا، امر باخراج ابن الوتيدي الوحيد، وعرضه في قلب
الحي السابع، شدد عليه الحراسة، ثم اعلن بكل الوسائل ان
اعدامه سيتم خلال اثنتي عشرة ساعة اذا لم يسلم الأب نفسه،
وفي حالة ظهوره فسيمنح مبلغاً من العملة الصعبة ويسمح له
بمغادرة الخطط مع وحيد.. مضت الساعة تلو الساعة، كثرت
الأراجيف، والأقاويل، صحيح ان الوتيدي هائل البدن،
قوي، حاد الرؤية الى درجة مذهلة، حتى انه ما من حركة في
ليل الخطط الا ويرصدها من مكمنه في الخلاوي، اذا قبض
ججمة انسان طقشها كالبيضة، يمكنه جر دبابة بأسنانه، لكنه
رقيق القلب، لا يطيق ايداء غلة بدون حق، لا يميل على
الضعيف، كيف سيتحمل تقطيع ابنه في العراء المبين، لا بد
انه سينزل، سيظهر، سيقف في اللحظة الأخيرة لينقذ ولده،
لكن مع نهاية المهلة المحددة لم يعبر الساحة مخلوق، حتى
الحيوان نأى وابتعد، ونزل صمت كخمدة القبور، يا
لطيف ألطف، فيما بعد تناقل الخلق جلد الوتيدي وخروجه
الى اقصى ذروة في الخلاوي، وطلبه من الياس ان يرسل

البصر الحديد وان يصف له ملامح ابنه الذي لم يره منذ حين
ومقدار، اصغى منغمض العينين، واستدعى صوراً بعيدة، من
طفولة منسية، وساقين تحاولان الخطو، ولسان ينطق الحروف
الأولى، ولقاءات ما بعد عودته من العمل، والأحضان
الكتكوتية الدافئة، والتعلق الحميم، وبكاء اليوم الأول في
المدرسة، ولحظة ظهور النتيجة، ولحظة المواجهة في الزنزانة
عارية الأطراف، ثم انقطاع الأحوال «يا مهون على
الأحباب» لمدة سبع ليال لم يأمر الوتيدي فرقه بأي هجوم،
حتى ظنوا به الظنون، ولكنه في صباح اليوم الثامن زعق
زعقة هائلة، نزل من الخلاوي، واشعل ناراً لا تنطفئ في
منطقة جديدة خصصت كلها لسكنى الأجانب، سأله الخضر
لماذا لم يبادر بالهجوم ليلة اعدام ضناه؟ فقال إنهم كانوا
ينتظرون ذلك، لكنه أثر ان يخيب توقعاتهم، رويت حكايات
لا حصر لها عن الوتيدي، عن الوتيدي، ولم يذكر انسان
ماضيه في الأسوار البعيدة، أو الشوارع أو الميدان الكبير.
حتى العناني قال انه لم يتصور أبداً تبدل حال انسان كما
حدث للوتيدي. بات معروفاً له ان هناك شخصية ثالثة تمثل
القلب، تقود المرابطين والعجم وكل من هتف يوماً بحياة
الخطط أو رفع العلم، أو أنشد القصائد وردد الأناشيد، لكن
لم يستدل عليه احد، ولم يجد ملاحه أي جهاز مخبرات،

واضطر الخبراء الأجانب الى دراسة ما يشاع عنه، ومن ذلك ولادته في الخلاوي، ونطقه بالشهادتين وهو في بطن أمه، ورضاعته من نبع خفي يسيل منه لبن لا مثيل له في الخلاوي، وانه يستحم يومياً في النيران الأزلية، كما انه يعاشر الحيوانات والأفاعي والطيور النادرة ويعرف لغة كل منها، ويحفظ الخلاوي حجراً حجراً ولولاه لما استطاع انسان ان يعيش هناك أو يتنفس، كما انه الأمين على سر المغارة العظمى التي تم حفظ الآثار القديمة فيها، وانه لا مستقر له، يضرب في كل مكان بالخطط، خطوته واسعة، ويمكنه الظهور في مكانين متباعدين في وقت واحد، لا ينام أبداً، يجول النهار ويسهر الليل. من هو؟ لم يستطع العناني التوصل الى ملامحه، الى اسمه، الى أية نبذة عنه، عند هذا الحد بدا واضحاً ان عصابات السطو المسلح لا يمكنها مقاومة الامر بمفردها، وتردد ان العناني بدأ المفاوضات مع سبعة جيوش اجنبية لدعوتها بفرض الاقامة الدائمة في الخطط، والاشتراك في الحرب ضد أهالي الخلاوي، وان الدول السبع تدرس الأمر بجدية، واعلنت الولايات المتحدة انها سترسل الى عصابات الخطط مائة دبابة من طراز أم - ٦٠ المتطورة، وطائرات عمودية مصفحة، واعلن أكثر من مرة ان العناني غادر مقره ليشهد مناورة كبرى بالذخيرة الحية في مكان ما من الخطط، لكن

معنوياته تدهورت تدهوراً خطيراً بعد ان جاءت الاخبار باستحالة الاقتراب من منطقة الحزان الكبير، حتى قيل فيما بعد ان أسود يومين في حياة العناني، يوم ان بلغه اتحاد العجم ويوم اعتبار الأراضي المحيطة بالحزان منطقة محررة يسيطر عليها أهالي الخلاوي. مما زاد في ضيقه ان أجهزة البحث سجلت نمو الثقة بين السكان الأصليين، وكانت قد اهتزت بشكل وراثي حتى ان الطفل لم يعد يستغرق نفس المدة الزمنية اللازمة للمشي، أو الكلام، وصل بعضهم الى سن العاشرة وهم يتهتئون ويخلطون، الآن يوشك أن تعود الأمور الى وضعها الطبيعي، ونشطت حركة الحفاظ على الآثار الى حد مزعج يحدد بإلغاء كل التعاقدات. وحدث أن احد الثلاثة الأقوياء نزل مستراً بالليل، واطبق على عشرة لصوص قدامى فصرعهم، اقتلع تمثال من قاعدته، تمثال من حجر الديوريت النادر، فادح الوزن، سار به مسافة طويلة الى هدف مجهول، وهكذا انتقد التمثال الذي كان يبعه مقررأ مع حقبة تاريخية تنتمي الى فجر الخطط العتيق. صار أهالي الخطط الأصليين اذا سمعوا باختفاء تمثال او حلية نادرة أو مخطوط مفرد لا يصدقون إلا انه في حماية أهالي الخلاوي. حتى لو تم تصديره. بل تردد ان ثمة جماعات في اطراف الدنيا الفسيحة من أهالي الخطط تنوي اعادة سائر ما نهب. وانهم

سيبدأون بالفترات التاريخية المباعة، كيف سيتم ذلك؟ هذا ما لم يعرفه أحد. وصلت الأمور الى حد خطير، مما دعا التنوخي، والعناني الى توجيه نداء حاد. يناشدون فيه الأستاذ الظهور، والعودة فكل شيء في حاجة اليه، لكن مجدي رمزي لم يعجبه ذلك، توجه الى الضاحية النائية، غاب أياماً، ثم عاد ليبدأ في تنفيذ ما لم يخطر على بال. قال إن اعداء الخطط يدخلون اليها ويخرجون منذ عهد الأستاذ، احياناً خفية، وأحياناً علناً، ان العداء القديم يجب أن يزول من النفوس ليس من العقول ان تستمر الحروب أربعة آلاف عام، كثير من اللوحات الآثرية تحمل ما يعبره عن هذه الممارك وجاء ذلك في نصوص الأشعار، والقصص المتوارثة مجهولة المصدر، الأطفال يرضعون كراهيتهم منذ الصغر، لماذا؟ لماذا؟ من مات في الحرب ضد الأعداء راح على حاله. نسي ذكره وضعف خبره، اقرب الناس اليه ضحكوا من بعد عبوس، والأراامل تزوجن أو أحبن رجالاً آخرين. لماذا القول بضرورة الثأر لهم، بعض افراد من القلة الصالحة المستقيمة التي خرجت عن اجماع الخطط يقولون لا بد من استرداد الأراضي الشمالية المغتصبة، لماذا؟ هل اغتصب الأعداء هذه الأراضي في زماننا، إنها مسئولية الأجداد الذين تهاونوا وتقايسوا، لماذا يدفع ثمنها الأبناء والأحفاد؟ هل نحن الذين

أضعنا الأراضي الشمالية من الخطط القديمة. لكن أبناء يومنا فحسب. بعد التخلص من تاريخ الخطط الذي أثقلها أكثر مما يجب، لم تعد هناك مقدسات تعني الأيام الرواحل، والبعد الزمني، والخطط الآن بلا تاريخ، ان العناني يدعو سبعة جيوش أجنبية للإقامة في الخطط، لماذا؟ ان الجيش القوي على مرمى البصر، انه جيش الاعداء، لنفتح له الأبواب، عند هذا الحد انزعج العناني لأول مرة انزعاجاً شديداً من مجدي رمزي، الخطوة جريئة، واسعة، غير مسبوقة، تدفع بمجدي رمزي الى صدارة الخطط، اعلن العناني ان الانفتاح على الاعداء ليس بجديد وانه سبق له الاتصال بهم، وسمح لهم بدخول الخطط تحت جنسيات تختلف عن جنسيتهم الأصلية، كما انه سهل لهم القيام بأعمال التجسس، وذلك قبل انشاء مؤسسة بيع الأسرار، وتفاضي عن نشاطهم والحقيقة ان كل الترتيبات السابقة تؤدي الى النتيجة التي يحاول مجدي رمزي الآن الاستئثار بها. هل نسي الناس ما جرى في الضاحية الأولى، وخطة تغيير المفاهيم، واحباط الطموحات، من ناحية أخرى لم يهدأ التنوخي، ولم يسكت، قال لعدد من الصحفيين العاملين ومندوبي محطة ان بي اس الأمريكية ان الفضل الأول في الاندفاع نحو الأعداء يرجع الى الأستاذ، كان الأستاذ مؤمناً بالخيانة ويعمل لصالح اعداء

الخطط، طلب الرجوع الى الأسوار. الى مرزوق البلشي
يسألوه عن الرجال الغامضين الذين كانوا يجيئون في أوقات
معلومة، هؤلاء من اعنى رجال مخبرات العدو. متى جرت
هذه اللقاءات؟ في زمن تشييد الخزان الكبير، وهذه المناسبة
يذكر قولاً للأستاذ «تقطر القطرة في موعدها، وكل امر له
وقت ومقدار»، وضع الأستاذ البدايات ونماها، لماذا تتجاهله
الآن؟ ليته ينهي استتاره ويظهر، ليته يعود ولو يوماً واحداً
حتى تعود الأمور الى نصابها، وتعرف كل شخصية حجمها،
غير ان حملة العناني لم تثمر، اذ صدر قرار من الضاحية
النائية بانشاء مجموعة جديدة من الأوسمة والنياشين، وسام
خائن من طبقة جاسوس أول. وسام السقوط، نيشان الخراب.
ميدالية الرشوة الذهبية، وسام الافشاء وله ثلاث طبقات
ويمنح لأشهر الجواسيس، اما أرفع تقدير فتمثل في وشاح
الخيانة العظمى ومنح أول ما منح لمجدي رمزي، وجاءت
التوجيهات الى التنوخي بمساعدته في تنظيم الاستقبال الحافل
الذي سيجري للأعداء، وان يتولى الحي السابع توزيع اللافتات
التي ترحب بالأعداء، أدرك التنوخي انها راحت عليه وان
القطار فاته، اقصى ما استطاعه اباحة الدعارة وتحريم فعل
الخير والتضييق على معاش الناس، هذه الآن أمور عادية،
ولى زمانه في الخطط، وعليه ان يتقبل ما يسند اليه، أو يغادر

الخطط الى الأبد، لو التقى بهدي الحلاوي الآن، لو رآها
لحظة لتعلق بها، وطلب منها أن تصحبه الى الخارج، لديه
رصيد محترم من العملة الصعبة في أحد البنوك السويسرية،
أين هي الآن؟ في اليوم السابق على دخول الأعداء الى
الخطط حاول أن يتبول، لم يستطع، أصيب بحصر بول، نقل
الى مركز علاجي خاص بالأجانب.

لم تعد هناك مستشفيات عامة أو خاصة منذ زمن، بكى
غما وقهراً والمأ، تذكر زمن اللذات المولّي، اثناء ارتفاع درجة
حرارته افضى اليه الزعراني بأن معارك عنيفة نشبت في
الليلة الماضية، وأن أهالي الحلاوي يهددون الحي السابع كله،
ولا بد من اتخاذ اجراء عنيف، وعاجل، لم يستطع التنوخي
النطق، وعندما اصغى الى نشرة أخبار اذاعة صوت امريكا
علم أن مجدي رمزي ابتدع بدعة جديدة عرفت بالاستفتاء اذ
اعلن انه أجرى ثلاثة استفتاءات عامة، تم أولها في الصباح،
والثاني في الظهر، والثالث في المساء، وان النتيجة في الحالات
الثلاث مائة في المائة، وافق أهالي الخطط، كلهم بلا استثناء
على دخول الأعداء مظفرين الى الخطط، جحظت عينا
التنوخي، مجدي رمزي يطارده، اثناء تمدده فوق السرير
اقترب منه رجل يرتدي ثياب التمريض الدولية. بدا وكأنه
يحدث نفسه، في احد الأيام رأيت جواء اربع صرر، قالت

لآدم.. ما هؤلاء؟ قال انهم الصبر، والقناعة والرزق والطمع،
 قالت: اذهب وهات الصبر، عاد ليقول ان الجمل اخذه، قالت:
 اذهب وهات الرزق، عاد ليقول ان الطير اخذه، قالت:
 اذهب وهات القناعة عاد ليقول ان الكلب اخذها، قالت..
 آه.. لم يبق إلا الطمع.. انه قدر الانسان، ارتعد التنوخي،
 حكاية من الفولكلور الخططي الملقى، من أنت؟ لكنه لم يجد
 أي شخص أمامه، بينما الحرقان يكوي مثانته..، في هذه
 الليلة جرت استعدادات لا مثيل لها. اقيمت منصة اقيمت
 على عجل بواسطة القوائم الحديدية في نقطة مرتفعة قرب دكة
 الكتاب، ظهرت أعلام الأعداء خفاقة عالية بلونيهما الأزرق
 والأبيض، وعلقت صور قادتهم الذين كانوا موضع سخرية
 رسامي الكاريكاتير، والصور المتحركة على امتداد قرون
 طويلة، وقف مجدي رمزي يحيط رقبتة بوشاح الخيانة
 العظمى، وبجواره شخصيات مجهولة تظهر لأول مرة في
 الخطط، كان يسك حبلاً حريراً ناعماً ينتهي بشرشوب فضي
 راح يديره على مهل، سلطت العدسات عليه، واهتم المراسلون
 بالتقاط صور متعددة لزوايا وجهه، ولم يدر أحد منهم ان إثارة
 تعلقت بزوجها وزحفت على بطنها وشدت شعرها في البيت، توسلت
 اليه ان يصحبها معه، ان تقف خلفه فوق المنصة، ان تدلي ولو
 بحديث واحد الى الصحافة العالمية. ستخبره مقدما بنصه، لن

تحدث إلا عن عبقريته، وساعات معاناته التي سبقت اعلانه
 فتح الخطط بأسرها للأعداء، نهرها، دفعها، ضربها، ثم اغلق
 عليها الباب، تركها تندب حظها، وسوء بختها، وميل أملها،
 انه لا يفكر فيها الآن، بمجرد ان يفارقها تروح تماماً من ذهنه،
 وكأنها لا تنتمي اليه. انه هادئ، رصين، هذا البرود الذي
 عرف عنه منذ أيام دراسته..، بدأ صوته هادئاً...، «... يا
 أهالي الخطط الدائنين، ويا سكانها الأصليين، تقترب الآن
 مجموعة حملة الأعلام، اعلام الأعداء، نفس الاعلام التي
 ارتفعت فوق مواقعنا الحصينة عند اطراف الخطط في كل
 هزيمة حلت بنا، انها الأعلام التي رضعنا كراهيتها ظلماً، ها
 هي ترفرف في سماءنا. أرى من موقعي الأطفال اليتامى
 يلوحون بالاعلام، وجوه بريئة لا تعرف الحقد القديم، حرضنا
 على اختيارهم، كل منهم فقد أباه أو أمه أو عائلة في غارة أو
 معركة...»

ان طابور الاعلام يمر، تسود فترة صمت، تتردد
 هتافات..

يعيش الأعداء

يعيش قتلنا..

يعيش من أذلونا..

ليحي الذل.. ليدم العار..

يستمر مجدي رمزي في وصف دخول الأعداء بنفسه..
« .. تمر أمامي الآن طواير المشاة، انهم فخر الأعداء، كم
اشهروا السناكى، كم صوبوا من طلقات الى صدورنا .. »
هتافات بعيدة، تبدو خافتة، ثم ترتفع ..

« يعيش مشاة الأعداء .. »

« .. وتلك قوة العدو الضاربة، إنها تهدر بجنازيرهم فوق
أرضنا، لطالما صبت علينا حمماً، انها الدبابات التي أذاقتنا مر
الهزيمة ثلاث مرات ... »

« .. في نفس اللحظة ترقق في السماء تشكيلات من سلاح
الطيران المعادي، أهلاً بهم في سمائهم، كل طياري الخطط
يعلمون البسالة التي يتحلّى بها الأعداء، كان سلاح الطيران
هو ذراعهم الطويلة، أوجعونا به، بفضلهم عرفنا طعم الشظايا
الساخنة .. »

اننا نرى بأعيننا الذراع الطويلة للأعداء .. »

« تعيش الذراع الطويلة .. »

يعيش سلاح الأعداء الجوي .. »

« .. تسقط طائرات الخطط التي قاومتهم .. »

« .. ها هم أسور الماجوج، رجال المظلات. كلنا يعرف

مرارة بأسهم، نحييهم من أعماق قلوبنا ..

« يعيش اسود الأعداء .. »

« يعيش رجال مظلات العدو .. »

ترتفع الهتافات، خيول تعدو حول المنصة، واعلام ترتفع،
وزغاريد، وحراسة مشددة لم يسبق لها مثيل، تمر وحدات
الاشارة، عاش سلاح الاشارة، وحدات من الرعاية الطبية،
عاشت الرعاية الطبية، كتيبة كاملة من المهندات، عاشت
المهندات الجميلات، تنطلق صواريخ ملونة، ترقق طائرات
تقذف مظلات صغيرة تنفتح ويطل منها علم الأعداء، عاش
الأعداء، توزع كتيبات أثناء الاحتفال تضم سجلاً بالهزائم
التي لحقت الخطط على أيدي الأعداء، صور جنود الخطط
القتلى، دبابات الخطط المحطمة في حروب المشارف، وحدات
رجال الشؤون الادارية، عاشت الشؤون الادارية، عاشت
جيوش الاعداء، تسقط الخطط، تسقط الخطط.

ألف يا مخفف الرزايا، ارفع الغضب والمقت عنا. يا
علماً بالسرائر، دخل الأعداء الى خططك المحمية، انتشروا
فيها، ومن مساحة العرض خرجت وحداتهم المقاتلة مباشرة
للالتهام بأهالي الخلاوي. وفي نهاية الاسبوع الأول صدر بيان
من الأعداء الذين أصبحت لهم اليد العليا، يقول بان الخلاوي

جرداء تماماً. وانه تم استكشاف كل شبر فيها، ولم تعثر فرق الاستطلاع على أي انسان حي، أو حيوان، ان الخلاوي مكان غير صالح بالمرّة للعيش، وكافة ما روي من قبل ما هو الا كذب واختلاق لاشاعة الأمل الكاذب في الخطط، اما الاضطرابات التي وقعت هنا أو هناك فان التسببين فيها هم قلة من العجم، وقد تمت ابادتهم، ثم اعلن بيان آخر لقيادة الأعداء الموحدة انه تم الاتفاق مع عدة دول نووية على تصدير مخلفاتها الذرية الى الخطط، وسيتم رش هذه النفايات في منطقة الخلاوي، ولا داعي لدفنها، لأن الخلاوي جرداء تماماً..

سياحة الفناء

ويسبقها مدخل بسيط..

.. جاء زمن الأخبار الطوال والنوازل، اشتعل الرأس مني وأصبح قلبي في لون القار. وأسفاه على الخطط الجميلة، وأسفاه على أيامها اللطيفة. وأسفاه على نهرها الرقراق، وأسفاه على مناعة خلاويها التي زعم المرجفون أنها لم تكن، وأسفاه على الأمسيات، والظلال، وأصداء الضحكات عند النواصي الخريفية، والليالي، وسكونات الظهيرة، ولحظات التفنن، وأيام التجلي، وليالي الأهلة، ونهارات الشمس الوليدة، العفية، الهرمة، ورضابها المسكي، واللحظات الأولى للقاء العائدين بها، وحمرة الشفق، وغموض آثارها القديمة، والته في عيون نسائها. وأسفاه وأسفاه، ولّت الخطط كما يولّي كل جميل يا لوعتي، هل كانت الخطط محض طيف أو حلم، أو تلاشت مع بخار الندى؟ هل كانت مجرد خانا ضخما أقام فيه من أقام، ورحل منه من رحل، ثم جاء يومه الموعود. أخبرني، إشرح لي. فسر لي. بصرني، إهديني.. يا صاحب النظرة الدائمة، والعين التي لا تغفل أحقاً تمكن منها غير

المخبين، الكارهين لها. احقا باعوها وخربوها بخطوط باهتة في دفاتر حسابات سرية لبنوك بعيدة صاء، عنها، أحقا راحت برخص التراب، أحقا لم يتبق إلا الأخيار الصعبة الطوال بعد. ان زحف البحر وغطى كل يابس وافنى الحضرة؟ الحضرة، لحظة ولادة البراعم، وتفجر الأزهار، آه.. الفواث الفواث، الفواث، لم يتبق إلا ساحة الفناء حوار الصم، البكم، العمي، لا يرون إلا أنفسهم، وما انقضى، العيون في أواسط الرؤس والأكف أما ملوخة أو ضارعة هنا مضيق الضيق، تحتلظ الاضائل بالضحي، مدخلها كعق الرحم لا يتسع إلا لمرور شخص واحد، هنا يتبلور النظر الأخير، استتبت الأمور لأعداء الخطط، راقى لهم، وحليت في عيونهم، وقاسى اهالي الخطط ذعرا وخوفا. وهجاها، حتى جاء زمن لم ير منهم إلا نائح أو باكي أو صارخ أو جريح أو قتيل أو شاكي، خلت منهم احدى المواضع التي عمرت بهم دهورا مؤصلة سهلوا لهم الرحيل، وحالوا النفي، ثم سيق الفوج في أثر الفوج، فرقوهم في أرجاء العالم الفسيح بحيث لا يجتمع سبعة من اهالي الخطط في مكان واحد، فما الحسك في الأراضي التي كانت عامرة. استفحل الشوك، وكثرت البقايا المحزنة في كل مكان. بقاياهم يا حسرتي، من مناخذ، وحشايا ومرايا، ومزاهر، وكراسات وبطاقات بريد، ودفوف، وبيارق، ومقاعد مخطمة، ومباخر،

ولعب أطفال، واقلام، وكتب كانت محرمة، في ريف الخطط عشمش البوم، وتكاثر الغربان، راحت أنفاس الناس، بها كان ينمو النبات، وتتورد الطيار، ويأنس الحمام، وتناى الهوام، وتفزع العناكب، جاء الحين الذي يمتليء فيه النهر، يفيض، تتفجر الأرض بخصوبة الأثنى الولود. ما من ايدي تعدل، أو حوافر تقلب، أتى الأعداء بانابيب البلاستيك، شفتوا المياه، ثم جرفوا الطمي حتى ظهرت قيعان الحقول فرشوا صحارهم بالخصوبة الخططية.. آه يا مراري، لم يكتفوا بذلك، بل صدروا الباقي، هنا وقع العجب، اذ بدأ البحر يطغى على البر، تآكلت حواف الخطط، ثم زحفت المياه بلا راد أو مانع، زحفت قاسية، هادئة، تبدو كخيوط نحيلة ثم تغطي اليابس، وتمضي الأيام السود فيصبح لها عمق، وتسبح فيها غمامات السماء الساجدة في الأعالي، وظلال ما تبقى منتصبا، في هذه المرحلة ظير مؤلف مجدي رمزي الذي قال فيه إن الخطط عاشت أكثر مما يجب ولو استمرت مع الزمن لتحللت وفنيت، قال إن الخطط لم تعد موجودة الآن، تاريخها تفرق على البلدان والأمصار سكانها اندمجوا مع بقية الأجناس، قال إن الخطط راحت، واستعادتها مستحيلة على أية حال نجحت خطة بيعها بثمان لا بأس به، عاد على عدد من شخصياتها، بدلا من اختفائها الطبيعي في المستقبل بلا ثمن،

في هذه المرحلة ايضا ترددت حكايات واهية كأنفاس الطفل المحتضر تقول بان الخطط لم تخرب، لم تنته، ذرى الخلاوى لم تمسها المياه، وفي وقت معلوم يخلق الطائر الأخضر لفترة مجهولة المقدار، يقلع زاهيا، متوهجا، يندلع لونه في سماء الخطط الصقيعية، يبدو كرسالة غامضة قادمة من اعماق الكون، يطوف حتى الحدود، وان ظهوره يعني ان ثمة شيئا هنا مجهول، غامض، دفين، ستظهره الأيام القادمة. قيل إن سكان الضاحية النائية هربوا كلهم الى خارج الخطط كان لديهم أمل في اكتشاف مغارة حفظ الآثار حتى اللحظة الأخيرة، وان الأستاذ بينهم، حكايات عديدة ترددت بين الأهالي الذين بدأوا زمن التفرق والشتات العظيم، لم تتوفر معلومات دقيقة لأن المناطق التي هجروا اليها شديدة النأي عن الخطط، قيل انهم يتراسلون بعيدا عن النظم البربرية المعلومة وانهم يعلمون أولادهم اللغة المندثرة والتاريخ العتيق، وحتى لا تضل الفروع وتضيع الأصول، قيل انهم يعدون العدة للاغارة على الأراضي المفروشة بطمي الخطط الخصب لينتزعوا ما يقدرون عليه، بدءا من ملء قبضة اليد حتى اثقل الأثقال، وانهم سيتجهون مرة اخرى الى الخطط ليضمروا خفية. حتى تظهر الخطط من جديد، قيل إن الخلاوى ليست خربة، وفي موضع منها يوجد بعض المقاتلين

الأشداء. تعددت الأخبار الطوال، اختلطت الأزمنة، وفي الأقصى امتدت ساحة الغناء، غريبة مجيرة، الداخلى اليها لا يدري ان كان لا زال موجودا في الخطط ام أنه يحوم بعيدا، أو انتقل الى مكان آخر، فيها تبطل الحواس وتنشط الذكريات: تلين تحت اقدام وتيبس تحت اقدام اخرى. ترق وتلتهب، وتبدو للبعض كأنها مدن صيغت من الماء، محاطة بسور غير مرئي لا يمكن تخطيه كما أنه منبسط حتى النهاية حتى ليفلت من محاولة خط الأفق ان يتاس به، الداخلى اليها لا يعرف أمه أو أبيه وان جاورها، لا تصله صلة ولا تضيء قلبه جذوة آنية.

يبدو خالد مهموما، حزينا، يتساءل، زاعقا، كيف انقضت هذه المسافات، كيف؟ خلف وراءه ألف وبال، وعهود، كيف انقضى زمن الفتوة؟ الأم صارت كل هذه الحال؟ فأرى الخطط والبحر يزحف. وقتئذ كان من المقربين الى الخضر، ما من معركة جرت إلا وشارك في تصميمها. ثم تحمل عبء ترحيل واخفاء ما تبقى من عصور الخطط البالية. اصبح من القلائل الذين يسكون بأول الخيط الذي يقود الى مغارة الآثار العظمى عبر المعلم الياس، عرف الموت سبعائة وسبعة وسبعين مرة قبل وقوعه في الأسر وابتلاعه عرق التبات السام، آه لو عادت الخطط من جديد أو عاد هو اليها،

يمكن للامور أن تمضي بشكل افضل، سيميش بعض المتع التي
ضياعها، اما من وسيلة للبدء من جديد، لكن مع الأم،
والأب.. واسماعيل، أما من وسيلة، سيعرف قيمة الثواني.
سيدرك ان الزمن سيف باتر لكنه لا يؤلم لحظات الدنو، لن
ير بلحظات تردد، سيدعو للمجم بلا هوادة، سينذر عمره
ليدرء عنهم خطر الانقسام، سيمى الى الخضر منذ السطور
الأولى!

على مقربة يقف رجل بدين، قمة رأسه اضيق
من وجنتيه عيناه واسعتان، يمسك بيديه آلة إيقاع غربية
الشكل، يحرك اصابعه، يتأيل مع النغم الذي لا يسمع، يقرب
الآلة من فمه ثم ينقلها فجأة حتى تجاوز اذنه ثم يلمس مقدمة
ركبتيه، ثم يتراجع الى الخلف ماداً يديه، ملوحاً بالآلة ضبط
الايقاع...

تقف بجنتيه أم خالد واسماعيل. لم تتغير ملامحها عما بدت
عليه آخر مرة في الخطط، في عينيها نفس الاستسلام الهادئ
الذي كانت تقابل به اعنى الظروف، حتى عندما ناء المرض
بثقله وغبائه لم تنزعج، لم تيأس، انها الوحيدة في الخطط التي
أدركت ايقاع القدر الخفي الداخلي وحتمية المصير، ولم تعبر
عن ذلك لأن أمور الحياة اليومية كانت تنهكها وتأخذها من
كل صوب، انها لا تنطق، لا تزعق متمنية عودة الخطط،

تدرك عبث ذلك. تعرف أن المشيئة نفذت، لكنها تذكر
ولديها وزوجها فتدمع صامتة وتلوح بيديها لتخفف عن صدرها
التعس، عسى ان تلمح، عسى ان يندفع اليها حين تنظره،
لكن الكل متشاغل....

كان اسماعيل تائهاً عن نفسه في الزحام والخلق من حوله
مضطرب..

يصرخ الهلالي محاولاً ان يتذكر بيت الشعر في صياغته
الصحيحة..

ليس — في نفس المرء...
تجري الرياح بما لا تشتهي..

آه بما لا تشتهي السفن..

تنحني شابة حلوة التقاطيع، تهتز بأكية. لماذا لم تتحقق
امنيته التي ابدتها عند عبور الميدان الكبير، انا باكينام
ممتاز، كانت رغبتى أن أصبح مذيعة، أمانيتها اجهضت، لم
تحتل موقعا متميزا في الخطط، لم تكن الا مجرد خادمة في
دكان يبيع عصير الفواكه المغشوش، لماذا لم تتحقق امنيته
البسيطة.. هل طلبت المستحيل؟ لماذا قهرتها الظروف، أليس
من حقها ان تجرب من جديد..

ير امامها رجل قصير، يرتدي جلباباً مزقاً، وطرطورا له

شراشيب، يمك عصا طويلة في نهايتها قمع مثلث من حلوى
بيضاء وتحتة علبة من الصفيح داخلها قطع معدنية تحدث
صوتا يلفت النظر. يهز العصا، لكن لا احد يلتفت ولا اطفال
يهرعون.. يسأل فتى لم يتجاوز العشرين.. كيف الحال خارج
تلك الساحة؟؟

يصرخ التنوخي وما من مجيب..

هل من المعقول ان تمضي الأمور بهذه السرعة؟ هل يولي
كل شيء؟ هل تنتهي الخطط، اين هدى الخلاوي؟ انه يطلب
فرصة قصيرة، لن يوافق على دخول الأعداء، لن يوافق على
بيع قطعة اثرية، او شبر، يتمنى ان يعود صحيحا معافي، أن
يرجع زمن اللذات، لتمنح له الفرصة وسيكون أول من
يتصدى للاستاذ، لمجدي رمزي، للعناني، اما ان تولي الأمور
هكذا.. الا يرجع بعض مما كان فهذا حرام.. حرام..
حرام..

على مقربة يمك رجل ضخم الجثة بأوراق اللعب، يقذف
بها واحدة اثر الأخرى، هذه واحدة، الثانية، الرابعة،
السابعة، كان يخاطب من لا يراهم، راجيا ان ينتظروا.. ان
يتمهلوا حتى يروا ما سيفعل..

رفع رجل يده، قال انه مهندس، احتل مكانا من أسوار

الخطط ظهر كومضة، كانت لديه آمال ومشاريع لقهر
الصحارى والجذب لكن الفرصة لم تعط له. خرج منذ فترة
مبكرة، لو ان ما حدث لم يحدث لما دخل الأعداء الى
الخطط.. لتكاثر الأشداء، لنجت الخلاوي من نفايا الذرة..
لما دفعت الأرحام أي جناء لو عاد ستتغير أمور من بعدها
أمور..

على مقربة يقف الوتيدي، قسماته هادئة البال، خلف
ذكرى لن تنضب أبدا، لم تشهد الخطط مقاتلا مثله، وصف
بأنه أشد المحاربين الذين تنفسوا هواءها، انه راض لأنه أتيح
له ان يصلح أمره، بعد أن حاولوا افساده، لكن ما آله انه لم
يبق حتى يرى الأعداء مولين، مبتعدين، انه لم يمك الأستاذ،
لم يقطعه ويلقي بكل حبة منه في مكان، عبثا يحاول البحث
عنه هنا، تحتلظ الملامح، تسيل التجاعيد، تنصهر العيون،
حتى اثيل، أمه، والولد.. صعب.. صعب..

يزعق برنق مصفقا..

يا ناس، يا ناس، يا ناس..

يعلو نحيب خشن، راحت أيام الهناء، ولت ليالي العز يا
أسفي..

غناء تبكي لسماعه الأجنة في الأرحام..

يا أسمر يا أبو الزند صعيدي
حبك يسري في وريدي

تبكي ايثار بحرقه، لماذا لم يتحقق أملها البسيط في
الخطط ظلم ظلم، مجرد أن تقف إلى جواره أثناء تسلمه
الجائزة أو أثناء وصفه لدخول الأعداء. لماذا لم يسمح لها
بالأدلاء بجديث إلى صحيفة؟، ألا يكفي معاناتها؟ ألا يكفي
ما ذاقته من أجل اللحظة المرتجاة؟ ان هذه الخطط تخلو من
العدل.. لماذا لا ترجع ولو للحظة تقف فيها إلى جواره، ثم...
يتمهل العناني، الضوء يؤدي عينيه، اعتاد الأضواء
الصناعية في المكاتب التي لم يخرج منها منذ سنوات. صاح
فجأة.. لا.. ورب الخطط.. لا، انه لن يجتثى لومة لائم،
سيخرج عن صمته الذي استمر، سيظهر لأول مرة. امتدت
يده في إشارة حادة. ثم خفضها إلى جواره. إلتفت برأسه إلى
اليمن، ثم إلى الشمال، رفع يديه معا.. صاح.. لا.. ورب
الخطط، انه لا يخاف.. سيتكلم، سيفضي بالكثير من الأسرار
التي حفلت بها هذه الخطط، التي لم يقدر لها أن تعرف، أو
تذاع، سيقول، من هم أهالي الضاحية النائية، سيكشف
حقيقتهم التي ظلت غامضة، بل سيقول ما هو أخطر من ذلك،
سيتكلم عن الدور الحقيقي للأستاذ في الضواحي، لا.. بل
سيصرح بما سيصدم الكثيرين، سيوح بما لا يمكن لانسان ان

يتخيله، سيحدث عن الجهة التي ذهب إليها الأستاذ، والمكان
الذي أقام فيه، وكيف عاد إلى الخطط. سيعلم الأرقام
السرية لحسابات البنوك، ومقدار الأرصدة التي ضاعت على
أصحابها لمجيئهم إلى ساحة الفناء، وسيبذل جهده ونفوذه لدى
كبار لصوص الدنيا ليعيد كل شيء إلى الخطط، النقود،
المزارع، الأسهم، الخيول الأصيلة، الآثار المنهوبة... انه
يتوقف شاخصاً مزبداً، ما من أحد يصغي إليه، ما من انسان
يعبأ به هو الذي كان ذكره يملأ القلوب فزعا، لم يتوقف
أحد، لم يصغ إليه أحد..

يندفع الجعيدي ضاحكاً، انه لا يرى العناني، أو ابنه أو
امراته أو وصول البوليس الذي رأى مؤخرته عارية، ولا
مفتش الصحة صاحبه الذي اتهم بالتجسس في وقت ما، لا
يذكر مجيء الوتيدي إليه وقوله له.. ساحني، يوشك أن
يصطدم بايثار، لا يصغي إلى تساؤلها المستمر، يرتفع غناء
غامض، بعيد، وايقاع نحاسي، يضحك الجعيدي ولا يدري
لماذا؟

يتمتم قنديل هادئاً، لم تكن الأمور هكذا عند عبور
الميدان الكبير، لم تكن الأمور هكذا...
يستغيث صاحب الفندق القديم الأغراب ملأوا الخطط،
الأغراب زحوا الخطط، الأغراب اخذوها..

تمر وجوه غريبة، لم يظهر أصحابها في الخطط، أزياء مختلفة.. يحرك عجوز رأسه الى الأمام، ثم الى الخلف، وفجأة يخرج لسانه.

تقف هدى المحلاوي على مهل، شاهقة المري، مضوعة الجسد، فارهة، مرمرية، لم ينل الزمان منها، خصرها دقيق حتى لا يرى، لم تكن تظن أنها ستجيء الى ساحة الفناء بمثل هذه السرعة، لم يعرف الكثيرون أنها من الشخصيات القليلة جداً التي أقامت طوال الوقت في الضاحية النائية، بل كانت من أهم شخصياتها، تخطط، وتقابل، وتأمر وتنهاي، لم ينلها إلا برنق طوال مسافات الضواحي وحتى مدخل الساحة، لم يدرك اسرار جسدها الا برنق، وكثيرا ما استطلعت رأيه في أخطر الأمور المتعلقة بالخطط، وقوله مها بدا غريبا ينفذ، تحوله الى واقع، لو عادت الخطط من جديد فستختاره، ولن تخفي علاقتها به، انها تتجرد من ملابسها، يتكور نهذاها في الضوء العجيب، لكن ما من أحد يتطلع، ما من انسان يرنو.. يتشقلب رجل على مقربة منها. لا أحد.. ترى كيف أصبحت ملامح الأستاذ انها لا تدري.. وما من انسان يجيبها..

ترتفع أدعية المرابطين، لا يرون بعضهم وان بدوا على هيئة جماعة، تتوحد حركتهم ولكنهم متباعدون.

امراة شقراء الشعر تشد شعرها، تشير بما يعني أن أحدهم

سلبها نقودها، وأنها تود عودة الخطط لاسترداد ما ضاع..

طفل رضيع يبكي

فتاة مجهولة الاسم تصرخ، تنوح، انها من بلاد بعيدة لا علاقة لها بهذه الخطط. تريد الخروج من الساحة، ليس لها دور، لم تظهر مرة واحدة في الخطط. تريد الابتعاد عن هذه الساحة.. ليس لها دور.. ما من مصغ.. ما من مجيب..

تود خيرية لو تلمح أمها، منذ رحيلها بعيدا الى تركيا لم شم رائحتها ولم تسند رأسها الى كتفها، وعندما جاءت الى ساحة الفناء لامت نفسها لأن أياما بلا حصر مرت بها ولم تتذكر أمها في البلاد البعيدة..

تختلط الأصوات، تضج الساحة، يعلو صوت هاتف خفي لا يرى.. يبدو الصوت وكأنه لشخص وصل الى الساحة لتوه.

الخضر لم يميت، الصور التي نشرت لجثته كاذبة، والأصبع المقطوعة التي عرضوها وقالوا إنها تحمل بصمته ليست أصبعه، الخضر لم يميت ولن يموت. انه يظهر يوميا عند جسور الفجر وحدود الضحى، يتنقل مع النسائم ويتحول الى ضوء فوق ذرى الخلاوي، وفوق القمة الجرداء يلتقي بسليمان المولود في شارع المفاجأة وربيب الصعاب كلها وحافظ أصول الخطط ومنطوقها وجمادها، انه يطوف بقية النهار على أهالي الخطط

في المنافي والمهاجر ليطمئن عليهم، أما الياس فيطوف بهم ليلا،
ثم يلتقيان مع سليمان قبل الفجر في موضع من الخطط لم تفرقه
مياه البحر، يقفون ليتأكدوا من سلامة المدخل الوحيد الى
المغارة العظمى، ثم يشهدوا لحظة اقلاع الطائر الأخضر
عندئذ تطمئن قلوبهم..

يا ناس، يا ناس، أهالي الخطط الذين أكلوا طعام الشقاء
كله، يستعيدون طمي الخصوبة قبضة اثر الآخرين، ويلقحون
الأرض المغمورة بالماء المالح. في كل يوم تزداد مساحة
الطمي، وتنمو اليابسة، المغارة سليمة، المومياءات العظمى
سليمة، لوحة تولوز لوتريك لم تمس، القلائد والحلى، التائم
والتعاويد، الأناجيل والمصاحف والأناشيد القديمة ونصوص
الحكمة والمتن الأصلية، وما جادت به القرائح..

يا ناس، الخضر والياس وسليمان لن يموتوا، لأنهم شربوا
من نبع الحياة الخفي في الخطط، وعبروا النيران الأزلية،
انظروا.. حدقوا بالبصر الحديد، الخطط زاهية وسرها نائي،
الخطط محمية وأصولها محفوظة. من قبل غمرها البحر مرات ثم
استخلصها الأشداء المباركين. الخطط مرسى المراسي،
الخطط تنضر، لماذا لا تبصرون؟

تصفق أيدي، يضيع صوت الهاتف الخفي، تدبذب

أقدام، تشخص عيون، يصرخ رجل من أعاجم الخطط.
يا أيام الكفاح عودي.. يندب آخر أيامه في الخطط،
يزعق ثالث..
الفواث، الفواث، الفواث..

جمال الغيطاني

١٩٧٦ - ١٩٨٠

المحتويات

١١.....	السور الأول
١٥.....	الشارع الأول
٣٥.....	السور الثاني
٤٧	الشارع الثاني
٧٧.....	السور الثالث
٩٣.....	الشارع الثالث
١١٥.....	السور الرابع
١٢٧.....	شارع الوتيدي
١٥٥.....	السور الخامس
١٩٣.....	السور السادس
٢٠٩.....	الميدان الكبير
٢٤٣.....	الضواحي ، والنواحي ، والخلاوي
٣٢٣.....	الحي السابع
٤٠٥.....	حروب الخلاوي
٤٢٥.....	سياحة القناء